طه حسين

على هامش السيرة

٣

دار المعارف

عَلىٰ هٰامِش السّيرة

٣

طه حسين

على هامش السيرة

٣

الطبعة الثالثة والعشرون

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع؛

صريع الحسد

١

كان الشيخ مهيباً رهيباً، وكان فخماً ضخماً، قد ارتفعت قامته فى السماء وامتد جسمه فى الفضاء. وكان وجهه جهماً عريضاً، تضطرب فيه عينان صغيرتان غائرتان بعض الشيء. ولكنهما على ذلك فى حركة متصلة لا تكادان تستقران، وهما متوقدتان دائماً ينبعث منهما شيء كأنه الضوء المشرق على هذا الوجه الجهم الغليظ، فإذا لحظتا شيئاً أو أطالتا النظر إليه فكأنما تقذفانه بالشرر أو تسلطان عليه شواظاً دقيقاً قوياً من النار. وكان الشيخ فوق هذا كله ذكياً حاد الذكاء نافذ البصيرة، يتعمق ما يعرض له من الأمر دون أن يحس الناس منه تعمقاً لشيء. يسأله الناس فيجيبهم لساعته بجواب من فكر وقدر وأطال التفكير والتقدير، فيعجبون منه ويعجبون به. وكان بعد هذا كله بطيء المشى ثقيل الحركة وقوراً فى كل ما يصدر عنه، وكان صوته يلائم هذا كله من أمره، فكان صوتاً ضخماً عميقاً، يسمعه السامع فيخيل إليه أنه يخرج من غار بعيد القاع. وكان الناس يهابونه ويرهبونه كما كانوا يجلونه ويكبرونه. فإذا سألتهم عن مصدر ذلك لم يعرفوا كيف يجيبون، إنما كان هذا الرجل يبهرهم ويسحرهم ويملأ نفوسهم إكباراً وإعظاماً، فإذا

ذُكر الوليد بن المغيرة فقد ذُكر سيدٌ من أروع سادات قريش، ورجل عظيم من رجالات البطحاء .

وكان ابن أخيه عمرو بن هشام فى ذلك اليوم فتى قويًّا نحيفاً شديد النشاط كثير الحركة لبقاً فى كل ما يصدر عن جسمه ، رائعاً فى كل ما يصدر عن عينيه القويتين البرّاقتين . وكان على وجه الفتى دائماً ، وفى ذلك اليوم خاصة ، غشاء غريب فيه عبوس يصور الجد المر ، وفيه ابتسام يصور الدعابة الحلوة . فكان الذين ينظرون إليه يطمعون فيه ويشفقون منه . وكان الذين يسمعون له يحارون فيما يسمعون أجَدٌّ هو أم هزل . وقد أقبل فى ذلك اليوم على عمه يمشى مشية فيها كثير من الخال والكبرياء وكثير من الاعتداد بالنفس والازدراء لغيره من الناس ، وفيها مع ذلك شىء من السخط والحزن .

كل شىء فى هذا الفتى كان يصور رجلاً شديد الطموح بعيد الأمل واسع الرجاء . ولكن الأسباب قد تقطعت به ، فهو غير راضٍ عن نفسه ولا عمّنْ حوله من الناس ولاعما حوله من الأشياء . يريد أن يذعن لظروف الحياة التى لا يستطيع لها تغييراً ولا تبديلا ، ولكن نفسه لا تطيق الإذعان ولا تطمئن إليه، فهى فى جهاد متصل، وصراع مستمر . وكان الذين ينظرون إليه فى ذلك اليوم يتساءلون عن مصدر هـــذه الخيلاء التى كانوا يرونها فى مشيته ، وفى تلك الابتسامة الحائرة على وجهه التى كانت تظهر لتستخفى ، وتستخفى لتظهر ، كأنها وميض البرق فى الليلة المظلمة . وكان بعضهم يظن أن مصدر هذه الكبرياء هؤلاء الرقيق

الذين كانوا يسعون بين يديه يحملون أثقالا من الذهب والفضة لا تجتمع إلا لأصحاب الثراء الضخم من سادة قريش . وكان بعضهم يردّ هذه الكبرياء إلى أن عمرو بن هشام كان يسعى إلى عمه الوليد بن المغيرة ، فكان يستحضر فى نفسه مجد مخزوم كلها تليده وطريفه ، وثروة مخزوم كلها ما استقر منها فى مكة ، وما انتشر منها هنا وهناك فى أطراف البلاد العربية ، وما تجاوز منها البلاد العربية إلى تلك البلاد البعيدة التى كانت تنتشر فيها تجارة قريش .

وكان الشباب من أتراب عمرو بن هشام يرمقونه بأبصارهم ثم يردّونها عنه مسرعين ، منهم من يرضى عنه ، ومنهم من يسخط عليه ، وكلهم يبتسم له ابتسامة فيها كثير من الحسد وفيها شىء من الاستخفاف . فقد كان أتراب عمرو بن هشام ينكرون غروره وافتتانه بنفسه ، ويبادونه بهذا الإنكار جادين حيناً وهازلين أحياناً . وكان منظراً لا يخلو من روعة مضحكة ، مقام هذا الفتى الرشيق الأنيق الساخر العابث بين يدى عمه الوقور المهيب وقد وضع الغلمان أثقالهم ، وقال الفتى فى صوت لا يخلو من فكاهة ولكنه لا يخلو من بعض الملالة والسأم أيضاً : « هأنذا يا عم قد أقبلت أحمل إليك تحيتى وأحمل إليك مالى ؛ فقد يظهر أن من الحق علىّ أن أساهم فيما سترحل به القافلة من قريش إلى الشام ، فهذه أسهمى من الذهب والورِق أطرحها بين يديك ، وما أشك فى أنك ستردها علىّ أضعافاً مضاعفة » ثم تضاحك الفتى وهمّ أن ينصرف ولكن عمه أشار إليه أن أقم ، ثم قال له فى هدوء وأناة : « ما أرى أنك أقبلت

لتحمل إلىّ هذا المال وتلقى إلىّ هذا السخف من القول ؛ فقد كان هؤلاء الغلمان يستطيعون أن يحملوا إلىّ تحيتك ومالك ، وما أظن إلا أنك أقبلت وأنت تريد أن تنفق معى شيئاً من وقتك وأن تفضى إلىّ ببعض الحديث ، ولكنك تأبى إلا أن تعبث دائما . تُقبِل وأنت تريد أن تُدْبر ، وتُدْبر وأنت تريد أن تقبل ، لا تفرّق فى عبثك بين من تلقى من الناس ، سواء عندك لقاء الأتراب ولقاء الشيوخ الذين ينبغى أن تلقاهم بوجه غير هذا الوجه وحديث غير هذا الحديث » .

قال الفتى فى صوته الساخر الحزين : « ما تزال تنكر علىّ شيئاً كلما لقيتنى ، وما أزال عاجزاً عن أن أبلغ رضاك . فإنى لا ألقاك بهذه الدعابة فى أندية قريش ومجالسها ، وإنما ألقاك حرًّا فى هذه الدار لا يظهر علينا فيها أحد من قريش . ولست أدرى إلى أين تنتهى بنا هذه الأوضاع التى تفرضها قريش على عقولنا وقلوبنا وأجسامنا ! فنحن لا نستطيع أن نفكر ولا أن نشعر ولا أن نتحرك إلا على النحو الذى رسمته قريش للتفكير والشعور والحركة . ما أشدّ حاجتنا إلى شىء من السماحة ننعم فيها بالحرية فيما نفكر وفيما نشعر وفيما نأتى وما ندع من الأمور » .

قال الشيخ : « فأنت إذاً ساخط دائماً ، منكر للمألوف من عادات قومك وأوضاعهم دائماً . وقد كنت أنتظر مقدمك ، ولو لم تُقبل الآن لبعثت فى طلبك ؛ فإن بينى وبينك حديثاً أرجو ألا يطول ، وأرجو مع ذلك أن يُبلغنى منك ما أريد » .

قال الفتى وهو يبتسم عن رضاً صريح وفكاهة لا غموض فيها : « وإذاً فلا بدّ من أن أقيم ، فلا أقلّ من أن تأذن فى أن أسقى ما يبل الظمأ وينقع الغلة ، فقد جف حلقى ويبس لسانى » .

قال الشيخ : « وآية ذلك أنى لا أجد إلى وقفك عن الكلام سبيلاً ، اجلس حيث شئت ، يا غلام اسقه ما شاء من شراب » .

وأعرض الشيخ عن ابن أخيه ساعة شُغل فيها بكثير من شباب قريش وشيوخهم ، وقد أقبلوا يحملون إليه الأموال التى يساهمون بها فيما كانت قريش تُهيِّىء من تجارتها إلى الشام ، يحمل بعضهم إليه العين من الذهب والفضة ، ويحمل إليه بعضهم العروض المختلفة ، وهو يسمع لهم ويردّ عليهم ، وبين يديه كُتّابٌ يتلقون هذه الأموال ويسجلون ما يتلقون منها . فلما انقضت على ذلك ساعة وقل المقبلون بأموالهم ، أشار إلى كتّابه وغلمانه أن انصرفوا لتستأنفوا أمركم من الغد .

وانتهز عمرو بن هشام اشتغال عمه بمن كان يُقبل عليه وينصرف عنه فلها بمداعبة من كان يقوم على خدمته وخدمة غيره من غلمان الدار ، يعبث بهذا ويمازح ذاك ، ويسأل هذا ويردّ على ذاك ، يقلدهم فى لهجاتهم الغريبة المحطمة ؛ يتحدث إلى هذا بلهجة الحبشى المستعرب ، وإلى ذاك بلهجة الرومى ، ويسأل هذا أو ذاك عن شؤونه الخاصة ، وربما سأل هذا أو ذاك عن بعض شؤون عمه ، ولكنه كان يهمس بمثل هذا السؤال وربما أومأ به . وكان الغلمان يجيبونه كما كان يتحدث إليهم مصرحين مرة ، وملمحين مرة ومشيرين بالطرف واليد مرة أخرى ، ومبتسمين

له دائماً . فقد كان عمرو بن هشام محبباً فى دار عمه، ومحبباً إلى غلمان هذه الدار خاصة . وربما آثره هؤلاء الغلمان على ابن سيدهم الشاب خالد بن الوليد . كانوا يرون من خالد أنفةً واستكباراً وازوراراً عنهم . وكانوا يرون من عمرو تلطفاً لهم وعناية بهم . وكان عمرو غريب الأطوار حقًّا، فقد كان شديد الكبرياء عظيم الخيلاء إذا لقى نظراءه من أبناء قريش ، فإذا لقى الغرباء من الرقيق والخلعاء تلطف لهم ورفق بهم وخاض معهم فى ألوان مختلفة من الحديث كأنه واحد منهم

على أنه حين أحس أن عمه قد فرغ من الداخلين والخارجين وكاد يخلص له تكلف الجد وأشار إلى من كان حوله من الغلمان أن خذوا حِذْركم فقد جاءت الساعة الرهيبة . ونظر إليه عمه فلم يستطع أن يرد ابتسامة أشرقت فى وجهه حين رأى هذا الجدّ المتكلف وهذا الإذعان لما ليس بدٌّ من الإذعان له . ورأى الفتى ابتسامة عمه فأغرق فى ضحك متصل ثم قال : « لبيك عمى فإنى منصت لما تقول » .

قال الشيخ فى هدوء : « قد بلغتنى عنك أحاديث لا أحبها ولا أحب أن تتحدث بها قريش عن عمرو بن هشام بن المغيرة » .

قال الفتى وهو يتكلف الجد : « ويلى من قريش وويل قريش منى ! بماذا أنبأتك ألسنّها المنطلقة التى لا تستقر؟ » . قال الشيخ : « أنبأتنى بشىء عظيم كرهته ، وأرجو أن تكف عنه » . قال الفتى : « فتريد أن أعيد عليك ما أنبأتك به ألسنة قريش ؟ فإنها قد زعمتْ لك أنى أختلف مع شباب قريش إلى بيت نسطاس فنشرب ونعبث ونلهو ، حتى إذا

بلغنا حاجتنا من ذلك وهمّ أترابى أن ينصرفوا لم أخرج معهم وإنما تخلفت فأقمت عند نسطاس وأطلت عنده المقام، أسمع منه ومن جواريه، وأتحدث إليه وإلى جواريه . وقد أطيل المقام حتى يتقدم الليل ، فإذا هممت أن أنصرف أشفق علىّ نسطاس من غائلة الطريق ، وأشفق علىّ من كثرة ما شربت عنده من الخمر ، فدعانى إلى أن أنتظر الصبح عنده وما أكثر ما أستجيب لهذا الدعاء ؛ لأنى أحب بيت نسطاس وآنس إليه وإلى من حوله من الجوارى والغلمان . وقريش تنكر هذا وترتاب به ، وتكره لفتى شريف من فتيانها أن يبيت فى غير مبيت وأن ينفق الليل بعيداً عن أهله . وقريش تبيح لفتيانها أن يُلِمُّوا بدار نسطاس وأن يشربوا فيها الخمر ويعبثوا فيها ما طاب لهم العبث ولكن على أن يعودوا إلى أهلهم قبل أن يتقدم الليل . فلقريش وقارها ، وما ينبغى لفتيانها أن يُغرقوا بالعكوف على اللذات ، أو يوصفوا بإدمان اللهو والإسراف فيه » .

قال الشيخ : « وأنت تنكر من أمر قريش هذا كله ، وتأبى إلا أن تبادى قومك بما يكرهون ، فتخف حين يصطنعون الوقار ، وتصطنع الوقار حين يخفّون ، وتحرص على أن تكون أحدوثة الناس إذا أصبحوا وأحدوثة الناس إذا أمسوا ، لا بما تُقدم عليه من عظيم الأمر ولا بما تحاول من الشؤون الجسام ، ولكن بالدعابة إذا جدّ الناس ، وبالجد إذا لَهَوْا، وبالاختلاف إلى حانة نسطاس إذا أقبل الليل مع أترابك ، والتخلف عنهم إذا انصرفوا ، كأن بينك وبين هذا الرومى سرًّا ما ينبغى

أن يظهر عليه أحد إلا هؤلاء الروميات اللاتى يخلبن بهن نسطاس عقول الفتيان » .

قال الفتى : « أما أنى أنكر على قريش دخولها فيما لا يعنيها من أمرى فهذا حق . وأما أنى أتخلف عن أترابى عند نسطاس إذا انصرفوا حين يتقدم الليل فهذا حق أيضاً . وأما أن بينى وبين نسطاس وجواريه سرًّا لا ينبغى أن يظهر عليه أحد فهذا هو التكلف كل التكلف . فخمر نسطاس معتقة ، وجواريه حسان يفتنّ بما لهن من دَلٍّ كما يفتنّ بغنائهن العذب . وحديث نسطاس حلو ممتع ، يرضى حاجتى إلى العلم ، وشوقى إلى المعرفة ، ورغبتى فى الجد . فأنا أجد فى هذه الدار ما لا أجد فى أندية قريش . وأنا من أجل ذلك ملح فى زيارتها ، مطيل للإقامة فيها ، مفتون بما أجد عند أهلها من لذة الجسم والنفس جميعاً . وما أعرف أنى أعطيت قريشاً عهداً على نفسى أن أعيش كما تحب هى لا كما أحب أنا . وما أعرف أنى أتتبع شيوخ قريش وفتيانها بمثل ما يتتبعوننى به ؛ فإن أمرهم لا يعنينى ، فما بال أمرى يعنيهم ، وما بالهم لا يدعوننى وما أشاء كما أدعهم أنا وما يشاءون ؟ ! »

قال الشيخ : « إنك يابن أخى لَذَرِبُ اللسان حديد القلب نافذ البصيرة ، وإنى لأحب منك هذا كله ، ولكنى . . . . »

قال الفتى : « ولكنك تريد أن أنفق هذا كله فيما ينبغى لفتى من فتيان قريش أن ينفق جهده فيه ، من الجد فى التجارة حين يدعو الأمر إلى الجد ، ومن العبث بهؤلاء البائسين من العرب حين يكون

موسم الحج نضللهم ونغررهم ونزعم لهم أننا سادة الناس وأن إلينا وحدنا أمور دينهم ، وأى دين ! ثم من الفراغ للأحاديث التى لا تفنى إذا ربحنا من تجارتنا وأخذنا من موسم الحج ما نريد ، وصدر الناس عنا وقد أخذنا منهم أموالهم وعقولهم جميعاً ، هنالك نفرغ لأنديتنا فيتحدث بعضنا إلى بعض بأحاديث أقلها الحق وأكثرها الباطل ، ويبدى بعضنا لبعض أقل ما يمكن أن يبدى من نفسه ، ويستر بعضنا عن بعض أكثر ما يمكن أن يستر منها . نُكبر آلهتنا ونُعظم من أمرها وإنا لنزدريها فى نفوسنا أشد الازدراء ، ونمقتها فى قلوبنا أعظم المقت » .

قال الشيخ وقد أسرع بيده إلى فمه والتفت يمنة ويسرة التفاتة لا تلائم ما تعوّد من وقار : « صه ! صه ! يابن أخى » . قال الفتى وقد أغرق فى الضحك : « لا بأس عليك يا عم فقد انصرف كل إنسان وأغلقت من دوننا الأبواب ، وعلم غلمانك أننا نريد الخلوة » .

قال الشيخ وقد عاد إلى أناته ووقاره : « فإن من الحق عليك يابن أخى أن ترعى ما يرعى قومك من سُنة وألا تغرى السفهاء منهم بنفسك وبقومك . وقد حُدثت أنك لا تكتفى بدار نسطاس ولكنك تألف داراً أخرى ما أحب لك أن تألفها ؛ لأن قريشاً لا تنظر إلى آلفها إلا شزراً . ومن كان مثلك ومثلى ومثل سادة قريش من أصحاب التجارة كان خليقاً أن يقدّر رأى الناس فيه وأن يحسب الحساب كله لما يمكن أن يذاع عنه من الأحاديث . فأمر التجارة والمال يقوم على الثقة وحسن الأحدوثة أكثر مما يقوم على المهارة وسعة الحيلة ، وإنك لترى أمية وما يصنعون ! »

قال الفتى : « بل قل وما يتكلفون » . قال الشيخ : « هو ذاك » .
قال الفتى : « وهذه الدار الأخرى التى آلفها وأكثر من التردد عليها هى دار ورقة بن نوفل ، أليس كذلك ؟ » . قال الشيخ : « بلى يابن أخى ، هى دار ورقة بن نوفل الذى انحرف عن قومه وارتحل عنهم مخالفاً لهم ، ثم عاد إليهم ملحاً فى الخلاف ، يدين بما تدين به الروم ، ويؤمن بما يؤمن به النبط ، وينكر من أمر آلهتنا ما نعرف ، ويعرف من أمر السماء ما ننكر . وقد علمت يابن أخى ما كان من ثورة قريش به وبزيد بن عمرو وأمثالهما » .

قال الفتى : « فإن كنت أحب دار ورقة كما أحب دار نسطاس ، وإن كنت أجد عند ورقة من متاع الروح مثل ما أجد عند نسطاس من متاع النفس والجسم ! » . قال الشيخ : « فإن قريشاً لا تحب منك ذلك ، وإنى أنا لا أحب أن تنكر قريش من أمرك شيئاً ، وما أحب أن يتحدث الناس فى البطحاء والظواهر بأن قد عرض لفتى من فتيان مخزوم مثل ما عرض منذ حين لفتى من فتيان عدى من الانحراف عن الجادة والتمرد عن المألوف من عادات قومه » .

قال الفتى : « فإن مخزوماً قد أصهرت إلى عدى[1] وما ينبغى لكم أن تصهروا إلى قوم وترسلوا إليهم كرائمكم ثم ترتفعوا عن مشاركتهم فيما يصيبهم من الأمر » . قال الشيخ : « لقد علمتَ ما أحببت هذا الصهر ولا رضيت عنه ولا أشرت به ولا انتظرت منه لقريش خيراً ؛

(١) كانت حنتمة أخت عمرو بن هشام زوجاً للخطاب وهى أم عمر رضى الله عنه .

فالألفة بين عدىّ ومخزوم شىء لا يرجى ، والخير أن يظل هذان الحيان من قريش على خلاقهما القديم لا ليشقى به النساء حين يعيا بالطبّ له الرجال . ولئن أخطأ أبوك بقبول هذا الصهر فما ينبغى أن تمضى على أثره أو تضيف إلى خطئه خطأً جديداً . وإنك لتعلم أن قريشاً لا تكره من أحد شيئاً كما تكره الانحراف عما ألفت من عادة ودين، ولا تخاصم أحداً فى شىء كما تخاصمه فى مالها ودينها . ودين قريش جزء من مالها لأنه ، كما علمتَ ، وسيلتها إلى السيادة والسلطان » .

قال الفتى : « فإنى لا أكره من قريش شيئاً كما أكره منهـا هذا الرياء : تُكبر الآلهة وتعظم أمرها إذا شهد العامة أو حضر أهل الموسم ، فإذا خلا الملأ من قريش إلى أنفسهم فأى استخفاف بالآلهة وأى ازدراء لمن يدينون لها بالإكبار والإجلال ! إنكم لتطلبون إلينا شيئاً عظيماً حين تريدوننا على أن نمهر كما تمهرون ونمكر كما تمكرون ، ونعلن غير ما نُسِرُّ ونسرّ غير ما نعلن، لا لشىء إلا لِنـثْرى ونسود . وإنا لنجد فى رضا أنفسنا وراحتها واطمئنان ضمائرنا إلى ما نعلن وما نسرّ نعمة هى آثر عندنا من السيادة والثراء . فامضوا فيما تريدون لأنفسكم ، وخلوا بيننا وبين ما نريد لأنفسنا » .

قال الشيخ : « ما أرى إلا أن دار نسطاس قد فتنتك ، وأن دار ورقة قد أفسدت عليك أمرك كله يابن أخى ؛ فإنك تتحدث حديثاً لا يتحدثه أحد من شيوخ قومك وشبابهم . وإنى لأرى لداتك من الفتيان وأسمع منهم وأتحدث إليهم فلا أجد عند أحد منهم مثل ما أجد

عندك ، وما أعرف أن الناس ينكرون على أحد من أترابك مثل ما ينكرون عليك » .

قال الفتى : « وما تريد أن أصنع ؟ هم مفتونون بك وبنظرائك من الملأ ، وأنا مفتون بورقة ونسطاس ونظرائهما من الغرباء والمستضعفين » .

قال الشيخ : « أمسك عليك نفسك يابن أخى ولا تُظهر قومك من أمرك على مثل ما تُظهرنى عليه ؛ فإن شر هذا الخلاف لا يصيبك وحدك وإنما يصيب مخزوماً كلها ، وما أظنك قد بلغت من حب نفسك أن تعرض قومك لما لا قِبَلَ لهم به » .

قال الفتى : « فإنى لا أحب أن أعرض قومى لشىء ولا أن يعرّضنى قومى لشىء ، وإنما أريد أن أترك الناس وما يحبون . ولست أكره إن شق عليكم أمرى أن تخلعونى ، فما أكثر الخلعاء الذين يعيشون فى مكة من قبائل العرب ! وما أكثر ما أغبطهم على ما ينعمون به من حرية القلب واليد واللسان ! » .

قال الشيخ وهو يبتسم ابتسامة غامضة فيها الإعجاب بشجاعة ابن أخيه والإشفاق من جرائره : « دون هذا وتستقيم الأمور يابن أخى . ولكن ما الذى يعجبك من نسطاس ومن ورقة وقد رأيتهما وتحدثت إليهما فلم أر عندهما خيراً ولا شرًّا ؟ » .

قال الفتى : « فإنى أجد عندهما الراحة من اللذة والألم جميعاً » .

قال الشيخ : « إنى لا أفهم عنك ما تقول منذ اليوم . الراحة من اللذة ! ما هى ؟ وكيف تكون ؟ » .

قال الفتى : « رُحْ معى إلى نسطاس أو اغدُ معى إلى ورقة، ثم أطل عندهما المقام كما أطيله ، وتصرّف معهما فى فنون القول كما أتصرف ، فستجد عندهما مثل ما أجد ، وسترضى من أمرهما عن مثل ما أرضى عنه ، وستغدو على أحدهما وتروح على الآخر ، وستؤثر داريهما على أندية قريش » .

قال الشيخ وقد تضاحك : « وكذلك أريد أن أنهاك عما يكره قومك فإذا أنت تغرينى به وتحثنى عليه " لقد شبّ عمرو على الطوق "، انصرف راشداً يابن أخى وأحسن سياسة قومك ، وكف عن نفسك وعنا غائلتهم » .

قال الفتى وقد نهض : « فإنى منصرف الآن راشداً كما تقول إلى نسطاس فشاربٌ عنده ومستمتع بحديثه وغناء جواريه ، ثم إنى غاد إذا كان الضحى على ورقة بن نوفل فمستمع له ومتحدث إليه ، ثم ملم بعد ذلك بأندية قريش فمتحدث بما كان من أمرى ، فأيهم عرض لى بما لا أحب فلن يرى منى إلا ما يكره » .

قال الشيخ : « إنى لأعرف فيك أنفة مخزوم وكبرياءها ، ولو عرفت أنك تسمع لى . . . . »

قال الفتى مقاطعاً فى رفق : « لنصحت لى بأن أرحل مع القافلة بعد أيام فأبيع وأشترى وأربح كثيراً من المال ، وأرى كثيراً من البلاد وألواناً مختلفة من أجيال الناس ، وأصبح فتى شريفاً من فتيان قريش أصنع ما يصنعون وأضطرب فيما يضطربون فيه ، وأنافس صخر بن حرب

فيما يكسب لنفسه من السؤدد والثراء » . قال الشيخ : « هو ذاك » .

قال الفتى : « فإني لا أحب من هذا كله شيئاً ، وإنما أوثر أن أنفق هذا المال الكثير الذى لا أحصيه ناعم النفس قرير العين رضىّ البال متردداً بين نسطاس وورقة ، وأن أستأجر صخر بن حرب وأمثاله ليعملوا لى فى مالى وليعينونى على ما أنا فيه من نعيم » . ثم استرد الفتى كبرياءه وخيلاءه وانصرف عن عمه كما أقبل عليه راضياً عن نفسه وساخطاً عليها ، مدلاً بمكانته ومزدرياً لها .

٢

وأقبل من الغد على ورقة بن نوفل، فلم يلقه الشيخ هشاً بشاً كما تعوّد أن يلقاه ، وإنما ابتسم له ابتسامة فيها شيء من كآبة . على أن الشيخ لم يكن فارغ البال ولا مطمئن النفس ، وإنما كان معنياً بأمر عظيم يضمره ولا يظهره .

فلما رأى الفتى منه هذا الفتور أقبل عليه مداعباً كأنما يستخفه إلى شيء من النشاط، فجعل يتحدث إليه عن ليلته التى أنفقها لاهياً بخمر نسطاس وغناء جواريه .

ولكن الشيخ لم يخفّ ولم ينشط ، وإنما جعل يسمع من الفتى أحاديثه الطويلة التى لا تنقضى ، ويجيبه بين حين وحين برأسه يهزه أو طرفه يومئ به أو لسانه يديره فى فمه بالكلمات القصار. فلما رأى الفتى منه ذلك سيء به وضاق به ذرعاً وقال فى شيء من الحدة : « ويحك أيها الشيخ ! إنك لشديد الكآبة منذ اليوم ، وما سعيت إليك أبتغى كآبة أو حزناً ، وما أقبلت عليك لتنغض إلىّ رأسك أو تومئ إلىّ بطرفك أو تلوى لى لسانك بهذه الألفاظ التى لا تغنى ، إنما جئت ألتمس عندك شيئاً غير هذا » .

قال الشيخ وقد أخذ ابتسامه يتسع قليلا : « تلتمس عندى ماذا يابن أخى ؟ » . قال الفتى : « ألتمس عندك هذه القوة التى أستقبل بها سخف قريش وَجهَ النهار وآخره ، كما ألتمس عند نسطاس هذه اللذة التى أغسل بها هذا السخف عن نفسى حين يُقبل الليل » .

قال الشيخ متضاحكاً فى فتور : « فقد غسلت نفسك من سخف قريش ولكنك دنّستها برجس نسطاس ، ثم أقبلت الآن تريد أن تغسلها من هذا الرجس وتمحو منها آثار اللذة الآثمة ، آثار الخمر وما يتبعها مما لا يجمل بالرجل الكريم ! فما أعرف أنّ عند نسطاس لمثلك خيراً ، وإنما هى الفتنة التى تَفُلّ الحدّ وتفسد الطبع وتُذهب المروءة وتردّ فتيان قريش إلى مثل ما عليه فتيان الروم من الضعف والوهن والفتور . لقد رأيتهم يابن أخى فما وجدت عندهم خيراً ، وإنما هو الفساد قد أخذهم من كل وجه وانسلّ إلى نفوسهم من كل سبيل ، فأصبحوا لا يقدرون على شىء وإن خيلت إليهم كبرياؤهم أنهم يستطيعون أن يبلغوا كل شىء » . ثم سكت قليلا وأطرق مليّاً ، ثم رفع رأسه وقال فى صوت هادئ متزن : « ما أبغض ياعمرو شيئاً كما أبغض الحانات التى يقيمها الروم فى أعطاف مكة والتى يُغْرَى فتيان قريش بما فيها من هذه اللذات الآثمة التى تقتل الرجولة » .

وكان عمرو بن هشام يسمع لحديث الشيخ وعلى ثغره ابتسامة ضئيلة غامضة ، وفى وجهه شىء من السخرية لا يكاد يبين ، وربما حرّك رأسه إلى يمين أو إلى شمال ليخفى على الشيخ سحابة من عبوس كانت تغشى

جبهته بين حين وحين . فلما فرغ الشيخ من حديثه وعاد إلى إطراقه فأمعن فيه وجعل ينكت الأرض بعصاه ، قام الفتى متثاقلا يريد أن ينصرف . فنظر الشيخ إليه نظرة قصيرة كأنما كان يريد أن يمسكه ، ولكنه لم ينشط حتى لذلك فغض بصره وعاد إلى إطراقه . واستدار الفتى نحو الباب ، ولكنه عاد فجأة فاستقبل الشيخ وقال فى شيء من العنف : « لن أنصرف ، فلست أحب أن تصحبنى منك هذه الصورة التى أنكرها . لقد كنتَ فى نفسى شيئاً غير هذا ، ولقد كنتُ أنتظر منك أن تبادينى بكل شيء إلا ما باديتنى به منذ اليوم » .

قال الشيخ : « فكنت تنتظر منى أن أغريك ببيت نسطاس وما فيه من لذة وإثم ، وكنت تقول لنفسك إنما ورقة بن نوفل رجل نصرانى قد أتى بلاد الروم وطوّف فى مدنها وقراها وعاد منها وقد أخذ كل ما وجد من الدين والدنيا ، فهو نصرانى كنسطاس ، يحب كل ما يحب النصارى ويألف كل ما يألفون ، والسن وحدها هى التى تقعده عن بيت نسطاس ، ولو قد كان له فضل من قوة أو بقية من شباب لشاركنى فيما أستمتع به عند نسطاس ، فخمره معتّقة وجواريه حسان وغلمانه صباح الوجوه ، وعنده غناء يفتن القلوب ويسحر الألباب . كلا يابن أخى ! لقد أتيت بلاد الروم ، وطوّفت فى مدنهم وقراهم ، وألممت ببيعهم وحاناتهم ، ورأيت ما عندهم من دنيا ودين ، ثم عدت وإنى لأكثر أمرهم لكاره أشد الكره ، وإنى من حياتهم لنافر أشد النفور . ولو قد أعجبتنى حياة الروم كما تُعجبك لما عدتُ إلى واد غير ذى زرع

كهذا الوادى الذى نعيش فيه » .

قال الفتى : « الآن ينطلق لسانك وقد كان معقوداً ، ولكنى لم آت لأسمع منك هذا الحديث ولا لألتمس عندك هذه الموعظة ؛ فقد أسدى إلىّ منها عمى الوليد بن المغيرة أمس ما أستطيع أن أعيش عليه أياماً وشهوراً » .

قال الشيخ : « فماذا جئت تلتمس عندى إذاً ؟ » . قال الفتى : « جئت أتعلم منك ، وأرى أنك ستتعلم منى » . قال الشيخ وقد عاد إلى نشاطه وخفته واستأنف ما ألف عنده عمرو بن هشام من هذا الطبع السمح والمزاح الحلو والمرح الذى كان يحببه إلى النفوس — قال الشيخ : «فعلّمنى يا عمرو فإن الإنسان لا يكبر عن العلم مهما تبلغ به السن ، وإن العصا قُرعتْ لذى الحلم » . قال عمرو بن هشام : « لا تهزأ فإنى سأعلمك عجباً من العجب ! إنك لتجهل من أمر نسطاس كل شىء ولا تعلم منه إلا ما يعرفه المفتونون من شباب قريش ، أولئك الذين يصطبحون عنده أو يغتبقون لا يعرفون إلا أن عنده خمراً معتقة وجوارى حساناً وغلماناً صباحاً وغناء عذباً » . قال ورقة : « فما استكشفت عنده غير ذلك ؟ » . قال : « استكشفت ما كنت أظن أنك لا تجهله . إن هؤلاء الروم الذين يقيمون حاناتهم فى أعطاف مكة كما تقول فتنةً لشباب قريش وشيوخها لا يهبطون هذا الوادى المجدب رغبة فى المال وحده أو حرصاً على أن يُمتعوا قريشاً بهذه اللذات التى يحملونها إلينا ، وإنما هم يبتغون أشياء لا تخطر لنا ببال . ولو قد فطن لها الوليد بن المغيرة الذى كان يُسدى إلىّ النصح والموعظة أمس ، ولو قد فطن لها عُتبة وشيبة ابنا ربيعة وصخر بن

حرب وأمية بن خلف لاستقبلوا من أمرهم غير ما يستقبلون ، ولنفوا كل رومى عن هذه الأرض ، ولاشتطوا على هؤلاء الغرباء من الروم والنبط والفرس أكثر مما يشتطون على العرب » .

قال ورقة بن نوفل وقد ظهر على وجهه شيء من الجد : « أفصح يابن أخى فإنى لا أفهم عنك » .

قال الفتى : « ستفهم عنى ، فإن هؤلاء الروم لم يهبطوا هذه الأرض للتجارة وحدها ، إنما اتخذوا التجارة وسيلة إلى أشياء أخرى يبتغونها ونُخدع نحن عنها بهذه اللذات اليسيرة الفاتنة التى يحملونها إلينا ويغروننا بها » .

قال ورقة : « وما عسى أن تكون هذه الأشياء ؟ » . قال الفتى : « إنما هم عيون قيصر فى هذه الأرض ورسله إلى هذا الوجه ، يمدون له فيه الأسباب ويمهدون له فيه السبل . وما أرى أن واحداً منهم قد أقبل إلى بلادنا إلا وهو مجمع أن يحبب إلينا أمراً من أمور الروم ويستخف قلوبنا لحب هذه الحياة الرومية التى يحملون إلينا أيسرها وأهونها ، ثم يقول قائلهم لنا حين يرى منا الابتهاج والرضا ! فكيف لو ذهبتم إلى هذه المدينة أو تلك من مدن الروم ! وكيف لو رأيتم هذه اللذات فى أصولها التى تخرج منها وبيئاتها التى تنمو فيها ! وكيف لو اتصلت أسبابكم بأسبابنا واختلطت أموركم بأمورنا ! »

قال ورقة : « وقد أحسستَ من نسطاس بعض هذا فجئت تتحدث إلىّ به وتؤامرنى فيه ؟ وما ترانى أصنع لك فى هؤلاء وقد اعتزلت قريشاً

واعتزلتني قريش ، وأصبحت أموركم لا تعنيني كما أن أمرى لا يعنيكم ؟ هلاّ تحدثت بذلك إلى عمك الوليد أو إلى الملأ من قريش ! ! »

قال الفتى : « إنى لأغبطك على أن قريشاً قد اعتزلتك وعلى أنك قد اعتزلت قريشاً . وإنى لأتمنى أن يتاح لى من ذلك ما أتيح لك . وإن لم أغدُ عليك لأتحدث إليك فى شأن هؤلاء الروم أو أؤامرك فيه ، فإنى أعرف أى الناس أستطيع أن ألقى إليه بهذا الحديث . إنما جئت لأحدثك بالعجب من أمر نسطاسَ هذا الذى تلومنى فيه كما لامنى فيه عمى الوليد » .

قال ورقة : « وعند نسطاس أعجب مما ذكرت ؟ » . قال الفتى : « نعم » .

قال الشيخ : « وما ذاك ؟ » . قال الفتى : « تعلم أيها الشيخ أنى لا ألتمس الخمر واللذة والغناء عند نسطاس فحسب ، وإنما ألتمس عنده العلم أيضاً . وقد تعلمت منه كثيراً أكثر مما تعلمت منك ؛ فقد عرفت منه شؤون الروم مفصلة وأخبارهم مطولة ، وأنت لا تحدثنا من ذلك إلا بالنزر اليسير لأن ذلك لا يعنيك ، فأما هو فيكفى أن يتقدّم الليل وأن ينصرف شباب قريش إلى بيوتهم وأن يخلو إلىّ وإلى ثلاثة أو أربعة من غلمانه وجواريه وقد صرف سائرهم ، فإذا خلا بعضنا إلى بعض أديرت علينا خمر لا تدار على غيرنا ، وسمعنا غناء لا يسمعه غيرنا ، حتى إذا تقدّم الليل خطوات أخرى وأغرق كل شىء فى الصمت والسكون وخيّل إلينا أننا قد اقتطعنا من الحياة والأحياء

اقتطاعاً وأننا نعيش فى جزيرة من النور والحركة يحيط بها بحر من الظلمة والسكون ، قال نسطاس بلسانه الملتوى وصوته الأجش : " الآن طاب الحديث " . ثم نأخذ فى حديث الروم فأسمع منه العجب العجاب . وقد أتصل الود بينى وبين نسطاس منذ أعوام ، وجعل أترابى من قريش يلمّون معى بدار نسطاس ثم يتنقلون منها إلى غيرها من دور الروم والنبط يتبعون فى ذلك أهواء نفوسهم ويفرون بذلك من الحياة المطردة المتشابهة . وما أكثر ما ألحوا علىّ فى أن أذهب مذاهبهم وأسلك مسالكهم وأتنقل معهم فى الغىّ كما يتنقلون ، ولكنى لم أنحرف قط عن دار نسطاس ولم أملْ قط إلى اللهو فى غير دار نسطاس ؛ لأن عند نسطاس ما ألزمنى داره وشغلنى بمودته ، حتى لامنى فيه اللائمون ، وحتى ظنت قريش بى الظنون ، وحتى شكا من ذلك أهلى وأترابى ، وعاتبنى فيه عمى الوليد » .

قال الشيخ : « وماذا علمتَ يابن أخى من أمر نسطاس ؟ فقد أثرتَ فى نفسى شغفاً بالعلم لا عهد لى به منذ ودّعت الشباب » .

قال الفتى وقد دنا من ورقة كأنما يريد أن يهمس إليه بما لا يحب أن يسمعه غيره : « علمت أن وراء نسطاس التاجر الخمار الذى يفتن شباب قريش بالخمر والنساء والغناء فيلسوفاً يلتمس الحق ، وديّاناً يلتمس الدين الصحيح » . قال الشيخ دهشاً : « إنه لكذلك يابن أخى ؟ » . قال الفتى : « نعم ! وقد كنت أعرف أنك وأمثالك تخرجون من بلادنا هذه لتضربوا فى الأرض ولتلتمسوا الحق والعلم والدين ، عند هؤلاء الأعاجم من الفرس والروم ومن اليهود . وما كنت أنكر من

ذلك شيئاً ، فهم قد سبقونا إلى الحضارة ، وهم قد سبقونا إلى الكتاب . فأما أن يخرج الروم من بلادهم إلى هذه البلاد المجدبة القاحلة الغليظة الجافية التي لا حظ لأهلها من حضارة أو علم أو كتاب ، ليلتمسوا عندنا الحق والعلم والدين ، فهذا هو الذى لا أفهمه ، ولم تطمئن إليه نفسى حتى حدثنى نسطاس بما حدثنى به أمس » .

قال الشيخ وقد أهمه الأمر إلى أبعد مدى ، واسترد نشاطاً غريباً وقوة كانت تخيل إلى من يراه أنه قد عاد إلى شبابه ، أو أن شبابه قد عاد إليه : « وبماذا حدثك ؟ » .

قال الفتى : « حدثنى بأنه فرد من جماعة تلتمس الحق وتبحث عن الهدى ، وبأن هذه الجماعة منتشرة فى بلاد الروم ، يتعارف أفرادها فيا بينهم بعلامات لهم ، لا يعرفها أحد غيرهم . فإذا تحدث بعضهم إلى بعض من قريب أو بعيد تحدثوا بالرموز والإشارات ، فلم يظهر أحد من أمرهم على شيء . وحدثنى بأن هذه الجماعة قديمة العهد طويلة العمر ، قد مضت عليها القرون ، يوصى كل جيل منها إلى الجيل الذى يليه بالمضى فى التماس الحق والبحث عن الهدى ، يجدون فى ذلك ما أتاحت لهم قوتهم وحيلتهم أن يجدوا ، يتفرقون فى الأرض فى ملك قيصر ، وفى ملك كسرى ، وفى أقطار لم يبلغها ملك قيصر ولا ملك كسرى ، لا يبالون ما يلقون فى ذلك من جهد ولا ما يحتملون فيه من عناء ، حتى إذا ظفر أحدهم بشيء من العلم أو بما يراه الحق أو قريباً من الحق ، احتال حتى يبلغه أصحابه ، وهم على

ذلك يتواصلون ويتعاونون ويستكشفون من العلم ما يستطيعون . ولكنهم علموا فيما علموا منذ الزمان الأول ، أن لهذه الديانات التي يدين الناس بها في أقطار الأرض غاية تنتهي إليها ، وأمداً تبلغه فلا تعدوه ، وأن ديناً يهبط على الناس من السماء في آخر الزمان ، فيتم من أمر السماء ما بدأ ، ويحمل الناس على الجادّة ، ويهديهم إلى الحق الذي لا شك فيه » .

قال الشيخ وقد أخذ حتى اضطرّ الفتى إلى أن يهدئ من روْعه : « قل قل يابن أخي ! وبماذا حدثك ؟ » .

قال الفتى : « وحدثني بأن الجماعة عرفت أن أمر هذا الدين قد قرب ، وأن زمانه قد أظلّ ، وأنه لن يهبط من سماء الشام حيث هبط دين اليهود والنصارى ، ولا من سماء الفرس حيث ظهر دين زرادشت ، ولا من سماء اليونان حيث ظهرت ديانات اليونان ، ولكنه سيتنزل من سماء واد غير ذي زرع ، فيه قوم غلاظ قساة لاحظّ لهم من علم ولا من كتاب ، يطمئن أكثرهم إلى الجهل ويضيق به أقلهم ، ولكنهم على ذلك يكتمون ما يجدون من هذا الضيق ، ويشاركون العامة فيما هم فيه من الجهل . يُقدم بعضهم على ذلك نفاقاً ورياءً والتماساً للمنفعة والثروة والسيادة ، ويُقدِم بعضهم على ذلك عجزاً وكسلاً وإخلاداً إلى الراحة والدعة . وقد فرّقت الجماعة سفراءها في أقطار الأرض المجدبة غير ذات الزرع والضرع ، فهم يلتمسون فيها هذه العلامات ، ويسجلون ما يجدونه منها ويُؤذن به بعضهم بعضاً ، وينتظرون فيها هذا الدين الجديد . ونسطاس أحد هؤلاء قد وقعت له أرضنا حظّاً ، فأقبل إليها يلهينا بالخمر والغناء

والنساء ، وينتظر أمر السماء » .

ولم يبلغ الفتى هذا الموضع من كلامه ، حتى وثب الشيخ وثبة لم يشك الفتى حين رآها أنه قد فقد رشده ومسه طائف من جنون . ولكن الشيخ عاد إلى أمنه وهدوئه ، وظل قائماً مكانه وقد رفع يديه إلى السماء وهو يقول : قُدُّوس قُدُّوس ! أشهد ما أنبأتني خديجة إلا بالحق ! » .

٣

ولم يظفر عمرو بن هشام من الشيخ بعد هذا الكلام الغامض بشيء يوضحه أو يجلوه ، وإنما ظل الشيخ قائماً مكانه باسطاً يديه أمامه رافعاً رأسه إلى السماء كأنما ينتظر منها شيئاً ، ثم انحنى رأسه واسترخت يداه إلى جنبيه ، وعاد إلى الشيخ ضعفه وهرمه ، فجثا على ركبتيه وأطرق إلى الأرض وجعل يصلّي بكلام حاول الفتى أن يفهمه أو أن يتبين لفظه فلم يجد إلى ذلك سبيلاً . فانصرف مغيظاً محنقاً يسأل نفسه فى أعماق ضميره : أمسّ الشيخ طائف من جنون ، أم أراد الشيخ إلى العبث به والتعمية عليه ؟ فقد لاحظ عمرو بن هشام اشتغال الشيخ عنه حين أقبل عليه ، وإعراضه عنه حين تحدث إليه ، ومحاولة الفرار منه كلما ألح عليه فى الحديث ، وتكلّفَ الغباء والقصور عن الفهم حين بدأ يصغى إليه . وكان عمرو بن هشام يعرف من ورقة غير هذا كله ، كان يعرفه حفيًّا به يحسن القول له والاستماع منه . وكان يعرفه ذكيًّا حاد الذكاء بصيراً نافذ البصيرة ، لا يكاد يحتاج من محدثه إلا إلى بدء الحديث . وكان يعرفه كلفاً بأمور الدين لا يكاد يعرض لها عارض بين يديه حتى يندفع كأنه السيل ، فينكر على قريش مكرها ونفاقها وتكلفها عبادة الأوثان ،

وما هى من عبادة الأوثان فى شىء ، ويرثى للعرب من جهالتهم هذه الجهلاء التى يغرقون فيها إغراقاً منكراً حتى يضللهم سادة قريش بهذه الأكاذيب يصوغونها عن آلهتهم هذه المنصوبة ، وهم يعلمون أنهم يكذبون ويضللون ، وهم يسخرون من الناس ومن الآلهة حين يخلون إلى أنفسهم وحين يخلص بعضهم لبعض نجيًّا . وقد راب الفتى ما رآه من تغير الشيخ هذا الضحى ، وزاده ريبة ما رآه من هذه الثورة المفاجئة حين ذكر له ما ذكر من أمر نسطاس . على أن الفتى لم يصل إلى هذا الموضع من نجوى ضميره حتى ازداد ريبة إلى ريبة وشكًّا إلى شك ؛ فقد ذكر أن وجه نسطاس لم يكن خالياً له أمس ، وأن نفسه لم تكن خالصة له كما تعودت أن تخلص له حين يتقدم الليل وتسكت الموسيقى وينقطع الغناء ويتفرق الندامى ويخلو الصديقان ، لا يشهد خلوتهما إلا هذان القدحان قد بقيت فيهما بقية من شراب يُقبلان عليه بين حين وحين فيحسوان منه حسو القطا ، وإلا هذه النجوم التى كانت تُطلّ عليهما من السماء كأنما كانت تريد أن ترى ما يصنعان أو تسمع لما يقولان ، وهى على ذلك تُخفى عليهما أسراراً غامضة طالما اشتاقا إلى استجلائها ، وإلا هذا النسيم الخفيف الضئيل الذى كان يختلس مسراه من سكون الليل اختلاساً ويمر بهما من آن إلى آن حذراً متحفظاً كأنما يخشى أن يفطنا له فيدلا عليه ضوء الليل .

هنالك كانت نفس الفتى العربى ونفس الرجل الرومى تمتزجان امتزاجاً غريباً ، فيصفو لهما الود ، ويخلص بينهما الحب ، ويطيب لهما الحديث .

وربما غمرهما سكون الليل وسكوت الطبيعة من حولهما فسكتا وسكتا ، ورأى كل منهما مع ذلك فى نفس صاحبه كما يرى فى المرآة ، وفهم كل منهما عن صاحبه كما يفهم الصديق عن الصديق . فأما أمس فقد كان الرومى ذاهلاً عن صاحبه بعض الذهول ، لا يدنو منه إلا ليناى عنه ، ولا يصل إليه إلا لينفصل عنه ، وكان يحدثه أحاديث متقطعة ، يتحمس فى بعضها حتى يبلغ أبعد غايات التحمس ، ويفتُر فى بعضها حتى يبلغ أقصى آماد الفتور . وقد ذكر عمرو بن هشام أنه انصرف عن صديقه الرومى كئيباً محزوناً يردّ عن نفسه ملالةً لا تريد أن تُردّ ، ويدفع عن نفسه سأماً لا يريد أن يندفع . وكان يعلل نفسه بلقاء ورقة يتعزّى ببشاشته وحديثه عن فتور نسطاس وشرود خاطره ، كما أقبل على نسطاس من ليلته تلك يلتمس فيما عنده من لذة آثمة أو بريئة عزاء عن هذا العتاب الثقيل الذى لقيه به عمه ، فآذاه به فيما لا يحب أن يؤذى فيه من هذه الحرية التى كان يؤثرها على كل شىء ، ولا يرضى أن تكون موضوعاً للأخذ والرد أو للجدال والنزاع .

وكانت كل هذه الخواطر تضطرب فى نفس عمرو بن هشام وهو ماض فى طريقه بين دار ورقة بن نوفل والمسجد . والحق أنه دفع إلى المسجد على غير إرادة منه ؛ فلم يكن فى نفسه شىء من النشاط للقاء شيوخ قريش وشبابها فى أنديتهم تلك التى لا يسمع فيها إلا ما يضيق به من الحديث . ولو قد فكر فى الغاية التى ينبغى أن يقصد إليها بعد ما خرج من عند الشيخ لتردد بين اثنتين : فإما أن يرجع إلى داره ليخلو فيها إلى نفسه

ويستقصي حساب هذه الخواطر التي كانت تضطرب في ضميره ، وإما أن يذهب إلى نسطاس ، فلعله أن يجد عنده من النشاط وحضور الذهن ما ينسيه شروده أمس وشرود الشيخ عنه اليوم . ولكنه دفع إلى المسجد بحكم العادة ؛ فقد كان يُنفق أول النهار عند ورقة ، حتى إذا ارتفع الضحى وكادت الشمس أن تزول سعى متباطئاً إلى المسجد فأدرك أندية قريش قبل أن يتفرقوا وينصرف كل منهم إلى حيث يَقيل . فلما بلغ المسجد كان قد انتهى من حساب نفسه إلى نتيجة مؤلمة له أشد الإيلام ، مؤذية لكبريائه أشد الإيذاء ، وهي أنه لقى ثلاثةً من أحب الناس إليه وآثرهم عنده في أقل من يوم ، فلم ير عند أحد منهم شيئاً يرضيه . فعمه يعتب عليه عتباً ثقيلا ، وصديقه الرومي يُعرض عنه إعراضاً مرًّا ، وورقة ابن نوفل لا يهدى إليه إلا هذا الغموض الذي هو أشد عليه من عتاب العم وإعراض الصديق .

ولم يكن يقدّر أنه سيلقى من أندية قريش مثل ما لقى من هؤلاء الرجال الثلاثة : أشياء إن لم تحفظه وتنته به إلى الغيظ فهي لا تسره ولا ترضيه . ولو ملك الفتى زمام نفسه واستطاع أن يستقصي أمره كما كان يفعل دائماً ، لرد الأمور إلى أصولها ، ولعرف أن أحداً من هؤلاء النفر الثلاثة لم يلقه بشيء يكرهه ، وإنما هو الذي حمل نفسه على ما لا تحب فرأى عند هؤلاء الناس ما لم يكن يحب أن يرى ؛ فقد كان يأخذ الأمور دائماً أخذاً هيناً ، لا يهتم لشيء ولا يضيق بشيء . وما أكثر ما كان يلقاه عمه بالجد المرّ والدُّعابة الحلوة فلا يحفل بذلك ولا يأبه له .

ونفس الصديق ليست دائماً خالصة للصديق ، ووجه الخليل ليس دائماً خالياً للخليل ؛ فللناس من أمورهم الظاهرة والخفية ما يجوز أن يشغلهم عن أحسن أصدقائهم عندهم منزلة ، وأرفعهم فى قلوبهم مكانة . ولكن عمرو بن هشام كان هذه الأيام حَرِجَ الصدر ضيق النفس بكل شىء ، قد عرضت له أزمة من هذه الأزمات التى تعرض لأصحاب القلوب الذكية والنفوس الأبية ، حين يحسون الفراغ من حولهم ، ويشعرون بأن الحياة باطل ما فيها من الجدّ والهزل ومن الشدة والرخاء ، ويلتمسون لهذه الحياة غاية خيراً مما وجدوا إلى الآن ، ويطلبون إليها ثمرات أحلى مذاقاً وأبقى أثراً من كل ما بَلوْا إلى الآن ، فلا يجدون شيئاً مما يلتمسون ، ولا يبلغون شيئاً مما يطلبون .

هنالك ينكرون أنفسهم وينكرون الناس ، وهنالك يضيقون بأنفسهم كما يضيقون بكل شىء وبكل إنسان . وهنالك يدقّ حسهم ويرقّ طبعهم ، فإذا هم يجدون الألم والسأم فى أشياء لم يكونوا من قبل يجدون فيها ألماً ولا سأماً . وآية ذلك أن عمرو بن هشام لم يلق ابتسام القوم له فى ناديهم بابتسام مثله ، ولم يرد تحيتهم الطيبة بتحية مثلها ، وإنما أقبل فأهدى إلى قومه هذه التحية التى تدفع اللائمة ولا تزيد على ذلك . ولو قد استطاع لما ألمّ بهم ولا جلس إليهم . فقد رأى فيهم عمه الوليد بن المغيرة فكره ذلك أشد الكره ، وكاد يمضى لوجهه لولا أن جعل القومُ يرحبون به ويومئون إليه أن أقبلْ ، ولولا أن جعل عمه يناديه : « أقبِلْ أبا الحكم فقد جئت حين اشتدت الحاجة إليك » . ولم يكد عمرو يجلس

إلى قومه حتى ابتدره عمه قائلا فى دعابة حلوة : « هذا أوان يختبر حزمك وعزمك وفضلك فيما تعقّد من الأمور » .

قال عمرو بن هشام وهو يتكلف الابتسام : « إنك لحلو الدعابة منذ اليوم يا عم ! وما أرى إلا أن أمور القافلة تستقيم لك على خير ما تهوى » .

قال الشيخ : « لم تعدُ الحق يابن أخى ، فما أكثر ما حُمل إلىّ من الذهب والورق والعروض ! وما أشد ابتدار قريش إلى الرحلة وتنافسها فى السفر ! ولتعلمن قريش أن الوليد بن المغيرة ميمون النقيبة ، لا يتولى لهم تجارة إلا عادت عليهم من الربح بأكثر مما ينتظرون » .

هنالك انبسطت أسارير القوم وظهر الابتهاج فى وجوههم ، وقال قائلهم : « والله ما علمناك يا أبا الوليد إلا سيداً كريماً ميمون النقيبة فى كل ما وليت من الأمر » .

قال الوليد لابن أخيه فى صوته العريض العميق : « ولكن أمور الموسم لا تجرى من النجح والاستقامة على مثل ما تجرى عليه أمور التجارة . فقد أدركتَ قومك يابن أخى وهم يختصمون فى شىء ليس بذى خطر فى ظاهر الأمر ، ولكنه بعيد الأثر فى حياتهم وفيما يستقبلون من سياسة العرب . وحسبُك أنها الخصومة بين المنفعة والحياء . وإذا اختصمت فى نفسك المنفعة والحياء فإلى أيهما تميل ؟ » .

قال عمرو بن هشام : « فأما إن كنت تمزح فإنى أوثر المنفعة ولا أعدل بها شيئاً . وأما إن كنت تريد إلى الجد فإنى أوثر الحياء لا أعدل به شيئاً ؛ لأنى أوثر دائماً أن أكون رجلاً ، والحياء نصف

مروءة الرجل . ولكنى لا أفهم عنك ما تقول منذ اليوم ، فما هذه الخصومة بين المنفعة والحياء ؟ » .

قال الوليد : « فإن قومك يستعدون للموسم كما علمت ، ويتهيئون لاستقبال العرب الذين يفدون علينا من كل صوب إذا دنت هذه الأشهر الحُرم ، وأنا أعلم أنك مشغول بنفسك عن مثل هذه الهنات ، ولكن هذه الهنات معقدة يابن أخى أشد التعقيد ، ينهض بأثقالها شيوخ قومك وذوو الأحلام منهم على حين تختلف أنت وأترابك ... »

قال عمرو بن هشام : « حسبك يا عم فقد سمعت من ذلك ما أرضانى أمس » ، ثم تمثَّل قول الشاعر اليثربى :

قالت ولم تقصد لقيل الخنا مهلاً فقد أبلغتَ أسماعى

قال الوليد : « أما إن كان ذلك كذلك فإنى أرجو أن يكون فيك خير . ولكن قومك يختصمون فى الأمين وفى أمر أقدم عليه فى الموسم الماضى ، وهم يخشون أن يعود إليه فى الموسم المقبل » . قال عمرو بن هشام : « وما ذاك ؟ » . قال الوليد : « ألست تذكر أن محمداً غير من عادات قريش فى الحج ما لا يقدر أحد على تغييره ، فحج كما يحج العرب لا كما يحج أهل الحرم ؟ » . قال عمرو بن هشام وهو يبتسم ويهز رأسه : « لا أذكر من ذلك شيئاً » .

قال الوليد : « ما أنت وذاك يابن أخى ! إن لك فى مَرح الشباب وأقداح نسطاس عن ذلك لشغلا . ولكنك تعلم على أقل تقدير أن أهل الحرم لا يخرجون منه إذا أرادوا الحج ، فهم لا يُفيضون من

عرفة ولا يأتون منىً ولا غيرها من المشاعر خارج الحرم ، إنما يتركون ذلك لسائر العرب فضيلة لهم على الناس جميعاً » .

قال عمرو بن هشام : « فضيلة خصّوا بها أنفسهم ولم تخصهم بها الآلهة ، وأقرّت لهم بها العرب ضعفاً وعجزاً » .

قال الوليد : « هذا أول الشر . فأنت إذاً لا تنكر على الأمين خروجه من الحرم ، وإفاضته مع الناس من حيث يُفيضون ، وسيرته فى الحج كسيرة رجل من العرب لا من قريش ؟ » .

قال عمرو بن هشام : « لا أنكر عليه شيئاً ولا أقره على شىء ولا أعنّى من ذلك كله بكثير ولا قليل ، ولو قد عُنيت من ذلك بشىء لسلكت فيه طريق الأمين ، ولأعنته وجاهدت معه ، حتى نردّ قريشاً إلى السنّة الأولى ونلغى هذه البدعة التى ابتدعتها والتى لم نرثها عن آبائنا ؛ لا لأنى أحفل بقديم أو جديد ، ولا لأنى آبه لسنة أو بدعة ، ولكن لأنى أرحم هؤلاء العرب الذين تكلفونهم ما لا يطيقون ، وتحملونهم ما لا يستطيعون له احتمالا ، إيثاراً لأنفسكم بالخير ، واستكثاراً للربح من غير وجهه ، واتجاراً بما لا ينبغى أن يتجر فيه . إنهم يأتونكم وقد حملوا ثيابهم وطعامهم وشرابهم ، فتحرمون عليهم من ذلك ما أحلّ لهم من قبل ، وتأبون عليهم أن ينزلوا بين أظهركم حتى يتخففوا كارهين من كل ما حملوا ، ثم تبيعون عليهم من الثياب والطعام ما لم يكونوا فى حاجة إلى أن يشتروه ، ثم تكرهونهم على أن يشتروا منكم الطعام أو يقيموا بينكم جياعاً ، وعلى أن يشتروا منكم الثياب أو يطوفوا بالبيت ويقيموا بينكم

عراة ، لا تفرقون فى ذلك بين الرجل والمرأة ، ولا بين الشيخ الفانى والغلام الناشئ . خُطَّة اختططتموها من عند أنفسكم لم ترثوها عن سُنَّة ولم تأخذوها من كتاب ، وإنما هو حب الاستعلاء والطمع فى الربح . لا يكفيكم أن تكونوا جيران الآلهة وسكان الحرم وحماة الكعبة حتى تستنبطوا من هذا كله حقوقاً لم تكن لكم . ولا يكفيكم ما تُغِله عليكم تجارتكم البعيدة والقريبة من مال حتى تضيفوا إليه مالاً تشتقونه من جوع الجائع وظمأ الظامئ وعرى العريان » .

قال عتبة بن ربيعة وقد أحفظه ما سمع : « على رِسْلك أبا الحكم ! فإنك والله لتشاركنا فى كل هذا ، تأثم معنا إن أثِمْنا ، وتنعم معنا إن نعمنا ، فأنكر على نفسك إن كنت منكراً » .

قال عمرو بن هشام : « نعم ؛ إنى لأشارككم فى الخبيث والطيب من مالكم ، وفى القبيح والحسن من أمركم ، ولوددت والله ألا أشارككم فى شىء ، وأن أكون فيكم خليعاً كأحد هؤلاء الخلعاء » .

قال أمية بن خلف : « ما رأيت كاليوم سفيهاً كنا ننتظر منه الحلم ، ولا غويًّا كنا نرجو منه الرشد » .

قال عمرو بن هشام : « اربعْ(١) على نفسك أبا على ، فليس كل من خالف عن أمرك سفيهاً، وليس كل من انحرف عن رأيك غويًّا » .

قال أُبَىُّ بن خلف « أمهلوا أبا الحكم فوالله إن له لشأناً، وما علمناه عياباً ولا مشتطًّا على قومه ، وما أرى إلا أنه فى حاجة إلى أن يَقيل » .

(١) اربع على نفسك أى كف وارفق .

قال الوليد بن المغيرة وهو يكظم غيظه ويتكلف الابتسام والدعابة : « دعوه ، فوالله ما علمته إلا ولد سوء ، وما أرى إلا أن خمر نسطاس وهُراء ورقة بن نوفل قد أفسدا عليه أمره . ولقد نهيته عن هذين الرجلين فلم ينته وإنى أحلف باللات والعزّى ليكفن عما هو فيه أو ليكونن له معى شأن كشأن زيد بن عمرو مع عمه الخطاب » . وهمّ عمرو بن هشام أن يردّ على عمه القول ، ولكن شيبة بن ربيعة وعليّ بن أمية قاما إليه فرفقا به حتى انصرفا به من المجلس .

وعاد شيوخ قريش إلى ما كانوا فيه من النجوى. فقال أمية بن خلف : « قد علمتم يا معشر قريش أن للأمين فيكم مكانة ما تعدلها مكانة ، وأنكم لم تنكروا من أمره شيئاً ، وما زلت أراكم تحتكمون إليه وترضون حكمه فى أمر هذا الركن . وقد علمتم أن لعبد المطلب وبنيه فى الدين شأناً غير شأنكم ومذهباً غير مذهبكم : تيسّرون على أنفسكم ، ويَشُقّون على أنفسهم ، وتعلم ذلك منهم العرب كلها . فما زاد الأمينُ على أن مضى على سنة أبيه عبد المطلب فتكلف من شؤون الحج ما لا تحبون أن تتكلفوا ، فخلوا بينه وبين ذلك ولا تراجعوه فى شىء منه فتسوءوه وتسوءوا بنى هاشم ، ولكم بعدُ فى تحرج الأمين وتكلفه ما لا تتكلفون منفعة ؛ فسيرى العرب أن سيداً من ساداتكم وشريفاً من أشرافكم لا يكره أن يسير سيرتهم ، ويحتمل من المؤونة ما يحتملون ، ويُفيض معهم من حيث يفيضون . فإذا رأوا ذلك عرفوا لقريش السؤدد والتواضع جميعاً » . قال الوليد بن المغيرة : « إن رأيك لهو الرأى

يا أبا عليّ » . وتفرق القوم إلى دورهم .

فأما عمرو بن هشام فقد انصرف مع صاحبيه شيبة بن ربيعة وعليّ ابن أمية كارهاً وهما يرفقان به ويلطفان له ، يأخذانه بالجد حيناً وبالدعابة والمزاح حيناً آخر ، حتى ثابت إليه نفسه وسكت عنه الغضب . يقول له شيبة بن ربيعة متضاحكاً : « لقد قمت يا أبا الحكم عن الأمين مقاماً سيعلمه وسيحمده لك » . قال عمرو بن هشام : « وأقسم ما أبغضت إنساناً قط كما أبغضت الأمين ، وما آذاني شيء قط كما تؤذيني قريش حين تُكرمه وتعظِّم من أمره ومن أمر بني عبد المطلب ما تعظِّم » . وكان القوم قد انتهوا إلى دار شيبة بن ربيعة ، فعزم عليهم لَيدخلُنّ ولينالُنّ عنده شيئاً من طعام وشراب . فلما استقرّ بهم المجلس وأخذ الغلمان يهيئون لهم غداءهم ، قال شيبة : « ما ظننت قط أن أحداً يُبغض الأمين ، وما عرفته إلا محمداً كاسمه بين قومه محبباً إلى النفوس جميعاً . فهلا حدثتنا يا أبا الحكم ببدء هذا الشنآن الذي تُضمره له ! ! »

قال عمرو بن هشام : « إن بدء ذلك لقديم جداً ، وإن عهدي به لفي أول أيام الشباب : أقبلنا على وليمة في دار عبد الله بن جُدعان ، فلما دعينا إلى الطعام ازدحمنا ، وزاحمني محمد فزحمني ، فزلَّتْ قدمي فسقطت على الأرض » .

قال شيبة : « أذكر ذلك ، وأذكر أنك لم تشاركنا في طعامنا فقد أصاب إحدى ركبتيك بأس » .

قال عمرو بن هشام : « بأس ! أي بأس ! ما زال أثره باقياً إلى الآن ، وما

أرى أنه سيزول، وما أرى إلا أن بغضي لمحمد سيبقى ما بقى هذا الأثر » .

قال شيبة : « هوّن عليك أبا الحكم ؛ أمرٌ يكون بين الشباب لا عاقبة له » .

قال علىّ متضاحكاً : « فإن محمداً قد فوّت عليه طعام ابن جُدعان وطعام ابن جدعان يؤسى عليه » .

قال عمرو بن هشام : « كان ذلك بدء بغضى له ، ولكنى ما زلت أسمع عنه وعن قومه الأعاجيب ، يتحدث بها الناس عنه فتسمعون أنتم وتنسون ، وأسمع أنا وأحفظ ، ثم يغيظنى من ذلك ما لا يغيظكم . أتذكرون تلك الأحاديث التى أذيعت عنه وملئت بها مكة حين سافر إلى الشام فى مال خديجة بنت خويلد ؟ ! »

قال شيبة : « أحاديث غلام أعجمىّ صدّقها من صدّقها وكذّبها من كذّبها ، وأشاد بها هذا الصابئ الذى تألفه وتكلّفُ به ورقة بن نوفل » .

قال عمرو : « دع ورقة لا تعرض له ، فإنه ما علمت لرجل خير » .

قال علىّ : « توشك والله يا أبا الحكم أن تنحرف مع هذا الرجل عن مألوف قومك » .

قال عمرو ساخراً : « قومى أعز علىّ من هذا » .

وكانت المائدة قد مُدّت فأقبل القوم على طعامهم ، ومضى عمرو ابن هشام فى حديثه يقول : « وإصهار محمد إلى خويلد واستئثاره بخديجة ومالها » . قال شيبة : « خير سيق إلى ابن عمك ، فما ينبغى أن تَنْفَسه عليه » . قال علىّ : « لم ينفسه وحده ، ولقد شاركه فى ذلك

كثير من قريش » . قال عمرو : « ولا والله ما غاظنى شىء قط كما غاظنى احتكام قريش إلى محمد فى أمر الركن ورضاها بحكمه ، واستئثار محمد من دون قومه بهذا الشرف حين أخذ الحجر بيده فوضعه فى موضعه من الكعبة ، ونحن قيام ننظر إليه لا نقول شيئاً كأنما سُكِّرت أفواهنا ، ولا نصنع شيئاً كأنما شُلَّت أيدينا » .

قال شيبة : « ما أحببت قط رجلاً كما أحببت محمداً فى ذلك اليوم ! فقد رد عن قومه شرًّا عظيماً » .

قال عمرو : « وما ضقتُ بشىء قط كما ضقت بمكان عمى الوليد ابن المغيرة الذى كان يسلقنى بلسانه آنفاً . لقد كنت أراه حازماً عازماً جريئاً حين ترددت قريش ، يُقدِم على هدم الكعبة حين أشفق الملأ من ذلك وهو يقول : "اللهم لا تُرَعْ فما أردنا إلا الخير" حتى إذا حمل قريشاً على ما أراد عجز عن أن يمضى فى الحزم إلى غايته ، وخلى بين مجد قريش وبين فتى من فتيان بنى هاشم يستأثر به من دوننا » .

قال علىّ : « إنه الحسد يا أبا الحكم ، وما علمتك قبل اليوم حسوداً »

قال عمرو : « سمّه ما شئت ؛ فإنى أضمر لهذا الأمين من البغضاء ما لم أضمره لإنسان قط. ولو استطعت... » ثم سكت قليلا ثم استأنف حديثه فقال : « ومن لى بأن أستطيع! ! » ثم التفت إلى علىّ قائلاً : « ما علمتنى يا على حسوداً ، وما عرفت فى نفسى حسداً، وإنك لتستطيع أن تملك من الذهب والفضة ما يملأ بين هذين الجبلين ، فلن

أجد فى نفسى من ذلك إلا الغبطة والرضا ، ولكن شاة يملكها الأمين تؤذينى وتُقيِض مضجعى كما لو عدا على حرّ مالى فأخذه قهراً وقسراً » .

وطوّف الغلمان عليهم بأقداح من خمر بتَيْسْبان فأقبلوا عليها شرهين إليها ، ولكنها لم تكد تصرف عمرو بن هشام عن حديث الأمين وما كان يضمر له من البغض حتى شق على صاحبيه .

٤

وكانت أجبال مكة قائمة حولها ساهمة واجمة فى يوم شديد القيظ ، كأنما أدركها منه ما يدرك الناس فيذهلهم عن أنفسهم وعما حولهم من الأشياء . وكانت مكة بين هذه الأجبال ساكنة سكوناً مخيفاً لا حركة فيه ، هادئة هدوءاً مفظعاً لا نشاط فيه ، قد استقرت بين هذه الأجبال ، واستقر فيها كل شيء ، فما تجرى فيها نسمة ، وما يغنّى فيها طائر ، وما تصوّت فيها حشرة ، وإنما هى جامدة هامدة تُصَبّ فيها أشعة الشمس المحرقة صبًّا ، وتنعكس فى هذه الأشعة المحرقة ألوان مختلفة من هذه الصخور القائمة من حولها ، حتى ليخيَّل إلى من كان يمكن أن يراها فى ذلك الوقت أنها طستٌ يُصَبّ فيها معدن مذاب يصهر كل ما مسه من شيء . وفى هذه المدينة الجامدة الهامدة المحرقة المشرقة كان رجل رومى يسعى ثقيل الحركة بطيء الخطو متخوّفاً يلتفت عن يمين وشمال فى كثير من الحذر ، كأنما يخشى أن يرى مكانه أحد . وكان يسعى مجهوداً مكدوداً شديد الإعياء قد ألهبته هذه الشمس المهلكة ، ولكنه على ذلك يسعى إلى غايته لا يبالى تعبًا ولا نصباً ، حتى إذا بلغ دار ورقة بن نوفل رأى غلامًا قائماً بالباب يرقب مقدمه ، فلما رآه مقبلا تلقاه بابتسامة صامتة ، ثم سعى بين

يديه حتى أدخله الدار وأغلق من دونهما الباب ، ثم سعى بين يديه ينقله من دهليز إلى دهليز ومن حجرة إلى حجرة ، يسعى لا يقول شيئاً ، والرومى وراءه يمشى لا يقول شيئاً ، حتى انتهيا إلى حجرة فى أقصى الدار ، فلما دخلاها أغلق الغلام الباب من دونهما ، ثم أحدث حساً فظهر ورقة كأنما كان فى مخبأ . فلما رأى الرومى حياه بالإشارة ثم قال : « اتبعنى يا نسطاس » . ثم التفت إلى الغلام وقال : « أما أنت فمكانك حتى نحدث لك أمراً » . وهبط ورقة يتبعه نسطاس فى سلم كان فى زاوية من زوايا الغرفة ، فلما انتهيا إلى أسفل السلم أمعنا فى نفق طويل ضيق ولكنه جعل يتسع قليلا قليلا كلما أمعنا فيه حتى انتهيا إلى مجلس حسن ، فلما بلغاه جثا كل من الرجلين على ركبتيه وأخذا يصليان بلغة غير عربية صلاة طويلة . فلما فرغا من صلاتهما مد ورقة يده إلى قدح فيه شىء من خمر فقرأ عليه كلاماً ثم قدمه إلى الرومى ، فشرب منه ثم رده إلى ورقة فشرب ما كان قد بقى فيه . ثم تحول الرجلان عن مكانهما ذاك إلى حشية قد ألقيت على الأرض فجلسا عليها وبين أيديهما شراب أقبلا عليه صامتين . ثم قطع نسطاس الصمت قائلا : « إنه الفجر يا ورقة » . قال ورقة : « نعم ؛ إنه الفجر يا نسطاس ! والفجر الصادق هذه المرة ، فقد طالما كذبتنا نجوم الليل » . قال نسطاس : « فقد أخذ الليل ينجلى » . قال ورقة : « ولكنه ينجلى فى بطء شديد » . قال نسطاس : « وقد آن لى أن أرحل بالخير إلى أصحابنا قبل أن تشرق الشمس » . قال ورقة : « أو قبل أن يرتفع الضحى » . قال نسطاس : « بل قبل أن تشرق الشمس فالخير فى البكور .

وقد كان شاعركم يحب الغدو مع الطير ، فلنكن عرباً ونحن نودّع أرض العرب » . قال ورقة : « ولكنك عجلت على نفسك أمس يا نسطاس » . قال نسطاس : « بما حدّثتُ به عمرو بن هشام ؟ » قال ورقة : « نعم » .

قال نسطاس . « لا تُرَعْ ، فقد كان يجب أن نُؤْذن قريشاً بمطلع الفجر ، وأن نُهيئها لما سيغمرها من نور ، ونُعدّها لما تضمر لها الأقدار مما تحب وما تكره . وما أعرف أحداً كان أقدر على أن يهيء قريشاً لهذا الأمر من صاحبك هذا ؛ فإنه فتى طموح شديد الطموح ، مغرور يكاد يقتله الغرور ، حسود يأكل الحسد قلبه كما تأكل النار ما يلقى فيها من الحطب ، وهو على ذلك ذكى القلب ، فصيح اللسان ، أثير عند قومه . وما أرى إلا أنه سيكون أشد الناس عداوة لهذا النور الجديد ، وما أرى إلا أن عداوته ستزيد هذا النور انتشاراً كلما أمعنت فى الشدة والحدة . وكذلك الأقدار يا ورقة تدبر للناس أمورهم كما تحب هى لا كما يحبون هم . نور يخرج من ظلمة ، ثم ما تزال الظلمة تحاربه وتغالبه حتى يقهرها . أرأيت إلى صاحبنا هذا الذى أشرق الفجر فى قلبه وسيشرق على الناس من فمه كيف أقبل على هذه الدنيا وكيف استقبل أيامه فيها ؛ يولد أبوه وهو أحب الناس إلى أبويه ، ولكنهما يفتنان فيه فتنة لم يعرفها الناس منذ إبراهيم ، حتى إذا خلص الفتى من الفتنة وقرّت به عينا أبويه خرج إلى الشام فلم يعد من رحلته تلك ، وإنما دُفن فى حفرة بيثرب . لم يولد لنفسه ، وإنما ولد لينقل ابنه إلى الأرض ، فلما أدى أمانته مضى لسبيله . وتلد آمنة ابنها وتقوم عليه ، حتى إذا تقدم به الصبا قليلا واستغنى

عن خدمة الأمهات مضت أمه إلى حيث مضى أبوه ، وظل الصبي يتيماً عائلا ضالاً ، لا ينتظر أحد له خيراً ، ولا يظن به أحد خيراً ، ولا يحفل به أحد ، ولا يلتفت إليه أحد ، إلا الذين أرادت الأقدار أن يعرفوا بعض شأنه وأن يقوموا ببعض أمره ، لا يتكلفون فى ذلك إلا أيسر الأمر وأهونه ؛ لأن الذى اختارته الأقدار لمثل هذه المهمة العظمى لا ينبغى أن تكون للناس عليه يد ، ولا يرعاه ويكلؤه إلا من اصطفاه لما يريد » .

قال ورقة : « هو ذاك يا نسطاس . وما أكثر ما بحثنا وأمعنا فى البحث ! وما أكثر ما استقصينا وغلونا فى الاستقصاء ! نبعد ومحمد بين أظهرنا . نلتمس مشرق النور فى أقطار الأرض ومشرق النور يسعى بين أيدينا ، حتى إذا تتابعت الآيات وتظاهرت الأدلة ظننا فى غير قطع أننا قد اهتدينا إلى ما كنا نبحث عنه ، وجعلنا نرقب محمداً منذ خمس عشرة سنة منذ عاد من الشام . أتذكر يا نسطاس ؟ » قال : « نعم » . قال ورقة : « ما زلنا نرقبه منذ ذلك اليوم والآيات يتبع بعضها بعضاً ، والأدلة يشد بعضها أزر بعض حتى جاء الحق وظهر نور الله » .

قال نسطاس : « هو ذاك ! ولكن بماذا أرحل إلى أصحابنا ؟ » . قال ورقة : « بما علمت » . قال نسطاس : «فإنى لم أعلم من ذلك إلا خلاصته ، وقد أحب أن أحمل إلى أصحابنا تفصيله . وقد أنبئت أن عندك من هذا العلم كله ، فأعد على من ذلك ما تعلم ، تقول أنت بعربيتك وأكتب أنا بيونانيتى ، حتى إذا بلغت أرض الروم أفضيت بالأمر إلى أصحابنا فأخذوا له ما ينبغى من الأهبة ، وتهيئوا له كما ينبغى أن يتهيئوا لهذا الأمر العظيم » .

قال ورقة : « ليتنى أستطيع أن أرتحل معك ، وأن أشارككم فيما ستبذلون من جهد وما ستحتملون من مشقة لتعدّوا بلاد الأعاجم لاستقبال الشمس المشرقة حين يبلغها نورها » .

قال نسطاس: « ولكن عليك أن تقيم حيث أنت ، وعلىّ أنا أن أعود إلى بلاد الروم ، بهذا أمِرنا ، ولا بدّ من أن نذعن لما أمِرنا به. فاقصص علىّ بدء حديثك فقد هيأت كل شىء للرحيل ، ويجب أن أترك مكة قبل أن تغرب الشمس وأن يأتى فتيان قريش إلى حانة نسطاس فلا يجدوا فيها نسطاس ، ولا يجدوا فيها خمراً ولا غناء ولا نساء ، وإنما يجدون داراً خالية بلقعاً يباباً ، كما سيجدون دوراً لقومهم حين يرتفع ضحى هذا النور الجديد » .

قال ورقة : « فإن ابنة عمى خديجة قد أقبلت علىّ ذات يوم فأنبأتنى بالنبأ تعيد علىّ حديث زوجها ، وقد حفظته عنها كما سمعته منها ، فإن شئت فاكتب » . فأقبل نسطاس على رَقّ يكتب فيه . وجعل ورقة يقول: « قال رسول الله (صلعم) » . يقول نسطاس : « يا لها كلمة حلوة المجرى على اللسان ، حسنة الموقع فى القلب ، خالدة فى الدهر ما بقى الدهر ! » . قال ورقة : « أتكتب يا نسطاس ؟ » قال نسطاس : « نعم ». قال ورقة: « قال رسول الله (صلعم) : جاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب ، فقال:اقرأ، قال:قلت:ما أقرأ ، قال:فغتّنى[1] به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال:اقرأ، قال:قلت : ما أقرأ ، قال:فغتّنى

---

(١) الغتّ : العصر الشديد مثل الغط .

به حتّى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال: اقرأ ، قال: قلت: ما أقرأ ، قال: فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال: اقرأ ، قال: قلت: ماذا أقرأ ، ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى ، فقال: (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) . قال: فقرأتها، ثم انتهى فانصرف عنى ، وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتاباً . قال: فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال: فرفعت رأسى إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل فى صورة رجل صافٌ قدميه فى أفق السماء يقول: يامحمد أنت رسول الله وأنا جبريل . فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء ، فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فما زلت واقفاً ما أتقدّم أمامى وما أرجع ورائى ، حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى ، وانصرفت راجعاً إلى أهلى حتى أتيت خديجة ، فجلست إلى فخذها مضيفاً إليها . فقالت: يا أبا القاسم ! أين كنتَ ؟ فوالله لقد بعثتُ رسلى فى طلبك حتى بلغوا أعلى مكة ورجعوا إلىّ . ثم حدثتها بالذى رأيت فقالت : أبشر يا بن عم واثبتْ ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة »[١] .

---

(١) سيرة ابن هشام - الجزء الأول صفحة ٥٢٢ ، طبعة المطبعة الخيرية بمصر .

ثم سكت ورقة فلم يقل شيئاً ، وكفّ نسطاس فلم يكتب شيئاً ، وظل الرجلان فى هذا الصمت والسكون ساعة ، كأنما كانت نفساهما قد فارقتاهما وجعلتا تسموان إلى أفق بعيد ليس من هذا العالم الذى يحيط بهما فى شىء . ولو قد رآهما راءٍ على هذه الحال لخيِّل إليه أن قد اشتمل عليهما النوم . وآية ذلك أن الحس عاد إليهما فجأة فذُعرا من هذا الصمت كأنما هبّا من نوم عميق ، ونظر كل منهما إلى صاحبه نظرة طويلة صامتة ثم مدّ كل منهما يده إلى صاحبه فصافحه مصافحة طويلة ، وإذا دموعهما تنهلّ فى صمت ، وإذا نسطاس يقول لصاحبه : « ما أحسن ما كوفئنا يا ورقة بعد شدة الجهد وطول الانتظار ! ولكن ممن سمعت حديثك هذا الذى حدثتنى ؟ » . قال ورقة وقد أشرق وجهه بشراً وابتهاجاً : « سمعت حديثى هذا من خديجة أول الأمر ، فما أنكرت منه شيئاً وما شككت فى أن هذا الملك الذى جاء محمداً هو الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، فعرفت أن محمداً لم يُفْجأ بلقاء الملك ولا بتلقّى الوحى ، وإنما هيىء لذلك شيئاً فشيئاً حتى أنكر نفسه وأساء بها الظن ؛ فقد جعل قبل أن يأتيه الملك بوقت طويل يرى من آيات ربه أشياء لم يكن يراها من قبل ، فينكر مايرى ويظن بنفسه العلة ، ويصرفها عما كان يرى ويسمع ، فلا تكاد تنصرف عنه ، أو لا يكاد ينصرف عنه ما كان يرى ويسمع . وكان أول أمره من ذلك أن صدّقته أحلام الليل صدقاً لم يألفه الناس ولم يألفه هو فيما مضى من دهره ، فكان لا يرى رؤيا إلا صدّقت وصحت وتحققت كأنها فلق

الصبح ، حتى كاد النوم يكون آثر عنده وأحب إليه من اليقظة . ثم أحس حب الخلوة والحاجة إليها ، فكان لا يُلمّ بمكة إلا قليلا ، ثم يخرج منها فيمضى أمامه فى شعاب الجبال مستأنساً بهذه الوحشة مطمئناً إلى هذه الوحدة . ولكن خلوته هذه لم تلبث أن رابته وأثارت فى نفسه الظنون ، أو قل لم تلبث أن فارقته ، وإذا هو لا يَخلصُ لنفسه ولا تخلص له نفسه ساعة من نهار أو ساعة من ليل ، وإذا الفرق بين الليل والنهار قد ألغى بالقياس إليه إلغاء ، فهو لا يرى إلا نوراً يأخذه من كل وجه سواء أكانت الشمس مشرقة أم كان الليل مظلماً مُدْلَهِمّاً ، فقد الظلمة فقداناً تامّاً ، ثم فقد السكون والصمت فقداناً تامّاً ؛ فكان لا يمشى إلا سمع الأصوات تناجيه أحسن النجوى ، وتحدثه أعذب الحديث وتحييه أكرم التحية ، يسمع ذلك من الأشجار ، ويسمع ذلك من الأحجار ، ويسمع ذلك من حصباء الأرض ، ويسمع ذلك من نسيم الجو ، حتى أنكر نفسه أشد الإنكار ، وحتى أقبل ذات يوم على خديجة مُدَلَّهاً مُوَلَّهاً مذعوراً يقول : تعلمين يا خديجة أنى والله ما أبغضت شيئاً كما أبغض هذه الأوثان التى تعكُف عليها العرب ، وما كرهت شيئاً كما أكره ما ألف العرب من الكهانة ، وإنى مع ذلك لأجد أشياء أنكرها ، وأخشى أن يلمّ بى لَمَمٌ أو أن أصير إلى الكهانة. تقول له خديجة : لا بأس عليك ! أنت أكرم على ربك وآثر عنده من أن يصنع بك هذا . إنك لتصل الرحم ، وتصدُق الحديث وتصنع المعروف ، حتى كان ذلك اليوم الذى نُبِّىءَ فيه » . وكان ورقة يقص هذا الحديث هادئاً مشرق الوجه باسم الثغر ، وكانت يد

نسطاس تجرى على قرطاسه بتفسير ما يسمع فى لغة يونان . ثم سكت ورقة لحظة ثم استأنف حديثه فقال : « وقد لقيت محمداً بعد ذلك ، فسألته أن يعيد علىّ ما حدثتنى به خديجة من شأنه وما حدثتك به آنفاً ، فيعيده علىّ ، لا والله ما ينقص منه حرفاً وما يزيد فيه حرفاً ، فيشرق الهدى فى نفسى ويمتلىء قلبى يقيناً ونوراً ، وأبشره بما ستبشر به أصحابنا فى الإسكندرية وغيرها من مدن الروم ، وبما ستنتشر أنباؤه فى الآفاق من أنه نبىّ هذه الأمة . وأثبّتُّهُ وأوذنه مع ذلك بشىء من بعض العنت الذى سيلقاه من قومه » . قال نسطاس : « أوَقد فعلت ؟ » . قال ورقة : « نعم ؛ ألسنا نقرأ فى كتبنا أن قومه سيكذّبونه وسيؤذونه وسيخرجونه وسيقاتلونه ؟ ! » . قال نسطاس : « بلى » : قال ورقة : « فقد تحدثت إليه ببعض ذلك ، أوَلسنا نقرأ فى كتبنا أن علينا نصره وتأييده ما وسعنا النصر والتأييد ؟ » . قال نسطاس : « بلى » . قال ورقة : « فقد وعدته بذلك ، ولكن أنَّى لى هذا الفضل وإنما أنا هامة اليوم أو غد ! » . ثم استعبر واستعبر معه نسطاس. فلما سكت عنهما البكاء قال نسطاس : « وماذا كان صدى حديثك فى نفسه؟ » . قال ورقة : « والله ما كدت أحسب أن قد كان لحديثى فى نفسه صدى ! دهش لما أنبأته به بعض الدهش ، ثم أعرض عنه كأنه لم يسمع له . لا والله ما رأيت إلا حزماً وعزماً ، وإلا يقيناً وإيماناً ، وإلا تصميما على أن ينهض بالأمانة ويؤدى الرسالة مهما يكتنفه من الأحداث والخطوب . وليتنى كنت حاضر أمره ! » . قال نسطاس : « وليتنى كنت حاضر أمره ! ولكنك لن تحضر من أمره إلا قليلا ، ولكنى لن أحضر من

أمره فى هذه الأرض شيئاً . والأقدار تجرى بما تريد يا ورقة ، وإنما نحن مأمورون ، وعلينا أن نمضى لما أمرنا به حتى يبلغ الكتاب أجله » . ثم جثا الرجلان وبسطا أيديهما أمامهما وخفضا رأسيهما إلى الأرض وجعلا يصليان بلغة غير عربية وقتاً غير قصير ثم نهضا ، وتناول نسطاس قدحاً فيه شىء من شراب ، فبارك عليه ثم قدمه إلى صاحبه فشرب منه ثم أخذه هو منه فشرب سائره ، ثم اعتنق الرجلان وخرجا من مجلسهما يسعيان فى نفقهما الذى جعل يضيق شيئاً فشيئاً ، حتى إذا بلغا السلم صعدا فيه ، فوجدا الغلام قائماً لم يبرح مكانه .

قال ورقة للغلام : « هل هيئ كل شىء ؟» . قال الغلام: « نعم ! إن فرس نسطاس ينتظره فى المكان الذى يعلمه » . قال ورقة لنسطاس : « فإنه الوداع إذاً يا نسطاس ! » . قال نسطاس : « إنه الوداع » . ثم اعتنق الرجلان مرة ثانية ، يقول ورقة لنسطاس : « انطلق راشداً مصاحباً » ويقول نسطاس لورقة : « وأقم موفقاً مهديًّا » . ثم يُغلقُ الباب من دون ورقة ، وإذا هو قائم وحده ينظر عن يمين وينظر عن شمال ويرفع رأسه إلى السقف ثم يجثو باسطاً يديه أمامه وهو يصلى بلغة لا تفهمها ولا تتكلمها قريش .

٥

ومضت على عمرو بن هشام أيام لم يعرفها ولم ينكرها ، كما أن قومه لم يعرفوه فيها ولم ينكروه . راح إلى دار نسطاس من يومه ذاك فألفاها قاعاً صفصفاً ، فلما سأل عن صاحبه الرومى قال له من سألهم : والله ما ندرى إلا أننا أحسسنا فى دار نسطاس حركةً وجه النهار فلم ننكر شيئاً ، فلما أمسينا رأينا الدار كما تراها . فانطلق إلى دار ورقة يستأذن عليه ، فيقول له غلام ورقة : إن سيده يشكو بعض العلة ولا يستطيع أن يرى أحداً . ولو قد استجاب الفتى لنفسه لذهب إلى دار عمه الوليد بن المغيرة ، ولكنه ذكر ما كان بينه وبين عمه فى المسجد فأعرض عن لقاء الشيخ إعراضاً . ولو قد استمع الفتى إلى ما ملأ قلبه من الضجر والضيق لعاد إلى بيته كئيباً كاسف البال سيء الخلق فساء أهله وبنيه ، ولكن ماذا جنى أهله وبنوه !

فينطلق الفتى إلى مجلس من تلك المجالس التى كان يجتمع فيها شباب قريش حين يقبل الليل يشربون ويطربون ويعبثون بكل إنسان وبكل شيء ، حتى إذا بلغ مجلسهم تلقَّوه دهشين يقولون له : ويحك أبا الحكم ! فأين أنت من نسطاس ؟ ! قال :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيسٌ ولم يسمُرْ بمكة سامرُ

قال أخوه الحارث بن هشام :

بلى نحنُ كنا أهلها فأزالنا صروفُ الليالى والجدود العواثر

قال عمرو بن هشام : « لا والله ما أزالت نسطاس صروف الليالى ولا الجدود العواثر ، وإنما أزالته أمور دُبِّرَت بليل وكيدٌ يكاد لقريش ». قال القوم : « ويحك أبا الحكم ! ماذا تقول ؟ » . قال عمرو : « وأقسم لولا جبن قريش وحرصها على مالها وتجارتها لما قصّرْتُ فى طلب نسطاس حتى أدركه وحتى أرده عليكم وحتى أذيقه من العذاب ألواناً ، ويومئذ تعلمون ما يكاد لكم من الكيد ، ويومئذ تعلمون أنكم تسرفون على أنفسكم حين تضيفون هؤلاء الغرباء ، وتبسطون لهم وجوهكم ، وتُغدقون عليهم كريم أموالكم ثمناً لما يفتنونكم به من أقداح الخمر وغناء المغنيات . لا والله ما هؤلاء الغرباء إلا عيون عليكم لقيصر وكسرى ؛ ولكنكم أصحاب تجارة تجوبون الأرض ولكم فى كل بلد قافلة وأموال ، فأنتم تخشون على أموالكم وأنفسكم . وأنتم تبيعون أمنكم وعافيتكم بهذا الربح الذى تتهالكون عليه . ولو قد عشتم كما يعيش العرب من حولكم لكرُمتم على أنفسكم وعلى الناس أكثر مما أنتم » .

قال عتبة بن ربيعة : « ما أكثر ما تنعى على قومك منذ اليوم يا عمرو ! فدعنى أقل لك الآن مثل ما قلته لك فى المسجد ، فابدأ بنفسك فعش كما يعيش العرب من حولنا » .

قال عمرو بن هشام وفى صوته سخرية حزينة :

وهل أنا إلاّ من غَزِيةَ إن غوتْ
غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أرشدِ

ستستبينون الرشد غداً أو بعد غد » . ثم ضربَ إحدى يديه بالأخرى وصاح : « الخمر يا غلام » . وأقبل على شرابه عاكفاً عليه مسرفاً فيه حتى عربد على أصحابه من ليلته تلك ، وعاد إلى أهله سكران لا يكاد يبين . ثم لم تره قريش بعد ذلك إلا مَغيظاً مُحْنقاً ، يسخر من كل شيء إن هدأ ، ويغضب من كل شيء إن جمحت به نفسه ، وما أكثر ما كانت تجمح به نفسه ! وما أكثر ما كان يؤذى أصحابه وأترابه فى غدوه ورواحه ! حتى لقد كانوا يتجنبونه ويتكلفون النأى عنه . ولولا مكانه من مخزوم وموضعه من عمه الوليد بن المغيرة لأصبح خليعاً فى قريش كما تمنى غير مرة أن يكون .

وبينما كان رائحاً فى ذات يوم إلى حانته تلك يشرب فيها ويطرب وينغّص على شباب قريش شربهم وطربهم ، عرض له فى بعض الطريق شيخ أعرابى حسن الوجه ، رائق المنظر ، لولا أنه كان غليظ الزى خشن الثياب ، يكاد يبدو عليه الضر ، لولا أنه يتجمل ويروض نفسه على ما لم يتعود الأعراب أن يروضوا أنفسهم عليه . فلما رأى عمرو ابن هشام هذا الشيخ مقبلا عليه ، رماه بنظرة سريعة فيها كثير من السخرية وقليل من الحذر ، وهمّ أن يمضى لوجهه . ولكن الشيخ استوقفه فى رفق ، فأظهر عمرو أنه لا يحفل به . ولكن الشيخ رفع صوته قليلاً بهذه الكلمة : « مكانك يا فتى فإن لى إليك حديثاً » .

وبلغ هذا الصوت أذن الفتى فروّعه شيئاً، ولم يدر الفتى أيحب هذا الصوت أم يكرهه ، وأراد ليمضى أمامه ولكن رجليه لم تطاوعاه ، فقام مكانه كأنما ثُبِّتت قدماه فى الأرض تثبيتاً . ودنا الشيخ منه يسعى متباطئاً قصير الخطى ، حتى انتهى إليه فوضع إحدى يديه على كتفه فى رفق وقال له فى صوت بلغ أعماق قلبه : «لا تُرَعْ يا بنىّ فما أريد بك إلاّ خيراً» . قال الفتى فى صوت مضطرب يريد أن يثبت : «من تكون أيها الشيخ ؟ وماذا تريد ؟» . قال الشيخ : «ستعرف من أكون ، وستعرف ماذا أريد ، ولكن تَعلمْ أنى بعد أن وضعت يدى هذه على كتفك هذه قد ملكت أمرك كله ، فلن تنطق إلا بلسانى ، ولن تعمل إلا برأيى ، ولن تصدر إلا عن أمرى . وآية ذلك أنك ستحاول أن تمضى الآن أمامك فلن تطاوعك رجلاك، وستحاول أن تعود أدراجك فلن تطاوعك رجلاك ، فاجتهد أن تتقدم ، ثم اجتهد أن تتأخر ، فلن تجد متقدّماً ولا متأخراً ، ستظل قائماً مكانك حتى آذن لك فى أن تتقدم أو تتأخر . ثم تناءى عنه قليلا وأشار إليه أن جَرِّبْ قدميك إن شئت . وَهمّ الفتى أن يخطو إلى أمام فلم يستطع ، كأنما شُدَّتْ قدماه إلى الأرض بأسباب الرصاص . وَهمّ الفتى أن يتحول ليرجع أدراجه فلم يستطع ، كأنما استحال جسمه إلى تمثال نحت من الصخر الصلد . وَهمّ الفتى أن يدير رأسه إلى يمين أو إلى شمال فلم يجد إلى ذلك سبيلا . وَهمّ الفتى أن يبعث من فيه صيحة يلتمس بها الغوث فلم يجد فى جوفه إلا نفساً

خاثراً لا يبلغ أن يكون صوتاً يسمعه الناس . والشيخ الأعرابى قائم منه غير بعيد ينظر إليه باسماً له رفيقاً به عطوفاً عليه . ثم دنا الشيخ منه قليلاً قليلاً ، حتى إذا حاذاه ضحك له ضحكة فيها كثير من الحب وكثير من السخرية ،ولكنها سخرية لا تخلو من حنان وعطف ، ثم قال له فى صوت حلو : « الآن وقد عرفت سلطانى عليك فامض لوجهك ، حتى إذا بلغت حانتك تلك فاشرب فيها ما شئت أن تشرب ، واطرب فيها ما أحببت أن تطرب ، وقل فيها ما أردت أن تقول ، فلن تسوء قومك منذ الآن مهما تقل أو تفعل ، ولن تسمع منهم إلا ما يرضيك ، ولن ترى منهم إلا ما يسرك . لستَ أكبرهم سنًّا ولا أعظمهم قدراً ولا أكثرهم مالاً ، ولكنهم سيسمعون لك كما لو اجتمع لك هذا كله . ولن يطول بك المقام فى حانتك تلك حتى يأتيك رسول عمك الوليد بن المغيرة أن زُرْهُ من الغد فإن له معك شأناً . ولا تعجل على نفسك ولا على أصحابك ولكن خذ من اللهو بأوفر حظ ممكن . ثم إذا انصرفت لتعود إلى أهلك فاذكر أنى أنتظرك فى هذا المكان ، ولك أن تسلك إلى بيتك أى طريق شئت فإنك لن تبلغ دارك ولن تُغلق الباب من دونك حتى ترانى جالساً أنتظرك . وسترانى مهما تكن ظلمة الليل ، وسترانى وحدك لن يرانى معك أحد ، وسأناجيك وستسمعنى وحدك لن يسمعنى معك أحد . امض لوجهك ، ولا تحاول أن تخالف عن أمرى ؛ فقد ملكت ناصيتك منذ اليوم » .

ونظر عمرو بن هشام حوله فلم ير أحداً ،وحرك رجليه فاستجابتا له ؛

وحرك يديه فاستجابتا له، ولوى وجهه إلى يمين وإلى شمال فلم ير فى ذلك عسراً . وقد شق عليه ما رأى ، وشق عليه ما أحس وظن أن قد ألم به طائف من الجن ، وهم أن يستغيث ولكنه استحيا ، وهم أن يتحدث إلى أصحابه فى الحانة ببعض ما رأى ولكنه استحيا ، فأقبل على لهوه وشرابه كأن لم يكن شيء ، وأقبل على أصحابه وأترابه يحدثهم أرق حديث وأحسنه . يقول بعضهم لبعض : ما نرى إلا أن أبا الحكم قد عاد إلى خير أيامه، وذهبت عنه العلة التى كانت ألمت به .

ولم يكد يبلغ الثانى من أقداحه حتى أقبل غلام من غلمان عمه الوليد، فهمس فى أذنه أن ألمم بعملك من غد فإن له فى لقائلك أرباً . فوقع همس الغلام فى قلب عمرو موقعاً غريباً نبهه إلى الشيخ الأعرابى وقد كاد ينساه ، ولكنه على ذلك مضى فى لهوه مقبلا عليه مغرقاً فيه وفى حديثه إلى أصحابه وأترابه يرضيهم بجده ويسرهم بدعابته ، ويسمع منهم خير ما أحب ، وهو مع ذلك لا يكاد يخلص لما كان فيه من لذة الشراب والحديث والغناء ، يذكر الشيخ الأعرابى بين حين وحين فتغشى قلبه غاشية من خوف وحزن ، ثم لا يلبث أن يدفع ذلك عن نفسه، ويمضى فى منادمة قومه، سمح الطبع ، كريم النفس فصيح اللسان بأعذب الحديث . فلما تقدم الليل واستوفى القوم حظهم من السمر وهموا أن يتفرقوا ، كان عمرو قد استرد مكانه فى قلوب أصحابه جميعاً ، فيأبى شيبة بن ربيعة وعلى بن أمية بن خلف أن يفارقاه حتى يبلغاه داره . يقول لهما عمرو : «والله ما هذه لكما بطريق ،

وما تعوّدت منكما هذا الرفق ، وما أرى أن بى بأساً ، وما أحسب أن أحداً يرصُدنى فى الطريق ، فانصرفا إلى أهلكما وَصَلَتْكما رحمٌ » .
فيقولان له : « والله ما بك شيء مما ذكرت ، وما بنا رعاية لك أو إشفاق عليك من مكروه ، وإنما عدت إلى حسن سابقتك فينا ، فنريد أن نعود إلى حسن عهدك بنا . ولا والله ما نصاحبك إيثاراً لك بصحبتنا بل إيثاراً لأنفسنا بصحبتك . ولو استطعنا لسمرنا معك إلى آخر الليل ، وإنما أنت صديق فقدناه ثم وجدناه » . ويمضون وفى نفس عمرو بن هشام شيء من الرضا والأمن ؛ فقد كان يكره أن يلقى الشيخ وحده ، وما كان يشك فى لقائه ، وفى نفسه شيء من الحياء فقد كان يكره أن يراه الشيخ مع صاحبيه فيظن به جبناً أو فرَقاً . ومع ذلك فقد مضى مع صاحبيه يقول لهما ويسمع منهما كأن نفسه لم تكن تحدّثه بشيء ، وكأن قلبه لم يكن يفرَق من شيء .
فلما بلغ المكان الذى لقى فيه الشيخ آخر النهار أبطأت قدماه شيئاً ومدّ بصره ، فيرى الشيخ قائماً ينتظره ويبتسم له ابتسامة فيها كثير من الرضا ، يراه وحده ولا يشك فى أن صاحبيه لا يريان ما يرى . وآية ذلك أنهما لم يكفّا عما كانا فيه من حديث ، ولم يُلقيا بالاً إلى شيء لأنهما لم يحسّا شيئاً .

ويمضى القوم أمامهم والشيخ الأعرابى معهم يراه عمرو دون صاحبيه ، ويكاد يؤذن صاحبيه بمكانه ، ولكن شيئاً من حياء يرده عن ذلك : فقد كان يخشى أن يظن به صاحباه الجنون . فما حديثه

إليهم عن شيخ يراه هو ولا يريانه هما ؛ وكيف به لو قص عليهما ما كان بينه وبين الشيخ آنفاً ؟ وكيف به لو حدثهما بأن الشيخ قد أنبأه بأن الأمور ستصفو بينه وبين أصحابه وأترابه ، وبأن عمه سيدعوه لزيارته بعد ما كان بينهما من قطيعة ، وبأن هذا كله قد كان ! ولكنه لا يحدث صاحبيه بشيء بل لا يظهر لهما أن شيئاً يدور بخلده غير ما يدور بينه وبينهما من حوار فى أمر هذه القافلة التى ستفصل بعد يوم أو يومين ، والتى تحمل من الذهب والورق والعروض إلى بلاد الروم ما لم تحمله قافلة لقريش منذ أعوام ، والشيخ الأعرابى يرمق عمراً معجباً به عاطفاً عليه . حتى إذا بلغ القوم دار أبى الحكم حيا بعضهم بعضاً واتعدوا نادى قومهم فى المسجد إذا كان الغد . وانصرف شيبة وعلىّ ، ودخل عمرو داره ، ولكنه لم يدخلها وحده وإنما دخلها معه الشيخ باسمَ الثغر مشرق المحيا يقول : « لا عدمتك بطلاً من أبطال قريش ! أشهد لقد أنجبت الحنظلية . لقد شهدتك بين قومك تجد ما تجد من الخوف ، وتنكر ما تنكر من الأمر ، لا يصرفك ذلك عن الحديث والمنادمة . ولقد شهدتك تحاول أن تخلص من صاحبيك لا إيثاراً ولا إسراعاً إلىّ ، ولكن إبقاء على نفسك أن أظن بك جبناً أو فرقاً . ولقد قرأت ما كان يدور فى نفسك من الخواطر حين لقيتنى فأخفيت هذا كله لم يظهر أحد من دخيلة نفسك على شىء . وكذلك يجب أن يكون الرجل ، ولا سيما حين تهيئه الأيام لأمور جسام » .

قال عمرو ولم يجد فى نفسه خوفاً ولا فرقاً ، ولم ينكر مكان هذا الشيخ منه : «ألا ترى أنك قد أثقلت علىّ منذ الليلة ؟ ألا تنبئنى ما خطبك؟ وماذا تريد منى ؟ ! » .

قال الشيخ : «لك أن تلقانى بما أحببت من رفق وغلظة ، ولك أن تحدثنى بما شئت من لين القول وعنيفه ، فقد وطّنت نفسى على أن أحتملك كما أنت؛ لأن كل شىء فيك يروقنى ويعجبنى . وستعلم حين يتصل بينك وبينى الحديث،أنى لم أثقل عليك منذ الليلة ولن أثقل عليك إلى آخر الدهر».ثم ضرب على كتفه مبتسماً وهو يقول: «فسأكون صديقك وحليفك إلى آخر الدهر ، وستحمد مغبة هذه الصداقة وعواقب هذه الحلف ، ولكن ابتغ لنا مجلساً ، فما يحسن أن يطول بنا الحديث ونحن قائمان . هلمّ أبا الحكم ! لقد عهدتك جميل اللقاء للضيف ، تحسن قراه إن ألمّ بك ، فما لك لا تعرض علىّ طعاماً ولا شراباً ؟ بل ما لك لا تعرض علىّ مجلساً أستقر فيه ؟ إنك تريد أن أنتسب لك كما تعوّد الضيف أن يفعلوا حين يلمون بمن يُضيفهم من الناس . وما يغنيك أن أنتسب لك وأنت لن تفهم عنى نسبى إن عرضته عليك؟! وهل تفهم عنى إن قلت لك إننى ابن النار منها خرجت وإليها أعود إن كنت إليها عائداً لا أعرف لى غيرها أباً ولا أمّاً» .

قال عمرو بن هشام وفى صوته شىء من الاضطراب : «ما رأيت كالليلة شيخ سَوْء يتحدث بكلام لا غَناء فيه ! ما ابن النار منها

خرجتَ وإليها تعود ؟ ! » .

قال الشيخ : « ومع ذلك فليس لى نسب غير هذا . لا تَعْجَلْ على نفسك فإن لكل شيء إبَّانه . ابْغِ لنا مجلساً ، ولا تكلّف نفسك القِرَى فقد نام أهل الدار ، وما ينبغى أن توقظهم ولا أن تكلفهم قرى ضيف لا يرونه ولا يسمعونه » .

قال عمرو : « فتظنهم لا يسمعوننا الآن ونحن نتحدث ؟ وَهبهم لا يسمعون صوتك أنت ، أتظنهم لا يسمعون صوتى أنا ؟ وما تراهم يقولون حين يسمعونى أتحدث إلى شخص لا يرونه ولا يحسون مكانه؟ ».

قال الشيخ وهو يضحك ضحكاً غريباً : « لا بأس عليك أبا الحكم ! إنهم لا يسمعونك ولا يسمعونى مهما يرتفع صوتانا . إنهم لا يعلمون أنك قد عدت من سمرك ، ولن يعلموا ذلك حتى أنصرف عنك ، ولن ترى منك أم عكرمة إلا خيراً . ابغ لنا مجلساً ، فأمّا إن أبيت فانحرف بنا إلى هذا المجلس عن يمينك من فناء الدار ، فقد نستطيع أن نطمئن فيه . واعْجبْ إن كنت فى حاجة إلى العجب ، فسأقدّم إليك من القِرَى ما لم تُردْ أن تقدّم إلىّ . إن معى زقّاً من خمر الطائف فشاركنى فى شيء منه » . ثم أخذ بيده حتى أجلسه ، وأخرج زقّاً صغيراً من وعاء كان يحمله على ظهره ، وأخرج قدَحين فصَبّ فيهما منه ، ثم قال للفتى : « هلمّ أبا الحكم ، فستحمد نشوة هذه الخمر » . ويحسو عمرو من القدح الذى قدّم إليه فيقول : « لا والله ما شربت قط خمراً كهذه الخمر ، إن لها لمذاقاً غريباً فى

الفم ، ونكهة غريبة فى الأنف ، وحرًّا غريباً فى الجوف » .

قال الشيخ : « ودُوَاراً غريباً فى الرأس ، إنها خمر أبى مُرة يا بنىّ . هذه هى الكنية التى ستعرفنى بها منذ الآن . إذا أعيا عليك أمر من الأمور ، أو ضاق بك مسلك من المسالك ، أو وجدت من الناس غير ما تحب ، فادْعُ حليفك أبا مرة ، فسيستجيب لك قبل أن يرتد إليك طرفك ، وسيفرّج عنك كل كربة ، وسيخرجك من كل ضيق . ولنأخذ الآن فيما أردتُ أن أتحدث إليك فيه ، لقد أتيتَ أمرين فى هذه الأيام كرهتُ أحدهما أشد الكره ، ورضيت عن الآخر أشد الرضا . فأما الأمر الذى كرهته منك فخلافك لقومك ، وخروجك عليهم ، وازدراؤك لما يقولون ويعملون ، واشتدادك على عمك فى الحديث وقطيعتك له منذ اليوم ، كل هذا كرهته أشد الكره لأنك عماد قومك وموئلهم وذخرهم الذى ادُّخرَ لهم حين تُقبل الحوادث وإنها لجسام مفظعة . فعدْ إلى عمك فواصله ، وعد إلى قومك فارفق بهم . واردد نفسك عن جماحها ، واردد لسانك عن شططه ، ودع هذه السخرية مما عليه قومك فإنه قوَامهم ، ولو قد انحرفوا عنه قليلا لتخطَّفهم الناس . ولو قد تخطَّفهم الناس لهلكت العرب ! فقريش رِدْؤُهمْ وكهفهم الذى إليه يأوون . وأما الأمر الذى أحببته منك أشد الحب ، فبغضك لابن عبد المطلب هذا الذى يسميه قومك الأمين ضعفاً منهم وخرقاً ، وإنه لهم لمصدر البلاء كل البلاء والشر كل الشر والمحنة كل المحنة » .

قال عمرو فى شىء من الحدة : « إليك عنى ! فوالله ما أحببت من نفسى هذه الخصلة ، وما أرى إلا أنى ظالم لابن عبد المطلب . حاسبت نفسى منذ قلت تلك المقالة فى دار شيبة فما حمدت حسابها . إن ابن عبد المطلب لَيصل الرحم ويصْدُق الحديث ويرفق بالضعيف ويرحم الرقيق ، وإنه لمؤتمن فى قومه على الهين والعظيم من أمرهم ، وإنى لأجد فى نفسى الحسدَ له ، وليس الحسد من أخلاق الرجل الكريم . وإنى لأروض نفسى منذ ذلك اليوم على أن أعود على ابن عبد المطلب بالعافية وأمنحه مودتى وبرّى ، ولكنى لا أجد إلى ذلك سبيلا ، فيسوءنى من نفسى هذا الضعف ، وهذا هو الذى أفسد ُخلقى منذ أيام » .

قال الشيخ وهو يقدّم القدح إلى عمرو : « اشربْ أبا الحكم ودع عنك هذه الخواطر ! فلقد صدَقتك نفسك حين حملتك على بغض هذا الرجل . ولئن حمدت فيك شيئاً إنما أحمد فيك هذا البغض العنيف ، هذا البغض الذى لا يبقى ولا يذر ، هذا البغض الذى لا يعرف رحمة ولا هوادة ولا ليناً ولا أناة . وإن هذا البغض على عنفه وشدته لقليل بالقياس إلى ابن عبد المطلب » .

قال عمرو : « أبينك وبينه دم ؟ ! » .

قال الشيخ : « ليس بينى وبينه شىء ، وإنما الشر كل الشر بينك أنت وبينه . أتذكر حين زَحمك عند ابن ُجدْعان ؟ إن ذلك لم يكن إلا رمزًا لما سيكون بينك وبينه من خصام لا يحدّه إلا الموت . إنك لا تعرف من أمر ابن عبد المطلب شيئاً . إنك ترى قومك ُيكرمونه

والشر كل الشر فى إكرامهم له . إنه يدبر لهم من الأمر ما سينغّص عليهم أيامهم ، ويؤرّق عليهم لياليهم ، ويكدّر عليهم صفو الحياة . أتذكر حديث نسطاس حين أنبأك بأن سيكون للسماء خبر ؟ فإن ابن عبد المطلب هو الذى سيحمل إليكم خبر السماء . أتذكر ثورة ورقة بن نوفل حين أنبأته بحديث نسطاس ؟ فإن ورقة يزعم من ذلك مثل ما يزعم نسطاس » . ثم قدّم القدح إلى الفتى وهو يقول : « اشربْ أبا الحكم ! إنك لمتثاقل على الشراب منذ الليلة » . فيشرب عمرو ويقول للشيخ : « ويلك ! والله ما أدرى أخمراً تسقينى أم ناراً ؟ ! » . فيجيبه الشيخ : « لست أسقيك خمراً ولست أسقيك ناراً أبا الحكم ، وإنما أسقيك بغضاً لابن عبد المطلب لو سُلط البحر عليه ما أطفأه . لقد رحتَ إلى نسطاس من يومك ذاك فلم تجده ، ورحتَ إلى ورقة فاعتلّ عليك يزعم أنه سقيم . أتريد أن تعرف ما كنت تجهل من أمر نسطاس ؟ فإنه قد خلا إلى ابن نوفل ساعات من نهار ، ثم انصرف عنه إلى بلاد الروم ينبئ جماعته تلك التى حدّثك عنها بأن النبى الذى كانوا ينتظرونه قد ظهر ، وبأن ابن عبد المطلب هو هذا النبى . وكره ورقة أن يلقاك حين رحت إليه ، وسيكره لقاءك كلما حاولت أن تلقاه ؛ لأنه يكره أن يتحدث إليك من أمر ابن عبد المطلب بقليل أو كثير ، فلم يؤذن له بعدُ فى الحديث عن هذا الأمر » .

قال عمرو وقد أدركه دهش كاد يخرجه عن طوره : « ومن الذى يستطيع أن يأذن لورقة أو لا يأذن له ؟ » .

قال الشيخ : « ما أدرى ! ولكن أمر ابن عبد المطلب سيظل سرًّا خفيًّا حيناً من الدهر ، لا يباديكم به ولكنه يهيئ لكم فى أثناء ذلك شر ما تكرهون » .

قال عمرو : « ماذا يهيئ لنا ؟ » . قال الشيخ وهو يقدّم القدح إلى الفتى : « تريد أن تعرف ماذا يهيئ لكم ؟ سيُلقى فى قلوب الذين يتبعونه أن لهم إلهاً غير آلهتكم لا يراه أحد ولا يحسه أحد وهو مع ذلك فى كل مكان وفى كل قلب . وسيلقى إليهم أن آلهتكم كلها باطل من الباطل لا تملك لنفسها ولا لكم خيراً ولا شرًّا » .

قال عمرو : « والله ما أكره من ذلك شيئاً » . قال الشيخ « وسيُلْقى إليهم أن ليس بين الناس قوى ولا ضعيف ، وأن ليس بينهم شريف ولا وضيع ، وأن ليس بينهم سيد ولا مسود ، وأنهم جميعاً سواء كأسنان المشط قد خُلقوا من التراب وإلى التراب يعودون ، وأن ما بينهم من اختلاف المنازل وتفاوت المراتب وتباين الطبقات ظلمٌ يجب أن يرفع وباطل يجب أن يزال » .

قال عمرو : « إنى لأرى فى هذا شيئاً من حق ، ولكن نفسى تكرهه وتنبو عنه » .

قال الشيخ وهو يقدّم إليه القدح : « اشرب أبا الحكم ! فلا بدّ من أن نستنفد ما فى الزق » . ثم استأنف حديثه فقال : « سيُلقى إليهم أن الناس جميعاً سواء لا يتفاوتون فى الدنيا وإنما يتفاوتون فى الآخرة بما يقدّمون بين أيديهم من العمل ، فمن عمل صالحاً فله جنة لا أدرى

ما هى ، ومن عمل سيئاً فله نار لا أدرى ما هى » . قال عمرو وقد رفع القدح إلى فمه فشرب منه : « وما الآخرة هذه التى تحدثنى عنها ؟ » .

قال الشيخ وهو يصبّ فى القدح ليملأه : « حياة يزعم ابن عبد المطلب أنها كائنة بعد الموت ، وأنها لا آخر لها » .

قال عمرو وقد عبّ فى القدح عبًّا شديداً ، وقدحت عيناه شيئاً كأنه الشرر ، وغشّى وجهه شىء كأنه اللهب ، وانبعث من فمه ضحك قبيح : « حياة بعد الموت لا آخر لها ! هلمّ أبا مرّة اسقنى من خمرك هذه التى كأنها النار ، أو من نارك هذه التى كأنها الخمر . حياة بعد الموت لا آخر لها ! لن تخرج بزّقك وفيه قطرة من شراب . حياة بعد الموت لا آخر لها ! حياة بعد أن نصبح تراباً تذروه الريح ! » .

قال الشيخ وهو يصب فى القدح ليملأه : « اشرب أبا الحكم فإنك لا تشرب خمراً ولا ناراً ، وإنما تشرب بغضاً مذاباً . فأمّا فى حياتكم هذه الأولى فأنتم وعبيدكم وإماؤكم سواء ، ليس لكم عليهم فضل . وأما فى حياتكم تلك الثانية فقد تلقون أنتم فى النار تُصهَر جلودكم وتُحرَق وجوهكم ، ويدخل عبيدكم وإماؤكم الجنة ينعمون فيها بالطيبات وأنتم ترون ! تستسقونهم قطرة من ماء فلا يجودون بها عليكم لأنكم نعمتم فى حياتكم الأولى ، فيجب أن تشقوا وتبتئسوا فى حياتكم الآخرة ، ولأنهم شقوا وابتأسوا فى حياتهم الأولى فيجب أن ينعموا ويبتهجوا فى حياتهم الآخرة . توشك أن تسمع ذلك أبا الحكم ممن

فى دارك ودار أصحابك من الرقيق » .

قال عمرو : « وإن محمداً ليقول هذا للناس ؟ ! » .

قال الشيخ : « نعم ! إنه ليقول هذا للناس ، وإن الناس ليسمعون منه ويؤمنون له ويكثرون من حوله . وإن شئت فاغدُ إلى ابن أبى قحافة فسَله عن ذلك ، وإن شئت فاغدُ إلى زيد بن محمد فسَله عن ذلك ، وإن شئت فاغدُ إلى هذا الصبى علىّ بن أبى طالب فسَله عن ذلك ، فسينبئونك جميعاً بأكثر مما أنبأتك به » .

قال عمرو : « ومن أين لمحمد هذا الحديث ؟ » .

قال الشيخ فى صوت يضطرب اضطراباً فيه الغيظ والخوف معاً : « يزعم أن هذا الحديث يأتيه من السماء ، ينزل عليه به الملك فيُلقيه إليه فى كلام غريب ، يشبه الشعر وما هو بالشعر ، ويشبه السجع وما هو بالسجع » . قال عمرو : « فاقرأ علىّ بعضه » .

ولم يكد الشيخ يسمع هذه الكلمة من عمرو حتى تضاءل وتضاءل ، واربدّ وجهه وأخذته رعدة منكرة ، وقال فى صوت مضطرب بلسان لا يكاد يُبين : « كلا ! كلا ! لا تطلب إلىّ ذلك ، فما ينبغى لى أن أقرأه » .

قال عمرو : « ويلك ! ماذا أصابك ؟ » .

قال الشيخ : « دعنى ! دعنى ! واشرب حتى تُفرغ ما فى هذا القدح ؛ فقد أعلمتك من أمر ابن عبد المطلب ما كان ينبغى أن تعلم ، وما زلت تجهل أكثره ؛ لأن أمر ابن عبد المطلب لم يتجاوز أوائله بعدُ » .

قال عمرو : «وهل تتنزل الملائكة من السماء وتُلقى إلى الناس أخبارها ؟» .

قال الشيخ : «محمد يزعم ذلك ، ويزعمه كذلك نسطاس وورقة ابن نوفل ، ومن قبلهم زعمه أهل الكتاب» .

قال عمرو وهو يعبّ فى القدح عبًّا شديداً : «وما بال السماء لم تختر لأمرها غير محمد ؟ ! أليس فى قريش إلا محمد !» .

قال الشيخ وهو يبتسم ابتسامة منكرة : «كلا ! ليس فى قريش غير محمد ، ليس فيها الوليد ابن المغيرة ، وليس فيها أمية بن خلف ، وليسَ فيها عُتبةُ بن ربيعة ولا شيبة بن ربيعة ، وليس فيها أبو الحكم عمرو بن هشام فتى مخزوم وسيدها !» .

قال عمرو وقد ظهر فى وجهه غيظ شديد : «أمّا إذ قلت ذلك فإن مخزوماً كلها لتبغض هاشماً كلها ، وقد كنت أنقم من بنى أمية تكلفهم وأنفس عليهم جِدّهم فى تجارة قريش وحرصهم على سيادتها ، فأما الآن فلا والله ما أبغض أحداً كما أبغض بنى هاشم ، ولا أجد من الضّغن على أحد كما أجد على فتاهم هذا الذى يسمونه الأمين ! !».

قال الشيخ فى صوت فاتر متكسر : «هوّن عليك أبا الحكم ! فإنك لم تبلُ من بغض هؤلاء الناس إلا أهونه وأيسره ، ولتبلغن العداوة بينك وبينهم أقصاها . فإذا بلغت ذلك فاذكر أن صديقك أبا مرّة ليس منك ببعيد ، وأن زقه ما زال رويًّا يُسبأ للذات فى كل يوم ، كما قال امرؤ القيس» . ثم سكت قليلا ثم استأنف حديثه

فى صوت ضئيل : « قد أوشك الليل أن ينقضى أبا الحكم ، وآذن الصبح بإسفاره ، فَعُد إلى أهلك فقد شققنا عليهم ، ولكنهم لم يعلموا من سهرنا ولا من سمرنا شيئاً » .

قال عمرو : « لم يعلموا من سهرنا ولا من سمرنا شيئاً ! اسقنى أبا مرّة ! فقد حرّمت علىّ النوم من ليلتى هذه » . ولكن أبا مرّة لم يسقه ولم يجبه . وينظر عمرو فلا يرى أحداً ، فينهض متثاقلا وهو يقول : « لم يعلموا من سهرنا ولا من سمرنا شيئاً ! » .

٦

وأصبحت قريش فاجتمعت فى أنديتها حول البيت كدأبها فى كل يوم . وإنهم لفى أحاديثهم وإذا قائل منهم يقول : « انظروا يا معشر قريش هذا والله العجب » . فينظرون فلا يروعهم إلا الوليد بن المغيرة قد أقبل يتوكأ على ابن أخيه عمرو بن هشام باسماً له متحدثاً إليه . يقول بعض قريش لبعض : والله إن للوليد بن المغيرة لشأناً، ما علمناه إلا عنيف الغضب إذا غضب ، بطىء الرضا إذا رضى ، عنيداً إذا خاصم ، وما علمنا ابن أخيه عمراً إلا مثله أنفة وكبرياء ، وقد باعد بينهما ما رأينا وسمعنا من ذلك الخلاف والحوار ، حتى قال الوليد لابن أخيه إنه ابن سوء ، فماذا قرّب بينهما ؟ وأيهما سعى إلى صاحبه ؟

قال شيبة بن ربيعة : « ما أحسب إلا أن الشيخ هو الذى تقرّب إلى ابن أخيه ، وقد رأيت أحد غلمانه يُلمّ بنا فى بعض مجالسنا فيلقى فى أذن أبى الحكم حديثاً قصيراً ثم ينصرف » .

وكانت قريش تتحدث بهذه الألفة بين الرجلين على حين كان الوليد وابن أخيه يطوفان بالبيت . وكان الوليد يطوف كما تعود غير آبه ولا مكترث ، وإنما هو عبء يُلقيه عن نفسه كعادة الملأ من قريش

إذا غدوا على أنديتهم بالمسجد من كل يوم . ولكن عمراً كان يطوف فى هيئة لفتت إليه أشراف قومه ، فيها كثير من الاجتهاد والاحتفال ، وفيها كثير من التواضع والتضاؤل ، وقد ظهر على وجه الفتى شىء من الإيمان بما كان يفعل والصدق فيه ، حتى قال بعض قريش لبعض : « والله لقد دعا أبو الحكم إلى سنة قومه واجتهد فيها ، وما نرى إلا أن قد ذهب عنه ما ألفنا عنده من السخرية بكل شىء والازدراء لكل شىء » .

حتى إذا فرغ الرجلان من طوافهما أقبلا فسلما وجلسا ، ولم يجرؤ أحد أن يدخل فيما كان بينهما من نفور ، وفيما استأنفا من تواصل ومودة ، وإنما أخذوا فى المألوف من أحاديثهما كأن لم يكن بينهم شىء . حتى أقبل النضر بن الحارث مهرولا ، فطاف بالبيت عجلاً أشد العجلة ، حتى لاحظ الملأ ذلك ، فقال بعضهم لبعض : إن للنضر اليوم لحديثاً يريد أن يُلقيه إلينا ، ألا ترونه يعجل بطوافه أشد العجلة ! وقد كان للنضر حديث يريد أن يُلقيه إليهم حقًّا ، فما كاد يفرغ من طوافه حتى أقبل إليهم مسرعاً ، فسلم وأخذ مجلسه . وابتدره عمرو بن هشام قائلا فى دعابة حلوة : « ما وراءك يا نضر ؟ هات فوالله إن لديك حديثاً تريد أن تلقيه إلينا » .

قال النضر : « وأى حديث ! ألم تعلموا أن قد حدث لبنى عبد المطلب شأن ؟ ! » . قال الوليد : « وما ذاك ؟ » . قال النضر وهو يضحك : « ظهر فيهم نبىّ هذه الأمة يتلقى أخبار السماء فيبلغها

إلى الناس » . قال عمرو بن هشام مسرعاً : « وهذا النبي هو محمد ؟ ! » .
قال النضر : « هو محمد والله ! لقد كنا نعجب لما كان يُروَى لنا من أخبار عبد المطلب حين أُمِر في المنام أن يحتفر زمزم وحين خاصم قومه فيها ففُجِّر له الماء تفجيراً ، وحين قام مقامه من صاحب الفيل ، وحين فادى بابنه ذاك فداءه المعروف . ووالله لقد كنا نَعجبُ لما كان الناس يحدّثوننا به من أمر حفيده محمد بن عبد الله ذاك الذى فودى به فلم يمهله الموت فى مكة إلا ليدركه فى يثرب مُنصرَفه من الشام ؛ فقد كانوا يحدثوننا عن هذا الفتّى بالعجب من الحديث حين كان صبيًّا يُنشَّأ ، وحين كان غلاماً يشبّ ، وحين كان فتى يستكمل رجولته وقوته ، ولقد كنا نحبه ونُكرمه ونُؤثره بخير ما عندنا من المودة والمعروف ، حتّى سميناه الأمين ورجعنا إليه فى كل ما كان يَحزُبنا من الأمر . وما أرى إلا أننا قد أغريناه وأبطرناه ، فهو الآن يستأنف سيرة جَده عبد المطلب ولا يدعُ الناس يتحدثون عنه بالأعاجيب ، بل يتحدث هو بها عن نفسه ، فيزعم أن الملائكة تتنزل عليه بأحاديث السماء ، وأنه قد أُمِر أن يبلغ هذه الأحاديث إلى الناس ويدعوهم إلى بِدْعٍ من الأمر والله ما سمعنا به فى آبائنا الأولين » .

قال عمرو بن هشام وقد ظهر فى وجهه غيظ شديد : « إيه ! وربّ هذه البنيّة[1] لقد أغريتموه وأبطرتموه . وما أكثر من تُغرون ومن

(١) البنية : الكعبة .

تبُطرون ! وما أرى إلا أنكم ستلقوْن من هذا كله شططاً . أفلمْ أكن أحدثكم منذ أيام يا شيبة بن ربيعة بأمر نسطاس وأمثاله من هؤلاء الأعاجم الذين تمدّون لهم أسباب العيش ، وتيسرون لهم ما تعسَّرون على غيرهم من العرب ؟ ! ألم أكن أذكر لكم أن هؤلاء الأعاجم ما هم إلا عيون قيصر علينا ، يَفدون علينا تجاراً ، ويقيمون بين أظهرنا أحراراً ، يقولون لنا ويسمعون منا ، ويذيعون فينا البدع ، ويكيدون لنا الكيد ، ثم ينصرفون عنا وقد أخذوا من أموالنا ما أرادوا ، وعلموا من أمرنا ما أحبوا ، وأذاعوا فينا من مذاهبهم وآرائهم ما لا عهد لنا به ؟ ! فهؤلاء هم الذين أفسدوا علينا زيد بن عمرو ، وورقة بن نوفل وغيرهما من كرام قومنا . وما محمد إلا أحد هؤلاء » .

قال الوليد بن المغيرة : « على رِسْلك يابن أخى ! إنك لمجتهد فى النعى على هؤلاء الروم ، ولقد كنتَ أشدنا لهم معاشرة ، وأكثرنا لهم مخالطة . ولقد نهيتك عنهم وعن نسطاس منهم خاصة ، فلم أكن أرى منك إلا نأياً وازوراراً . ولا والله ما أعلم أن محمداً كان يختلف إلى نسطاس أو إلى أشباه نسطاس ، كما كنتم تختلفون إليه وكما تختلفون إلى أمثاله من تجار الروم ، وما علمت من أمره إلا خيراً . إنه لأفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خُلقاً ، وأكرمهم مخالطة ، وأحسنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً وأمانة ، وأصدقهم حديثاً ، وأبعدهم من الفحش والأذى ، وما رُئى مُلاحياً ولا ممارياً أحداً ، حتى سميناه الأمين لمّا تبينا فيه هذه الخصال . فإن كان قد جاء بما يحدثنا النضر أنه قد جاء

به ، فلا أحب أن أعجلَ فى أمره . وما أظن أنه يريد أن يُدخل على قومه سوءاً . وإنه لأبرّ الناس بقومه ، وأوصلهم رحماً ، وأقربهم لهم مودة ، فاستبينوا أمره قبل أن تقولوا فيه بما لا تعلمون » .

قال عتبة بن ربيعة : « وكيف علمتَ ما علمتَ من أمره يانضر ؟ » .

قال النضر : « علمتُ ذلك من بعض الذين صبَوْا إليه واستجابوا له . ألم يحدثنى أخو جُمَح عثمان بن مظعون أنه قد جلس إليه ، فبينما هو جالس معه إذ رآه يرفع رأسه إلى السماء ثم ينحرف عنه ساعة ثم يعود إليه . فلما أنكر عليه ذلك قال له : إن الملك قد نزل علىّ من السماء فأوحى إلىّ أمر الله . فلما سأله عن أمر الله هذا ، تلا هذا الكلام الذى حفظه عثمان واستجاب له ، وحفظته أنا ولم أستجب له ، ولكنّ فى نفسى منه شيئاً » .

قال عمرو بن هشام، وقد ذكر فى سرعة غريبة أن صاحبه أبا مرة لم يستطع أن يتلو عليه شيئاً مما كان يوحَى إلى محمد ، وإنما عجز عن ذلك وتضاءل له وأدركه منه رعب شديد — قال عمرو بن هشام : « فاقرأ علينا يا نضر ما سمعت وحفظت » . فتلا النضر هذه الآية : (إنّ الله يأمرُ بالعدْل والإحْسان وإيتاء ذى القرْبَى وَيَنْهَى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكمْ لعلكمْ تذَكَّرُونَ) . قال الوليد وقد سمع القوم فأعجبوا وأطرقوا برءوسهم إلى الأرض : « صدق والله محمد وبرّ . أقسم ما جاء قومه إلا بخير . ماذا تنكرون من هذا ؟ وهل فينا من لا يحب العدل والإحسان ! وهل فينا من يكره إيتاء ذى

القربى ! وهل فينا من يحب الفحشاء والبغى ! ! أما والله لو جاء محمد قومه بمثل هذا دائماً لكان أعطف قومه عليهم وأرأفهم بهم وأهداهم إلى سبيل الخير » .

قال عمرو بن هشام فى شىء من الحدّة يريد أن يكظمه : « ويحك يا عم ! لقد كنتَ تأمرنا آنفاً ألا نعجل فى أمر محمد حتى نستبينه ، فإنى أراك تعجل فى أمره قبل أن تستبينه ! إنك لم تسمع من أمره إلا ما حدثنا به النضر ، ولو قد سمعت من أمره ما سمعت أنا لقلت فيه غير ما تقول الآن » .

قال الوليد : « ماذا سمعت يابن أخى ؟ » . قال عمرو : « سمعت أنه جاء بما يفرّق به بين المرء وزوجه ، وما يفرق به بين الأب وابنه ، وما يفرق به بين المرء وأخيه ، جاء بالمساواة بين السيد والعبد ، وبين القوى والضعيف ، وبين الغنى والمعدم ، بل جاء بما يُلقى فى روع الضعفاء والأذلة من الناس أنهم خير من ساداتهم وأرفع منهم عند الله مكاناً ، بل جاء بما يُلقى فى روع الناس أن ليس لهم إلا إله واحد يجب أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وأن آلهتنا هؤلاء الذين هم وسطاؤنا عند الله باطل لا يملكون لأنفسهم ولا يملكون لنا نفعاً ولا ضراً . أفيعجبك هذا يا عم ؟ ! » .

قال الوليد وقد ملكه رعب شديد شاع فى غيره من الملأ وقد رفع يديه فجعلهما أمام وجهه كأنما يحتمى بهما من هول ما سمع : « أما هذا فلا » يقولها ثلاثاً ، ويقولها الملأ معه كلما قالها .

قال النضر : « فروا رأيكم يا معشر قريش ! فقد جاءكم ابن

عبد المطلب بأمر عظيم » .

قال عمرو بن هشام . « وأى رأى تريد أن نرى ؟ إنه والله الهول ، فإن لم تغلبه غلبنا . والله لنأخذنّ عليه الطريق ، ولنسدن عليه المسالك ، ولنحمين منه دين قريش وسلطانها وسيادتها على العرب » .

قال الوليد : « هو ذاك يابن أخى ، ولكن لا تعجلوا على صاحبكم وانتظروا به حتى يبين لكم أمره جلياً » .

قال عمرو : « ننتظر به حتى يفسد علينا أمرنا ، وحتى نحاول الإصلاح فلا نجد إليه سبيلا ! لا والله لا نَظِرَةَ ولا إمهال ، وإنما هو السعى والاستقصاء منذ الآن ، والسؤال عن أمر محمد عند من عرفه من قريب ومن عرفه من بعيد ، ومن يلوذ به من أتباعه إن كان له أتباع ، ومن يحفّ به من بنى هاشم » .

قال القوم فى صوت رجل واحد : « هذا والله الرأى ياأبا الحكم لا أرى غيره ، لنسعينّ ولنستقصينّ ، ولنسألنّ عن أمر محمد القريب والبعيد » .

وتفرّق القوم وفى صدر كل واحد منهم همّ ثقيل . ولا يكاد عمرو بن هشام يبعد عن المسجد قليلا حتى يرى حليفه ذاك الأعرابى فجأة ، لا يدرى أَنَجمَ له من الأرض أم هبط عليه من الجو ، ولكنه يراه قد وضع يده على كتفه وهو يقول : « وَرِيَتْ(١) بك زنادى ؛ لقد سُدْتَ قومك وملكت أمرهم ، فلن يخالفوك فى شىء منذ اليوم » .

---

(١) ورت الزناد ووريت : اتقدت وخرجت نارها . وتقول لمن أعانك ونصرك : « وريت بك زنادى » .

٧

وأقام رسول الله فى قومه دهراً لا يعرض لهم بشىء يكرهونه ، ولا يلقونه بشىء ينكره ، وإنما يدعوهم إلى كلمة الحق ، ويذيع فيهم البر والمعروف ، ولا يجلس إلى أحد منهم إلا قال له خيراً أو دعاه إلى خير ، وقريش ترى منه ذلك ، فتحمد حبه للعافية ، وسعيه بالخير ، ولقاءه للناس بما يرضون . وقريش تسمع دعوته إلى الله ، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، فيستجيب له من أشرافها القليلون ، ويستجيب له الكثيرون من الفقراء والمستضعفين وأهل البؤس والضر . وهو يسوى بين أولئك وهؤلاء فى حبه لهم وبرّه بهم وعطفه عليهم ، لا يفرّق منهم بين الغنى والفقير ولا بين ذى النفر والقوة ومن لا عون له ولا ظهير ، إنما هم جميعاً إخوانه وأبناؤه ، قد أحبهم فى الله والخير ، وأحبوه فى الله والخير . والملأ من قريش يرون ذلك فيعرفون بعضه وينكرون بعضه : يعرفون دعوته إلى البر والمعروف ، وسعيه بين الناس بالخير ، ويعرفون أنه لا يؤذيهم ولا يريدهم بسوء ، ولكنهم ينكرون إيثاره للصغار والبائسين وتتبعه لهم بالود والبرّ والتكرمة ، ويقول بعضهم لبعض : لئن اتصل هذا من محمد لَيُفسِدنّ علينا الناس ، ولَيطمِعنّ فينا ضعفاءهم ،

وليُصْبِحن أحدنا فإذا عبيده وإماؤه وأتباعه ومواليه يطلبون إليه أن يلقاهم من الخير والبر والمساواة بمثل ما يلقاهم به محمد ، ويومئذ لا يستقيم لقريش أمر . ثم يقول بعضهم لبعض: ولكن محمداً لم يَبغِكم شرًّا ، ولم يقدّم إليكم مساءة فى عادة أو دين ، إنما هو يأتى المسجد كما تأتونه ، ويطوف بالبيت كما تطوفون به ، ويسعى فى أمره كما تسعون فى أموركم ، ولكن له مع ربه ومع الناس مذاهب لا تذهبونها ، وسيرة لا تسيرونها ، فلا سبيل لكم عليه حتى يباديكم بما تكرهون . فيغيظ ذلك منهم عمرو بن هشام ويلقاهم بالشدة والحدة والمنكر من القول ، يقول : «والله يا معشر قريش إنه للعجز ، وإنكم لتخافون من ظلالكم . إنكم لتكرهون من محمد مثل ما أكره ، ولكنكم تخافون أن تُبادوه بما فى نفوسكم فيباديكم بما فى نفسه ، فيظهر الشر بينكم وبينه ، ويغضب له بنو هاشم وبنو عبد مناف ، فتكون الحرب . وما عرفت أبغض منكم للحرب ، ولا أشد منكم لها تهيباً ومنها إشفاقاً» .

يقول قومه : «لا تجهل أبا الحكم ! فما عرفناك جهولاً ، وما علمنا أن بينك وبين محمد شرًّا» . فيجيب : «واللات والعزى ما أنا بالجهول ! ولقد أسرفت على نفسى كما أسرفتم على أنفسكم فى الحلم ، وإن بينى وبين محمد للشرّ كل الشر ، وإن بينكم وبينه للشر كل الشر ، ولكنى أرى ما لا ترون ، وأعلم ما لا تعلمون» .

فيضحك عمه الوليد بن المغيرة ويقول : «ويح قريش من هذين الفتيين ! أحدهما يأتيها بأخبار السماء ، والآخر يرى ما لا ترى ويعلم

ما لا تعلم . والله ما أدرى ماذا ألمّ بهذا الحرم وقد كان آمناً ! »

وفى ذات يوم امتلأت مكة بحديث كان له فى قلوب الناس جميعاً وقع غريب ؛ فقد تحدثوا أن رسول الله خرج من صمته ودعا إليه أشراف قريش ، فلما اجتمعوا إليه عرض عليهم ديناً جديداً فيه التوحيد ، ووعدهم إن سمعوا له واستجابوا لدعوته أن يكون لهم شرف الدنيا والآخرة ، وأنذرهم إن أبَوْا عليه وأعرضوا عن دعوته أن يستقبلوا عذاباً مبيناً مهيناً يَلقَوْنَ صَدْراً منه فى حياتهم الأولى ، ثم يخلدون فيه بعد الموت إلى غير غاية ولا أمد . وتحدثت قريش بأن عمه أبا لهب كان أول من ردّ عليه فكذّبه وآذاه ، وتفرّق الناس عنه ولم يقل له أحد غير عمه شيئاً .

تحدثت بذلك قريش نهارها كله وشطراً من ليلها ، ثم أصبحت فتحدثت به ، ثم أمست فخاضت فيه ، ثم جعلت لا تصبح ولا تمسى إلا كان محمد لها حديثاً . وجعل عمرو بن هشام يُلمّ بأندية قريش فى المسجد وبمجالسهم فى الدّور والمتاجر ، ويخرج إلى الظواهر فيلمّ بأندية البادين منهم ، يقول لأولئك وهؤلاء : « أترون يا معشر قريش إلى محمد وقد ألقى القناع ، ودعاكم جهرةً إلى ما كان يدعوكم إليه سرًّا ؟ ! وإنى أحلف باللات والعزّى لو أخفتموه حين كان يذيع مقالته فيكم خفية لما اجترأ على أن يفجأ الملأ منكم بما فجأكم به ، فخذوا حذْرَكم ورَوْا رأيكم ، واجتهدوا لأنفسكم . فكأنى بمحمد قد أفسد عليكم ضعاف الناس فى مكة ، وكأنى به قد أفسد عليكم

العرب وأغراهم بكم وأطمعهم فيكم . وايمُ الله لَتقتلُنّ محمداً أو لَيقتلنكمْ جميعاً » .

فيجيبه أشراف الناس وذوو الأسنان والمكانة فيهم :

« إن ما تقوله لحقٌ يا أبا الحكم ، ولكن الأمور لا تؤتَى بهذا العنف ولا تعالج بهذه العجلة . إن لمحمد فينا لمكانة وشرفاً ، وإن له من قومه لعزًّا ومَنعةً ، وإن لبنى هاشم وبنى عبد مناف لبأساً وقوة ، فما ينبغى أن نعرض لمحمد بمكروه حتى نُعذِرَ فيه ، وما نحب أن تسفك قريش دماءها بأيديها ، وإنما ندعو محمداً فنقول له ونسمع منه لعلنا نصرفه عن هذا الذى هو ماض فيه ، فإن لم يقبل منا رأينا فيه رأينا » .

فيرفع عمرو بن هشام كتفيه ساخراً ، ويهزّ رأسه مستهزئاً ويقول :

« شيوخ قريش وذوو الأسنان والأحلام فيها ! ويلٌ لقريش من الأسنان والأحلام ! » . فلما أكثر من ذلك وأثقل على عمه الوليد وعلى مشيخة قريش قال له عمه : « على رِسْلك يابن أخى ! إنك لتمادى فى الجهل من يوم إلى يوم ، وإن وجهكَ هذا الرائع ، ولسانك هذا الذَّرِب الفصيح لن يغنيا عن قريش شيئاً إذا قطعت أرحامها وسفكت دماءها ، ولم ترعَ لهذا البيت مكانه ، ولا لهذا الحرم حقه » .

ثم اجتمع الملأ من قريش فدعوْا رسول الله إليهم ، فلما جاءهم قالوا له فأكثروا القول ، عرضوا عليه المال فردّ عليهم المال ، وعرضوا عليه الشرف والسيادة فرد عليهم الشرف والسيادة ، وعرضوا عليه

الملك والسلطان فردّ عليهم الملك والسلطان ، وعرضوا عليه الطب إن كان مريضاً فرد عليهم الطب وقال : ما أنا بمريض . ثم قال لهم رسول الله فدعاهم إلى الله ، وحبب إليهم الخير ، وزيّن لهم البر ، وبين لهم أن آلهتهم لا تغنى عنهم من الله شيئاً ، ووعدهم شرفَ الدنيا والآخرة إن صدّقوه ، وأنذرهم خزى الدنيا والآخرة إن كذّبوه ، فتفرّقوا عنه ولم يظفروا منه بشىء ، ولم يظفر منهم بشىء ، ولكنهم انصرفوا عنه وفى قلوبهم من الخوف والفرَق ما لا يكادون يخفونه ، وانصرف عنهم وفى نفسه من الثقة واليقين ما يملأ قلبه إيماناً وتثبيتاً .

واستأنف عمرو بن هشام سعيه فيهم وإلحاحه عليهم ، يغريهم بمحمد مجتمعين ، ويغريهم به متفرقين ، يسعى إليهم فى أنديتهم ويلمّ بهم فى بيوتهم ، فيناجيهم فى بغض محمد ويخوّفهم منه ويؤلبهم عليه . وأبو مرّة من ورائه يُقوّيه وَيشدّ أزْرَه ، ويساقيه البغض والحسد لمحمد حين يخلوان إذا تقدّم الليل . حتّى زار ذات يوم أمية بن خلف فرآه محزوناً مكروباً ، قال : « ويحك أبا على ! إنى لأراك كاسف البال كئيب النفس » .

قال أمية : « إن كنتَ لصادقاً يا أبا الحكم فى كل ما خوفتنا من محمد وما صوّرت لنا من أمره » .

قال عمرو وهو يبتسم : « وما ذاك يا أبا على ؟ » . قال أمية : « لقد دخل بيتى من محمد شرّ » . قال عمرو وهو يضحك : « أوَ أصابك الغيث ؟ » . قال : « نعم ! هذا عبد من عبيدى بلالُ

ابن رَبَاح تبع محمداً، فهو يصلى كما يصلى محمد ، ويدعو بدعوته ويعتل عليّ فيما لم يكن يعتل عليّ فى مثله من قبل ، ويوشك أن يُفسد عليّ رقيقى كلهم إن استأنيت به » .

قال عمرو : « ولمَ تستأنى به ؟ » . قال أمية : « إنها الرحمة والبقيا يا أبا الحكم ، فما تعودت قتل الرقيق . وإنى لأرجو أن أستصلحه فيعود عليّ منه نفع » .

قال عمرو : « لا تقتله ولكن عذّبه حتى يثوبَ إلى ما تحب ، وحتى يكون مثلاً لغيره من غلمانك وإمائك ومواليك » .

ومنذ ذلك اليوم بدأت محنة بلال رحمه الله ، فسامه أمية من العذاب ألواناً وألواناً ، وكان يأتى به فى اليوم القائظ وقد أجاعه وأظمأه حتى يكاد يهلك فيلقيه على الأرض قد قيد وشدّت يداه إلى ظهره ، ويعمد إلى الحجر الضخم الثقيل فيضعه على صدره ويقول : لتَهلكنّ أو لتَرفضَنّ ما تابعت محمداً عليه ؛ فلا يزيد بلالٌ على أن يقول : « أحدٌ ! أحد ! » . حتى مر أبو بكر رحمه الله بأمية ذات يوم وهو يصنع ببلال ذلك ، فرقّ أبو بكر ، وكان رقيقاً ، ونهى أمية فلم ينته، فاشترى بلالاً وأعتقه . وسنّ أبو بكر رحمه الله هذه السنّة . فكان بينه وبين عمرو بن هشام صراع رائع حقّاً ، يغرى عمرو بن هشام سادة قريش بتعذيب من يسلم من رقيقهم ، ويعلم أبو بكر ذلك فيسعى فى شراء هؤلاء الرقيق وإعتاقهم ليعبدوا الله أحراراً ، حتى أنفق فى ذلك صفوة ماله وكان غنيّاً .

وقد رأى عمرو بن هشام أن تعذيب الرقيق يسوء محمداً وأصحابه ، ولكنه لا يمنع كلمة الله أن تنتشر ، ولا دين الله أن يظهر ، فأخذ يغرى أشراف قريش بفتنة الأحرار من المسلمين وتعذيبهم ، حتى يرجعوا عن دينهم ، وحتى يكونوا مثلاً يخوّفون بهم غيرهم من الناس . ولكن هذه الفتنة وإن شقّتْ على محمد وعلى أصحابه لم تمنع كلمة الله أن تنتشر ، ولا دين الله أن يظهر . وجعلت الأمور تجرى فى مكة على هذا النحو ، يشتد عمرو بن هشام وأضرابه فى إيذاء محمد وأصحابه والإغراء بهم ، فلا يزيد ذلك كلمة الله إلا انتشاراً ، ولا يزيد ذلك دين الله إلا ظهوراً . وقد عرف الناس فى تاريخهم كله أن لن يُخدَمَ رأى ولا دين بمثل اضطهاد أصحابه وفتنتهم . وقد كثر أصحاب محمد من الرجال والنساء ، من الأغنياء والفقراء ، من الأحرار والرقيق ، وقد ائتلفوا حوله يلقاهم مصبحاً وممسياً ، فيدعوهم ويعلمهم ويبشرهم، ويُنذرهم ، يجتمعون حوله مخلصين له مصدّقين لما جاء ، ويتفرقون عنه داعين إلى ما يدعو إليه من الخير ، ثم يعودون إليه وقد زاد عددهم الرجلَ أو الرجالَ . وعمرو بن هشام لا يزداد لذلك إلا غيظاً ، حتى ساء خُلقه وقبحت سيرته واستهتر بالدعوة إلى الفتنة والإغراق فيها ، فعرف بين المسلمين بأبى جهل ، لأنه صورة للجهل والحمق والغضب الذى لا يُبقِى على شىء . وكان أبو جهل مع ذلك جباناً رِعْديداً إذا اتصلت أسبابه بأسباب محمد من قريب أو بعيد . كان يُبغض محمداً بغضاً مروعاً لم يعرف الناس مثله ، وكان

يخاف محمداً خوفاً يضحك منه أحب الناس له وأعطفهم عليه.

وكان أبو جهل على ذلك كله قد حُرم التوفيق فى كل ما كان يأتى من الأمر ، لحكمة أرادها الله وأمرٍ قدّره ؛ فكان يُقدم على الأمر يظن أن فيه الإيذاء لمحمد والنيل منه والغض من قدره والصد عن سبيله ، فلا يكاد يأتى ما يأتى حتى ينقلب عمله خيراً لمحمد. لقى محمداً ذات يوم فأفحش له بالقول وآذاه فى نفسه إيذاء شديداً ، وانصرف عنه رسول الله لم يقل له شيئاً : لأن الله قد أدّبه بأن يأخذ العفو ويأمر بالعرف ويُعرض عن الجاهلين . وشهدت ذلك مولاة لعبد الله بن جُدعان ، فأنبأت به حمزة بن عبد المطلب مَرْجِعَه من الصيد ، فَحَمِىَ حمزة لما سمع ، ومضى إلى المسجد حتى غَشِىَ أبا جهل فى ناد من أندية قريش فضربه بقوسه فشجه شجّة فاحشة . وهمّت مخزوم أن تغضب لفتاها ، فيقول أبو جهل لقومه مستخذياً : « دعوا أبا عمارة فقد أفحشت لابن أخيه » . وينصرف حمزة من ساعته فيأتى ابن أخيه محمداً فيسْلم ويصبح أسدَ الله .

ولم يُنكبْ أبو جهل فى تلك الأعوام بمثل نكبته فى ابن أخته حنتمة بنت هشام ؛ فقد كان عمر بن الخطاب فتًى أروع من فتيان قريش ، فيه شدة لم تعرف قريش مثلها إلا فى خاله عمرو ، وكان يمالئ خاله ممالأة شديدة ، فيغرى بالمسلمين ويشتد عليهم ، حتى خرج ذات يوم متوشحاً سيفه يريد أن يبطش بمحمد نفسه ؛ ولكنه يعلم فى طريقه إلى محمد أن الإسلام قد دخل داره ، وأن

أخته قد أسلمتْ ، فيعدل إلى أخته فيبطش بها حتّى يسيل الدم من وجهها ؛ ثم تأخذه الرحمة فيرقّ لأخته ويلطف لها حتّى تقرئه بعض ما كان يُتلى عندها من القرآن . فلا يكاد يقرؤه حتّى يدخل الإيمانُ فى قلبه ، وإذا هو يسعى إلى محمد فيسلم ، ثم ينصرف إلى خاله فيطرق عليه بابه . فإذا رآه خاله رحب به ترحيب المحب لابن أخته الممالئ له على أعداء قريش . ولكن عمر ينبئ خاله بأنه قد جاء يعلن إليه أنه قد شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فيردّه أبو جهل أقبح ردّ ، ويضيق بما أصابه فيه أشد الضيق . وقد سبق النبأ بإسلام عمر إلى المسجد، فتعلم به أندية قريش فيروعها ما تعلم من ذلك . ويأتى عمر فينهض له القوم يساورونه ويساورهم ويقاتلونه ويقاتلهم، حتّى صلى وصلى بعده المسلمون جهاراً .

واشتد أمر المسلمين على قريش ، واشتد أمر قريش على المسلمين ، حتّى أذن النبى لأصحابه فى الهجرة ، فهاجر فريق منهم إلى أرض الحبشة حيث استطاعوا أن يعبدوا الله أحراراً ، وأقام الآخرون يدعون إلى الله بين أظهر قريش يلقون فى ذلك من الشدة والعنت ما يلقون . وخلا أبو جهل إلى صديقه أُبَىّ مرّةً ذات ليلة يتساقيان البغض والحسد لمحمد كما كانا يصنعان ، ويستقصيان ما بلغت بهما خصومتهما لمحمد وأصحابه ، فيقول أبو جهل لصاحبه : « أحلف باللات والعزّى ما بلغنا من ابن عبدالمطلب وأصحابه شيئاً ، نفتنهم فى أنفسهم وأجسادهم وأموالهم فلا تزداد دعوتهم إلا انتشاراً ، ولا يزداد أمرهم إلا ظهوراً . إن أتباع محمد ليكثرون بين

أظهرنا ؛ وهذا دينهم قد خرج من مكة فاستقر فى أرض الحبشة ، ووجد أصحاب محمد هنالك عزًّا ومَنعةً وجواراً .

قال أبو مرّة وهو يقدّم القدح إلى عمرو : « اشرب أبا الحكم وَرِيتْ بك زنادى ! لقد أبليتَ فى جهاد محمد أحسنَ البلاء ، ولكن قومك لا يبلغون من نصرك وتأييدك ما ينبغى أن يبلغوا . إنهم يخافون الحرب ، ولو قد ثاروا بمحمد فقتلوه لكفّوا أنفسهم شرًّا عظيما . ولكن أبا طالب يقوم دون محمد ومعه فتيان بنى هاشم فتكره قريش أن تُسفَك دماؤها بأيديها . إنهم يُبقون على محمد، وليأتين يوم يقتّلهم فيه محمد تقتيلا إلا أن يسبقوا إليه بالموت » .

وغدا أبو جهل على قومه ثائراً ثورة لم يعرفوا منه مثلها ، حتى أحفظهم وكاد يستخفّ أحلامهم ويُخرجهم عن أطوارهم ، لولا أن قالت مَشيخةُ قريش : « على رسلكم أيها الناس ! لا تعجلوا على قومكم حتى تُعذروا فيهم . لنسعينّ إلى أبى طالب فنسمع منه ونقول له ، لعله أن يُسلم إلينا ابن أخيه أو أن يكفه عنا ؛ فإن لم نظفر منه بإحدى الخصلتين رأينا فيه وفى بنى هاشم رأينا » .

قال أبو جهل : « يا لَلمخزى ! يا لَلمعجز ! أقسم باللات والعزى لتعودُنّ من عند أبى طالب كما تذهبون إليه لم تأخذوا منه شيئاً . ويلكم ! اقتلوا محمداً وافجئوا بموته أبا طالب ؛ فإنه إما أن يخاف كثرتكم وقوتكم فيقبل منكم دِيَتَه ، وإما أن ينهض لحربكم فما أيسرَ ما تردّونه وقومه إلى الصواب » .

ولكن شيوخ قريش لم يسمعوا له ، ونهضوا فمشوا إلى أبي طالب ومشى معهم أبو جهل لا لشيء إلا ليشهد إخفاقهم فيما يسعون إليه . وقد انتهى القوم إلى أبي طالب ، فقالوا له وسمعوا منه ، وطلبوا إليه أن يدعوا محمداً فيكلموه ففعل . وجاء محمد فسمع منهم ولم يقبل مما عرضوا عليه شيئاً . ثم دعاهم إلى الله ، ووعدهم شرف الدنيا والآخرة إن صدّقوه ، وأنذرهم خزى الدنيا والآخرة إن كذبوه ، وطلب إليهم أن يقولوها كلمة واحدة تدين لهم بها العرب والعجم .

قال أبو جهل: « ما هي ؟ نقولها والله وعشراً أمثالها » . قال محمد : « تقولون لا إله إلا الله » . فتفرّق القوم وهم يقولون : « أجَعلَ الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عُجابٌ » . وانصرف أبو جهل ولم يَشمتْ بقومه قط كما شمت بهم هذه المرة ، فهو يستهزئ بذوى الأحلام والأسنان وأصحاب الرأى والمشورة ، يقول : « ما رأيت كاليوم رجلا واحداً يرد الملأ من قريش خائبين مستخذين. فأما وقد بلغ بكم العجز ما أرى وانتهى بكم الجبن إلى ما ترونه فلأكفينكم محمداً ؛ فإن أمر محمد لا يُعالَج بالقول والسفارة ، ولا بالاحتجاج والجدال ، وإنما يُعالَجُ بشيء واحد هو قتل محمد ، ولأقتلنه من الغد بين أيديكم وأنتم ترون ! ولأقتلنه وهو يصلى لإلهه هذا الذى يريد أن نعبده مكان آلهتنا. لآخذن حجراً ضخما ثقيلا فلأشدَخن به رأسه إذا سجد ، فإذا فرغت منه فقوموا دونى إن شئتم ، أو أسلمونى لبنى عبد مناف إن خفتم الحرب» . يقول الملأ من قريش وقد أحفظهم ما رأوا وما سمعوا : « لا والله ما نُسلمك لأحد أبداً » .

ثم غدتْ قريش إلى أنديتها لم يتخلف من أشرافها أحد لما شاع فيهم من وعيد أبي جهل . وغدا أبو جهل وقد أخذ حجراً ضخماً ثقيلا ، فجلس إلى قومه يتحدثّ وينتظر مَقدَمَ النبي . وأقبل رسول الله كعادته وطوّف بالكعبة ثم قام يصلي ، وقد جعل الكعبة بينه وبين الشام ، وقام أبو جهل فاستدبره ومعه الحجر لا يكاد يحمله لثقله ، حتّى إذا سجد رسول الله دنا أبو جهل منه متباطئاً ، ولكنه لم يكد يبلغه حتى عاد منهزماً وسقط الحجر من يده والنبي ساجد لم يرفع رأسه من السجود . وتضاحكت قريش حين رأت أبا جهل يعود إليها مهزوماً مدحوراً قد ظهر فى وجهه الخزى والانكسار . فلما رأى منهم ذلك قال : « ويلكم ! قوموا إليه إن شئتم فاصنعوا به ما أردت أن أصنع ، والله لتَترَدَّنّ عنه كما رُددْتُ » .

قالوا : « وماذا ردّك أبا الحكم ؟ » . قال : « رأيت والله بينه وبيني فحلاً ما رأيت مثل رأسه ولا مثل أنيابه قط . ولو أقدمت على ما كنت مقدماً عليه لأكلني » . وأنبئ رسول الله بالخبر فقال باسماً : « ذاك جبريل . ولو قد أقدم على ما كان يريد لأخذه » .

وخلا أبو جهل إلى صديقه أبي مرة حول زقّهما ذاك ؛ فقال أبو جهل لصاحبه فى شيء من الخزى واللوم : « ما أراك أغنيت عنى شيئاً صباح اليوم . إنك لههنا تغريني وتحرضني وتيسر علىّ الأمر وتمنيني الأماني حتى إذا جدّ الجدّ نظرتُ فلم أجدك ، وخليت بيني وبين الهزيمة والخزى ، وأضحكتَ مني من كنت أستهزئ بهم من شباب قريش وشيوخها جميعاً » .

قال أبو مُرّة وهو يملأ له القدح : « اشربْ أبا الحكم على بغض محمد ؛ فقد علمت أن رجلا واحداً لن يبلغ منه شيئاً ، وأن رجلين اثنين لن يبلغا منه شيئاً ، وأن رجالا كثيرين لن يبلغوا منه شيئاً حتى تُجمع قريش كلها على قتله ، فيومئذ تبلغ قريش ما تريد . فإلى هذه الغاية فاسع منذ اليوم » .

ولم يقصر أبو جهل فى السعى إلى غايته تلك التى رسمها له حليفه الأثيم ، وإن كان قد أمسك أياماً عن الإلمام بأندية قريش ، كان خجلا مستخذياً من انهزامه ذاك عن محمد ، ومن قصة الفحل التى تحدث بها إلى قومه ، فأظهروا التصديق ولكنهم ظنوا بشجاعته الظنون ، وأخذوا يتعابثون به وبقصة الفحل كلما أحدث لهم منه ذكراً . وتريد شقوة أبى جهل ذات يوم أن يدخل المسجد أعرابى ، فيقف على بعض أنديتهم يستعين بهم على سيد من سادات قريش قد اشترى منه إبلا ثم التوى عليه بثمنها لا يؤديه إليه ، فإذا سئل الأعرابى عن هذا السيد من يكون قال : هو أبو الحكم عمرو بن هشام ، فيتضاحك القوم ويقول بعضهم للأعرابى : أترى إلى هذا الرجل الوسيم الصبيح قد جلس من البيت غير بعيد ! إنه وحده الذى يستطيع أن يُنصفك من عمرو بن هشام ، فاذهب إليه فستجد منه عوناً وتأييداً حتى ترضى . وكان هذا الرجل الوسيم الصبيح محمداً رسول الله ، فيذهب إليه الأعرابى والقوم مُغرقون فى الضحك قد سخروا منه وخيل إليهم أنهم قد سخروا من رسول الله . وأقبل الأعرابى على محمد (صلعم) فاستعانه واستنصفه . وينظر الملأ من قريش ، فإذا

محمد قد قام ، وإذا هو يمضي والأعرابي يتبعه ، فيقولون لأحدهم اتبعهما وعُدْ إلينا من أمرهما بما يكون . ومضى محمد والأعرابي وراءه ورسول قريش يرقبهما من بعيد . حتى إذا بلغ محمد دار أبي جهل طرق الباب ، فخرج إليه عمرو بن هشام ووجهه مُتقَعٌ ما فيه قطرة دم . قال محمد : « أدِّ إلى هذا الرجل حقه ». قال أبو جهل : « نعم ! لا تبرح حتى يرضى » . ودخل داره ثم عاد فأدى إلى الرجل ما له وانصرف راضياً ، فعاد إلى ندىِّ قريش يُثني عليهم ويقول : صنع الله لكم ! لقد أنصفني صاحبكم وما تركني حتى أدى أبو الحكم إليّ حقي . فتعجبُ قريش ويقول بعضهم لبعض : إنه والله الفحل الذي رآه أبو الحكم منذ حين . حتى إذا لقوا أبا جهل فيما بعدُ سألوه فينبئهم : « إنه الفحل كان يسعى بين يدي محمد ، ولو قد التويت بحق هذا الأعرابي لما أنظرني » .

على أن أبا جهل جد في سعيه ، وجدّ النكير بين المسلمين والمشركين واشتد نعي محمد على قومه وعيبه لآلهتهم ، وأنزل الله من القرآن آيات وسوراً كانت تدمغ قريشاً وتؤذي ما كانت تعتز به من الصلف والكبرياء أشد الإيذاء . وقد حاول الملأ من قريش أن يُعطوا محمداً الرضا فلم يقبل منهم إلا الإيمان ، ولم يستطيعوا أن يعطوه الإيمان. وحاول الملأ من قريش أن يخذلوا أبا طالب عن ابن أخيه فلم يزيدوه إلا جدًّا في نصره وحمايته ، حتى استطار الشرّ وعظم الخطب ، ولم يبق بد لقريش من أن تسمع لمشورة أبي جهل وتصير إلى ما كان يريد .

وقد صارت قريش إلى ما أراد أبو جهل وحليفه أبو مُرّة ، فاجتمع

الملأ منهم وكتبوا صحيفتهم تلك يقطعون فيها رحم بنى هاشم ويحظرون فيها على قريش أن يكون بينهم وبين بنى هاشم بيع أو شراء أو صهر أو تواصل ما . وانحاز بنو هاشم مع أبى طالب إلى شِعْبهم فَتَحَصَّرُوا فيه ، حتى اشتدّ عليهم الجهد وَعظم عليهم البلاء ، وحتى جاع صِبْيَتُهم فما يناموں الليل ، ولكنهم مع ذلك صبروا للمحنة كراماً واحتملوها أعزّة شُمّاً. منهم من كان يؤمن لمحمد فهو يصبر طاعةً لله وجهاداً فى سبيله . ومنهم من كان على جاهليته فهو يصبر عصبيّة للحسب والنسب ، وإباء للضيم ، وبغضاً لسوء القالة . ولم يقض أبو جهل أياماً كانت أحب إليه من هذه الأيام ؛ فقد كان سعيداً بظلم بنى هاشم ناعماً بما يلقون من جهد ، قد وجّه قومه إلى حيث يريد فاتّبعوه ، واتبعوه جميعاً لم يكد يخالف عن أمره منهم أحد .

ورضى أبو مرة كل الرضا ، وكان يقول له وهو يساقيه البغض : « إنك لتدنو من الغاية يا أبا الحكم . فأنتم أولاء قد كدتم تُجمعون على قطيعة محمد وبنى هاشم ، وليس بينكم وبين الإجماع على حربه وحربهم إلا خُطوات قصار » .

ولكن أبا طالب يغدو ذات يوم فيدخل المسجد ويطوف بالبيت ، ثم يقف على ناد من أنديتهم فيقول : « يا معشر قريش ! إن ابن أخى قد أنبأنى بشىء سأنبئكم به ، فإن كان قد صدقنى فكفوا عما أنتم فيه من ظلمنا وقطيعتنا ، وإن كان قد كذبنى دفعته إليكم فقتلتموه وعادت العافية إلى قريش » .

قالوا : « أنصفتنا والله يا أبا طالب . فبماذا أنبأك ابن أخيك ؟ » .

قال : « أنبأني بأن صحيفتكم تلك التي تعاهدتم فيها على ظلمنا وقطيعتنا وعلقتموها في جوف الكعبة قد عدَتْ عليها الأرَضَةُ فمحت كل شيء فيها إلا اسم الله ، فاعمدوا إلى صحيفتكم هذه فانظروا فيها » . وعمدت قريش إلى الصحيفة وهي لا تشك في أن أبا طالب قد غُرَّ عن نفسه . ولكن القوم ينظرون إلى الصحيفة فإذا محمد لم يقل لعمه إلا الحق ، وإذا الصحيفة قد مُحِيَ كل شيء فيها إلا اسم الله فإنه لم يمسه سوء . فسُقط في أيدي قريش ، وأخذ الملأ يتلاومون على ما تعجلوا به من وعد أبي طالب بالنَّصفة ، وأخذ بعضهم مع ذلك يقول : « لا والله لا نكذب الشيخ ولا نخلفه وعدنا . ولقد علمنا أن هذه الصحيفة كانت شؤماً ، لقد شلتْ يد كاتبها . ولا والله ما جرَّت علينا القطيعةُ إلا شراً . كيف نأكل ونشرب وننام وننعم بالطيبات ، وإخواننا جياع قد بلغ بهم الضر كل مبلغ ؟ ! » .

واجتهد أبو جهل في أن يجمع قريشاً على القطيعة ويمضي بها فيما أحب من إخلاف الوعد ونكث العهد فلم يفلح ، وإنما انتصر عليه أولو الحلم والمروءة من قومه ، فرُفع الحصار عن بني هاشم ، واستخذى أبو جهل وحليفه أبو مُرَّة ، وعادا يلتمسان العزاء عند زِقهما ذاك الرويّ بنار تشبه الخمر أو خمر تشبه النار .

٨

على أن الحوادث ردّت إلى أبى جهل صَلَفه وخُيلاءه ، وإلى أبى مُرّة شيئًا من أمل وفضلا من رجاء . فقد مات أبو طالب ، وماتت بعده خديجة بقليل ، وفقد محمد ردْأه الذى كان يلوذ به ، كما فقد سكنه الذى كان يأوى إليه ، وأدركته الشدة حين كان يلقى الناس فيطمع فيه سفهاؤهم ويهزأ منه حلماؤهم . وأدركته الشدة حين كان يأوى إلى بيته فلا يجد فيه ما كان يجد عند خديجة من الرحمة والعطف والعزاء . وهمّ عمه أبو لهب أن يقوم منه مقام أبى طالب فيحميه من الأذى ويُجيره من الظلم والبغى . ولكن أبا جهل عرف كيف يردّ أبا لهب عن همه ذاك ، جاءه فقال له : « سَل ابنَ أخيك عن أبيك عبد المطلب أين هو ؟ » . فلما سأل أبو لهب محمداً : « أين عبد المطلب ؟ » أجابه : « بين قومه » . فخرج الرجل راضيًا لايرى بجواب ابن أخيه بأساً . ولكن أبا جهل ضحك له ضحكة الشيطان وقال : « فإنه يزعم أن عبد المطلب وقومه فى النار » . فرجع أبو لهب إلى ابن أخيه يسأله : « أحق ما أنبئتُ به من أنك تقول إن عبد المطلب فى النار ؟ » قال رسول الله : « نعم ! وكل من مات على جاهليته فهو فى النار» . قال أبو لهب : « لا جوارَ لك عندى » . ثم

خرج إلى قريش ، فقال : « اصنعوا بصاحبكم ما تريدون فإنى قد رفعت عنه حمايتى وجوارى » .

منذ ذلك اليوم بلغت الفتنة أقصاها ، وانتهت المحنة إلى غايتها ، وعرف رسول الله أن ليس له بمكة أمن ، فخرج يلتمس الأمن فى الطائف عند ثقيف ، فردّوه أشنع ردّ وأقبحه ، فعاد إلى مكة محزوناً مكلوماً ، واثقاً بالله مع ذلك أعظم ثقة وأقواها . على أنه لم يستطع أن يدخل مكة حتى أرسل إلى مُطعم بن عدىّ فاستجاره فأجاره مطعم ، ودخل مكة آمناً . ولكن أىّ أمنٍ هذا الذى هو مدين به لرجل من غير رهطه الأدنين ! .

وفى تلك الأعوام طغتْ قريش وبغت ، وأسرف أبو جهل فى فرحه ومرحه . وجعل محمد يترقب الموسم يعرض نفسه على قبائل العرب يسألهم أن يحموه ويمنعوه حتى يؤدى رسالات ربه فلا يجد عندهم غناء ، حتى استجاب له الأوس والخزرج ، فأذن للمسلمين فى الهجرة إلى يثرب ، وأخذوا يخرجون من مكة أرسالا . هنالك تنبه أبو جهل وما كان غافلا ، فجدّ فى تحريض قريش وتأليبها لتمنع المسلمين من الهجرة . ولكن لله أمراً هو بالغه ، وقَدَراً هو مُجريه ؛ فقد هاجر أكثر المسمين ، وأقام محمد بمكة ينتظر إذن الله له فى الهجرة ، ومعه صاحبه أبو بكر وابن عمه علىّ . وقد علمت قريش وعلم أبو جهل أنها القوة والمنعةُ لمحمد إن هاجر إلى يثرب ، وأنها الحرب على مكة ومن فيها إن استطاع محمد أن يأوى إلى الأنصار.

وهنا بذل أبو جهل أقصى جهده وغاية ما يملك من قوة ، وآزره حليفه أبو مُرّة فأحسن مؤازرته . واجتمعت قريش فى دار نَدْوتها تتشاور فى أمر محمد ، وحضر اجتماعهم أبو مُرّة ظاهراً لهم فى زيّه ذاك الذى كان يراه فيه أبو جهل . فلما جعل القوم يديرون رأيهم بينهم أخذ أبو مرّة يردّ على كل متكلم كلامه ، حتى قال أبو جهل مقالته فأيّدها أبو مُرة أشدّ التأييد . ولم لا ! لقد كانت مقالة أبو جهل تُبلغه الغاية التى كان يسعى إليها . رأى أبو جهل أن يُنتدب لقتل محمد فتى جَلْد من كل قبيلة من قبائل قريش ، ثم إذا اجتمع هؤلاء الفتيان عَدَوْا على محمد فضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد ، فإذا فعلوا ذلك ذهب دمه بين القبائل ، ولم يعرف بنو عبد مناف عند من يطلبون بدمه . ولكن كيد أبى جهل وأبى مرّة لم يُغن عنهما من الله شيئاً ؛ فقد خرج محمد على هؤلاء الفتيان يتلو آيات من القرآن ، ويضع التراب على رءوسهم ، وغُشيت أبصارهم فهم لا يرونه ، وارتدوا عما أرادوا خائبين ، كما ارتدّ أبو جهل خائباً عن كل ما أراد .

٩

على أن مكة تخلصت لأبى جهل وحليفه أبى مرّة حيناً من الدهر حين هاجر منها محمد وأصحابه . فلم يُعبد اللهُ فيها إلا سراً ، وخفت فيها صوت الحق إلى حين ، وظهر فيها بغى قريش وكبرياؤها كعهدها قبل أن يُشرق فى مكة نور الإسلام . ولكن من بقى من شيوخ قريش وذوى أحلامها كانوا يظنون السوء وينتظرون المكروه ، ولا يشكّون فى أن ستكون بينهم وبين أصحاب محمد خطوب . وقد أخذت هذه الخطوب تتتابع قليلا قليلا ، حتى كان الخطب الأكبر يوم بدر .

هنالك ندب رسول الله أصحابه للخروج إلى تجارة قريش مرجعها من الشام ، لعل الله أن ينفّلهم إياها . فخرجوا ، حتى إذا كانوا فى بعض الطريق عرف أبو سفيان مكانهم فأرسل يستنفر قريشاً لحماية العير ، ونفرت قريش لم يكد يتخلف أحد من أشرافها . وساحل أبو سفيان بتجارته فأحرزها وأمن عليها من محمد وأصحابه ، وأرسل إلى قريش يأمرهم بالرجوع إلى مكة وينبئهم أن قد أمنت العير . ولكن أبا جهل يأبى إلا أن يبلو بلاءه الأخير ، فيقسم لا نرجع حتى نأتى بدراً فنأكل ونشرب ونطرب ونطعم الناس ، ويعرف العرب ذلك فنسترد هيبتنا فى

نفوسهم . وقد استمعت له قريش لا تظن أن عليها بذلك بأساً . حتى إذا بلغوا بدراً والتقى الجمعان ، عرفت قريش أنها الحرب ، ونظرت قريش فإذا محمد وأصحابه لا يكادون يتجاوزون ثلثمائة إلا قليلا . ولكن قريشاً تنظر فترى قوماً مشاة يريدون أن يُحملوا ، حفاة يريدون أن ينتعلوا ، جياعاً يريدون أن يأكلوا ، عُراة يريدون أن يكتسوا ، لا يحميهم ولا يمنعهم إلا سيوفهم ، فيشفق أشراف قريش من هذه البلايا تحمل المنايا . ويسعى عُتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام فى قبائل قريش يحببون إليهم السلم ويدعونهم إلى القفول . ولكن ذلك يبلغ أبا جهل عن عتبة فيقول : « انتفخ والله سَحْرُه[١] » . ويبلغ ذلك عتبة فيقول : « سيعلم ابن الحنظلية أينا انتفخ سحره » ثمّ يدعو بسلاحه ويكون هو وأخوه شيبة وابنه الوليد أوّل من يخرج إلى القتال ، فيقتلون جميعاً . ويزحف القوم بعضهم على بعض وقد سقى أبو مرة نديمه وحليفه كأسه الأخيرة من خمر كأنها النار أو نار كأنها الخمر ، وزين له أن النصر قريب فخرج أبو جهل يرتجز :

ما تنقم الحرب العوانُ منى بازلُ عامين حديثٌ سنى
لمثل هذا ولدتنى أمى

ولكن أبا جهل لا يكاد يقوم حتى يرى هولاً لم ير مثله قط ، وما كان يقدر أنه سيراه آخر الدهر . يرى سحائب بين السماء والأرض

---

(١) السحر : الرئة . ويكنى بانتفاخ السحر عن الجبن ، فيقال انتفخ سحر فلان إذا مل وجبن .

قد أظلم لها الجو ، ومرت كأنها العواصف ، ثم هبطت منها أشخاص قد لبسوا العمائم وألقوا فضلها على ظهورهم ، وركبوا الخيل مسوّمة ، وهم يضربون من المشركين الأعناق ويقطعون منهم كل بنان . وينظر أبو جهل عن يمين وشمال ، وينظر أبو جهل وراءه يلتمس حليفه ونديمه أبا مُرّة ، فإذا هو قد ذاب كما يذوب الملح . هنالك يذهب الغرور كله عن عمرو بن هشام ، ولا يبقى فى نفسه إلا حفاظُ الرجل العربى وكبرياؤه . هو بين اثنتين : إن شاء لوى عنان فرسه فطارت به إلى حيث الأمن ، وإلى حيث السيادة ، وإلى حيث أبو مرة وخمره وكيده ، وإلى حيث العار ، وإن شاء مضى أمامه فأحس الألم ساعة ثم مضى كما يمضى الناس منذ أول الدهر . ولا والله لا تضحك منى قريش ، ولا تحدثنى بحديث الفحل ، ولا تقول قريش إنى ما رأيت محمداً إلا ملئت منه رعباً ووليت فراراً . ثم يُقحم فرسه بين الصفوف ، وإذا هو صريع قد قطعت إحدى ساقيه والدم ينزف منه نزفاً شديداً ، ولكنه مستيقظ يقظة لم يعرفها قط ، يرى كل شىء ، يرى أصحاب محمد يأخذون ظهور قريش برماحهم ، ويرى رجلا قد أقبل يسعى حتى وطئ صدره بقدميه . من يكون هذا الرجل ؟ إنى أعرفه ! لقد فتنته بمكة فتنة شديدة ! إنه الهذلى ابن مسعود راعى الغنم !

ثم يرتفع صوت أبى جهل متحدثاً إلى ابن مسعود رضى الله عنه فيقول : « لقد ارتقيت مُرتَقًى صعباً يا راعى الغنم » . يقول ابن مسعود : « وهل أخزاك الله يا عدو الله ! » . قال أبو جهل : « وبم أخزانى ! وأى

عار على فتى قتلتموه ! ولكن أنبئنى لمن العاقبة ؟ » . قال ابن مسعود : « لله ولرسوله وللمسلين » ، ثم أهوى إليه فاحتز رأسه وحمله إلى النبى . وبعد قليل ألقى قتلى بدر من المشركين فى القليب ، ووقف عليهم رسول الله يقول : « يا معشر قريش ! أرأيتم ما وعدكم ربكم حقاً ! فإنى رأيت ما وعدنى ربى حقاً » . يقول المسلمون : « أتكلم الموتى يا رسول الله ؟ » . فيقول صلى الله عليه وسلم : « والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا ينطقون » .

١٠

أشرف خالد بن الوليد رحمه الله على بدء الزحف العام يوم اليرموك وكان مشرق الوجه مبتهج النفس ، ولكن شيئاً من القلق كان يظهر فى عينيه اللتين كانتا تمتدان فى الأفق كأنما تريدان أن تبلغا ما وراء الجيشين الملتحمين ، ثم تنحرفان إلى يمين مرة وإلى شمال مرة أخرى ، كأنما تريدان أن تتعجلا عواقب الموقعة لتعودا بها إلى نفس القائد العظيم الذى لم يعرف إلا الانتصار ، والذى كان شديد الشوق إلى أن يتبين الموقعة قبل أن تتم وقبل أن تأتيه بها رسله وعيونه .

وكان خالد بن الوليد رحمه الله ينظر إلى هذين الجيشين العظيمين وقد سعى كل منهما إلى صاحبه فى أناة ورزانة وثقل ، حتى ليُخيل إلى من كان يراهما أنهما الجبال المتقابلة يسعى بعضها إلى بعض فى مهل وبطء ، ثم لا يزال بها السعى البطىء حتى تستحيل الأناة عجلة والمهل سرعة ، وحتى يرى الرائى كأنما قد زُلزل كل شىء ، فمادت الأرض ، واضطربت السماء ، وماج الجو ، واختلط كل شىء اختلاطاً هائلا غريباً .

وكان خالد يذكر ما ألف من الحروب فى بلاد العرب ، وما ألف من الغزوات التى شهدها . وكان يذكر ما كان الناس يتحدثون به عن

هول هذه المواقع ، فيبتسم ابتسامة فيها العجب وفيها الرضا . وأكبر الظن أنه كان يوازن بين تلك المواقع اليسيرة وبين هذه الموقعة الهائلة التي لم ير عربي مثلها قط . فقد كانت أكبر جيوش العرب حين يحارب بعضهم بعضاً لا يكاد يتجاوز أحدها الألف أو الآلاف . فلما زحف النبي على مكة بعشرة آلاف من المسلمين أكبرت العرب ذلك وهابته هيبة شديدة . ولم تكد قريش ترى مَقدَمَ هذا الجيش حتى استحالت كبرياؤها فأصبحت تواضعاً وطاعة ، وإذا النبي يسأل قومه : « ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟ » . فلا يدرون كيف يجيبون . فإذا عرفوا أنه العفو قالوا : « أخ كريم وابن أخ كريم » .

ولما بلغ جيش النبي يوم حُنين عشرتين أو ثلاث عشرات من الألوف ظنت العرب أن الجيوش لن تبلغ مثل هذا العدد آخر الدهر . وهذا خالد يقود جيشاً للمسلمين يبلغ العشرات الكثيرة من الألوف إلى جيش من الروم يبلغ العشرات الكثيرة من الألوف .

وقد تغيرت الحرب فلم تصبح كرًّا وفرًّا ومبارزة ومناجزة ، وإنما هي زحف الجبال إلى الجبال ، واختلاط الأرض بالسماء . فلما ملأ خالد رحمه الله عينيه من هذا المنظر الرهيب عاد إلى مجلسه في سُرادق الأمير ، وقد ذكر أن عظيما من عظماء الروم قد انحاز إليه ، وأنه سيلقاه ويسأله عن شأنه . ولم يكد يستقر في مجلسه حتى أذن للعظيم الرومي ، فأدخل عليه ، وإذا شيخ جليل قد تقدمت به السن لولا بقية من نشاط وفضلٌ من قوة ، وإذا هو يحيي خالداً تحية الإسلام في عربية فصيحة يلتوي

بها لسانه بعض الشيء . فيرد عليه خالد تحيته بمثلها . ثم يسأله : « أتتكلم العربية أيها الشيخ أم هى تحيتنا تعلمتها لتلقانا بها لقاء حسناً ؟ » . قال الشيخ : « أصلح الله الأمير ! فإن لى بالعربية عهداً ، وما أظننا نحتاج إلى ترجمان » . فأجلسه خالد إلى جانبه محتفياً به مقبلا عليه ، ثم أشار إلى من حوله فانصرفوا ، والتفت إلى الشيخ كأنه ينتظر أن يبدأ بالحديث . قال الشيخ : « أصلح الله الأمير ! إنك لم تَخلُ إلى رجل من الرّوم قد أقبل يسعى إليك فيما يسعى فيه الساسة الذين يخالفون عن رؤسائهم وساداتهم إلى العدو ليدلوه على عوراتهم ، ويُظهروه على ما دبروا من الكيد لرؤسائهم والانحياز إلى المغيرين ، إنما تخلو إلى مسلم قد شهد فجر الإسلام حين انبثق فى البطحاء من أرض الحرم ، فآمن به حين استيقن أنه الحق قد جاء من عند الله . ثم فرّ بما علم من ذلك فهاجر من مكة إلى وطنه من بلاد الروم يهيئ قومه لمثل هذا اليوم الذى نحن فيه . وقد مضت أعوام وأعوام وأنا أستقصى الأنباء وأتلقط الأخبار وأعلم ما يحدث فى مكة وفى يثرب من الخطوب . حتى إذا كانت وقعة مُؤتة علمت أن الشمس قد أخذت تبلغ أرضنا ، وأن نور الله قد أخذ يُشرق فى آفاقنا . ثم ها أنتم هؤلاء قد أقبلتم مظفرين ، فجئت لألقاك بالبشرى ، ولأنبئنك بأن لا بأس عليكم بعد هذه الموقعة ، فلن يثبت لكم العدو فى مدينة أو قرية أو مكان ما فى هذه الأرض ولا فى غيرها مما يجاورها من الشام ومصر ، ولن تجدوا من الناس بعد انهزام الجيوش عنكم إلا مودة ومعونة وحسن لقاء . فاقدَموا عليهم كما تَقدَمون على الصديق لا كما تقدَمون على

العدو ، فسيدخلون فى دين الله أفواجاً وستَتَخَلَّص لكم نفوس الذين يستمسكون بدين آبائهم » .

قال خالد : « ألم تُنبئنى أنك شهدت فجر الإسلام حين انبثق بمكة ؟ ! » .

قال الشيخ : « نعم ! وكنت ثانى اثنين كانا يرقبان مطلع الفجر ؛ فأما أحدنا فأقام بمكة ومات فيها . وأما الآخر فأقبل إلى هذه الأرض يبشر الناس بمطلع الفجر » .

قال خالد : « فمن ذاك الذى مات بمكة ؟ » . قال الشيخ : « ابن عمك ورقة بن نوفل » .

قال خالد : « وأنت من تكون ؟ » . قال الشيخ : « أنا من أكون ! لست أدرى أيدلك اسمى على شىء ! ولكن أباك كان يعرفنى حق المعرفة ويُبغضنى أشد البغض ، وابن عمك كان يعرفنى حق المعرفة ويحبنى أشد الحب » .

قال خالد : « أى أبناء عمى؟ » . قال الشيخ : «عمرو بن هشام بن المغيرة ، كنا نسميه أبا الحكم » . قال خالد : « ثم سميناه بعد ذلك أبا جهل » . قال الشيخ : « وقد صرعه البغى والحسد يوم بدر » .

قال خالد : « نعم ! صرعه البغى والحسد ؛ صرعه البغى والحسد وغرور الشيطان » . وسمع خالد هائعة[1] خارج السرادق ، فسكت كأنما

---

(١) الهائعة هنا : الضجة والأصوات الكثيرة . وأما الهيعة فالصوت الذى تفزع منه وتخافه من عدو .

يريد أن يتبين ما سمع ، وإذا قوم يريدون أن يقتحموا باب الأمير والحجّاب يذودونهم عن ذلك . فيضرب خالد إحدى يديه بالأخرى ويدخل نفر من المسلمين وقد احتملوا بينهم رجلا جريحاً قد أشرف على الموت ولكن فيه رمقاً ، وهم يقولون : ابن عمك أيها الأمير عكرمة بن أبي جهل . فيغشى وجه خالد حزن لا يلبث أن تطرده ابتسامة حلوة ، ويشير إليهم أن قدّموا الجريح ؛ فإذا وضعوه قريباً منه أقبل عليه فوضع رأسه على فخذه وجعل يُمرّ يده على جبهته إمراراً خفيفاً وهو يقول : « أتسمعنى يا عكرمة ؟ » فيشير الجريح بطرفه « أن نعم » . يقول خالد : « زعم ابن حنتمة أننا لا نُستشهَد، أبشر بالجنة يا عكرمة ! » . ثم يلتفت إلى الشيخ ويقول : « أما أبوه فقد صرعه الحسد والبغى ، وأما هو فقد صرعه الجهاد فى ذات الله » . وإذا الشيخ قد وقف رافعاً يديه إلى السماء وهو يتلو : (وَلاَ تحسبنّ الذينَ قُتلوا فى سَبيلِ الله أمْواتاً بَلْ أحياء عندَ رَبّهم يُرزَقونَ) .

قال خالد : « وقد حفظتَ من القرآن شيئاً أيها الشيخ ؟ » . قال الشيخ : « نعم ! حفظت منه شيئاً » . قال خالد : « ولكنك لم تنبئنى من أنت؟ » . قال الشيخ وقد استعبر : « لو استطاع هذا الفتى أن يرانى لعرف أنى نسطاس ، ولكنه يرى الآن وجوهاً خيراً من وجه نسطاس ، ويسمع أصواتاً أعذب من صوت نسطاس : يرى وجوه الملائكة ويسمعهم يقولون له ولأمثاله الذين يُصرَعون الآن فى ذات الله وهم يفتحون لهم أبواب الجنة : « سَلامٌ عليكم طبتمْ فادخلوها خالدين » .

سیدالشهداء

خلا الأمير إلى سُمّاره حين تقدّم الليل . . . وسكنت حركة الأحياء والأشياء ، وارتفعت فى السماء أضواء النور فى المدينة وأضواء القصور من حولها ، وانحدرت إلى الأرض أشعة النجوم رفيقة رقيقة مضطربة . وكان الأمير على غير عادته كئيباً كاسف البال ، مؤثراً للصمت مُعرضاً عن أصحابه ، لا يكاد يسمع لما يدور حوله من الحديث . فلما سأله فى ذلك آثرُ أصحابه عنده قال الأمير : « ألم تر إلى الناس حين كنا نُعشّيهم كيف كان إقبالهم على طعامهم فاتراً بطيئاً ، وكيف كان حديثهم فيما بينهم خافتاً خفيّاً ، وكيف كان يستأثر بهم ويسيطر عليهم ذهول غريب يجعل حركاتهم آلية لا تصدر عن رأى ولا إرادة ، وإنما تصدر عن عادة وغريزة ! لقد خيل إلىّ أن قد فُرق بينهم وبين أنفسهم ، فكأنما كانت أنفسهم فى السماء وأجسامهم فى الأرض . ولقد عرفت هؤلاء الناس وعرفونى ، ولقد بلوتهم وبلونى ، وما أذكر أنهم أخذونى بما لا أحب ، وما أذكر أنى سرت فيهم بما لا يرضون من سيرة الأمراء » .

قال صاحب الأمير : « فإن الأميرَ أعزه الله يعلم أن هؤلاء الناس قد شغلوا اليوم عن أنفسهم بآبائهم وأجدادهم ، وشُغلوا عن يومهم الحاضر وغدهم المقبل بأمسهم القريب » . قال الأمير : « وما ذاك ؟ » . قال

صاحبه : « فإن أصحابك قد رفعوا إليك من غير شك قصة هذه القبور التي نُبشت ، وقصة هذه الآية التي ظهرت » .

قال الأمير : « فإن أصحابي لم يرفعوا إليّ من ذلك شيئاً ، وإنما هو أمر جاء من دمشق ، ومضينا في إنفاذه اجتهاداً للناس ونصحاً لهم وإيثاراً لهم بالرِّيّ والخِصْب والعافية . وما أعرف أن أحداً منهم أنكر من هذا الأمر شيئاً ، أو قال فيه بغير ما نقول ، أو أشار فيه بغير ما أمر أمير المؤمنين » .

قال صاحب الأمير : « أما والله لولا أن الأمر قد سبق بذلك منذ العام الماضي حين لم تكن والياً على هذه المدينة وحين كان أمرها إلى من لا نحب أن نتحدث إليه أو نشير عليه ، لقد كان لنا في ذلك رأي غير ما رأى ، ولقد كنا خليقين أن نشير على أمير المؤمنين بغير ما تقدم به في أمر هذه القبور . إنها قبور الشهداء ؛ إنها قبور الذين صُرعوا في الله يوم أُحُد ؛ وإن كثرتهم لمن الأنصار . وقد أراد الله أن يُدْفَنوا حيث صُرعوا . وقد أنبئنا أن جماعة من الأنصار هموا بنقل موتاهم إلى المدينة ليُدْفَنوا فيها ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ونهى عنه وأمر بهؤلاء الشهداء فرُدُّوا إلى مصارعهم ودُفنوا حيث أراد الله أن يدفنوا ورسول الله قائم يصلي عليهم ويشهد دفنهم ، وكأنما كان يستودعهم هذه الأرض التي طهّرتها دماؤهم الذكية حتى يكون اليوم الذي يُنشرون فيه من قبورهم ليلقَوْا جزاء الشهداء الصديقين . فلو قد سئلنا في ذلك لأجبنا . ولو قد استُشرنا في ذلك لرأينا لأمير المؤمنين غير ما رأى له هؤلاء الشباب من فتيان قريش .

فإن من الخير أن يُجرى أمير المؤمنين لأهل المدينة هذه العين تحمل إليهم الرِّىَّ والخصْبَ ، ولكن مما يؤذى أهل المدينة أن تُنبشَ قبور آبائهم وأجدادهم من الشهداء ، وأن يحوّلوا عن أرض قسمها لهم الله ورسوله » .

قال الأمير : « فتراهم قد سخطوا على ذلك وضاقوا به وأنكروه ؟ » .

قال صاحب الأمير : « ما أشك فى ذلك . ولكن الله عز وجل قد أراد بهم وبأمير المؤمنين خيراً ، فأظهر لهم هذه الآية التى صرفتهم عن الدنيا إلى الدين ، وعن التفكير فى اليوم والغد إلى التفكير فى أمس وفى يوم يرونه بعيداً ويراه الله عز وجل قريباً» .

قال الأمير : « فإنى لا أفهم عنك ما تقول منذ الليلة ! » ؛ قال صاحبه : « فإن أصحابك إذاً لم يُنبئوك بالحال التى وجدوا عليها أجسام الشهداء » . قال الأمير : «لم ينبئنى أحد بشىء» . قال صاحبه : « فإن أجسام الشهداء قد وُجدتْ رطاباً كشأنها يوم دُفنت . ولقد كانت تُحمل من مكان إلى مكان فتنثنى وتضطرب ، رَخصة كأنما هى مُغرقة فى النوم لم يُلمّ بها الموت . وأكثر من ذلك أن المسحاة أصابت رجل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب فجرى منها دم زكىٌّ كما يجرى دم أحدنا حين يصيبه الجرح اليسير ، وقد مضى على مصرع هؤلاء الشهداء أكثر من أربعين عاماً ، وقد رأى الناس ذلك وأحسوه ، وتأثرت به نفوسهم ، واضطربت له قلوبهم ، وازداد له إيمانهم ، فهم بين الحزن لما كان من تحويل هؤلاء الشهداء عن قبورهم ،

والإعجاب بما كان من هذه الآية ، وقد صرفهم هذا الإعجاب عن إظهار ما كان خليقاً أن يملأ قلوبهم من سخط وإنكار . فلا تضق بما رأيت من وجومهم وذهولهم ؛ فإن بعض هذا كان خليقاً أن يضطرهم إلى الوجوم والذهول » .

وكان فى القوم شيخ قد تقدمت به السن وظهرت عليه الكَبْرَة والهرَم ، وقد جلس فى آخر المجلس مُطرقاً ممعناً فى الصمت والسكون كأنه قطعة من صخر. فلما انتهى سَمَرُ الأمير من حديثه إلى هذا الموضع ، رفع هذا الشيخ رأسه وقال فى صوت هادئ رزين يكاد يضطرب شيئاً ، وإن عينيه الغائرتين الضئيلتين لتبضّان بوَشل من الدمع شديد التأثير فى النفوس — وأى شىء أبلغ من بكاء الشيوخ ! ! — قال هذا الشيخ فى صوته الهادئ الرزين : « رحم الله حمزة ! إن كان لَسيدَ الشهداء حقّا ، وإن كانت حياته لموضع العبرة الصادقة والموعظة البالغة . كان إسلامه عنيفاً ، وكان بلاؤه فى الإسلام عنيفاً ، وكان مصرعه فى الله عنيفاً ، وكان ما ترك من حزن عليه ووجد به وحبّ له عنيفاً أيضاً . وماذا تقولون فى أنه لم يبلغ حزنٌ من قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغه الحزن على حمزة حين رآه صريعاً قد مثل به المشركون تلك المُثلة المنكرة ! لقد حدثنا من رآه قائماً ينظر إلى هذا المشهد الفظيع . فيأخذ الحزن من قلبه الكريم الكبير كل مأخذ حتى يُخرجه عن طوره ويدفعه إلى الثورة ، وإن كان لأبعدَ الناس عن الثورة ، وإن كان لألزمَ الناس للوقار . لقد ثارت لهذا المشهد البشع نفسه الهادئة الرضيّة ،

فإذا هو يوعد وينذر، وإذا هو يقسم لئن أظهره الله على قريش لَيُمَثِّلَنَّ بقتلاهم كما مثلوا بعمه ، وإذا غَضَبُ هذه النفس الهادئة الرضية يشيع فى نفوس أصحابه كما تشيع النار فى الحطب الجزْل ، فيقسمون لئن أظهرهم الله على قريش لَيمثلن بقتلاهم مُثلةً لم تعرفها العرب قط . ولكن الله عز وجل كان يريد برسوله وبعباده غير ما أراد لهم الغضب ، وإذا هو يؤدّبهم بأدب غير هذا الأدب العتيق الذى يقوم على الحفيظة والحمية والثأر ، وإذا هو يُنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات الكريمة : « وَإنْ عاقبتمْ فَعاقبوا بمثل مَا عُوقبتمْ به وَلئِنْ صَبَرْتُمْ لهوَ خَيرٌ للصابرينَ وَاصْبرْ وَما صَبرُكَ إلا بالله وَلا تَحزَنْ عَليهمْ وَلا تَكُ فى ضيْقٍ مما يَمكرُونَ . إنّ اللهَ مَعَ الذينَ اتقوْا والذينَ هُمْ مُحسنون » . فيثوب إلى القلب الكريم ما فارقه من العفو ، ويعود إلى النفس الكبيرة ما نَدّ عنها من الصبر ، ويكفِّر النبى عن يمينه ، ويُرد المسلمون إلى العفو والصبر والحلم والأناة ، ويُظهر الله رسوله وعباده على الذين قتلوا حمزة وأصحابه الشهداء ومثلوا بهم ، فلا يلقون منهم إلا العفو والبر ، وإلا الرحمة والعطف ، وإلا المودة والإحسان . وكذلك يقوم أمر هذه الأمة على الصبر والمغفرة والصفح الجميل » .

ثم أطرق الشيخ إطراقةً غير قصيرة ، وأمعن فى صمت عميق ، وأمعن السمّار مثله فى صمت عميق أيضاً ، كأنما حضر مجلسهم روح قوىّ أخذ عليهم أمرهم واضطرهم إلى هذه التروية المتصلة التى قطعها الشيخ حين رفع رأسه وقال فى صوته الهادئ الرزين : « نعم ! رحم الله حمزة !

لقد كانت حياته عنفاً كلها ، ولكنها لم تُعقب إلا مودة ورحمة . أترون إلى أخته صفيّة وقد بلغها مصرعه العنيف ، فأقبلت تسعى لتراه وتحمل ثوبين لتلفه فيهما ، ويُشفق رسول الله عليها من هذا المشهد ، فيأمر ابنها الزبير أن يردّها ، ولكنها تأبى ؛ فقد بلغها أنه صُرع ، وبلغها أنه مُثّل به ، وقد رضيت بذلك واطمأنت إليه ، فذلك فى الله قليل . أخت عنيفة لأخ عنيف ، عنيفة بنفسها قبل أن تعنُف بالناس ، ولكنها أخت رحيمة لأخ رحيم . أترون إليها وقد أقبلت فرأت أخاها ، وتنظر فترى جهد المسلمين وفقرهم وعجزهم عن تكفين موتاهم ، فتردّ عن أخيها أحد الثوبين ليكفن المسلمون به شهيداً من شهدائهم ، وترضى لأخيها بعد أن صُرع هذا المصرع ومُثّل به هذه المثلة أن يكفن فى ثوب واحد لايلفّ جسمه كله ، إن ستر رأسه أظهر رجليه ، وإن ستر رجليه أظهر رأسه . وإذا النبى يأمر بأن يستر الثوب رأسه وأن تغطى رجلاه بأوراق الشجر .

« لقد كان حمزة عم النبى وأخاه فى الرضاعة ، وقد اجتمع مع النبى من جهتيه ، من جهة أبيه ومن جهة أمه ؛ فقد كانت أمه هالة بنت عم آمنة . ولقد كان النبى به رفيقاً وعليه شفيقاً وبولده برّاً . فأىّ عجب فى أن يبلغ مصرع حمزة بالنبى صلى الله عليه وسلم طور الجزع الذى لم يألفه قلبه الكريم ، فيغضب ويثور ويُنذر ويوعد ، حتى إذا ردّه الله عن الغضب والثورة وعن الإيعاد والنذير عاد إلى المدينة وقد أقر الله فى قلبه حزناً قويّاً مقيماً ، قوامه الرحمة والحب . يمر ببنى عبد الأشهل ،

فيسمع بكاء النساء على شهداء الأنصار ، فيقول هذه الكلمة البالغة التى لا أعرف أروع منها فى تصوير الرحمة والحزن معاً : لكنّ حمزة لا بواكىَ له !

وتبلغ هذه الكلمة آذان الأنصار وتنفذ إلى قلوبهم وتستقر فيها ، وتملؤها حبًّا لحمزة وحزناً عليه ، وإيثاراً للنبى ومشاركة له فيما يجد ، وإذا هم يأمرون نساءهم أن يذهبن إلى بيت النبى فيبكين عمه وأسده وصفيّه وأخاه . وقد فعلن ، وتلقاهن نساء النبى فبكين ، ورضيت نفس النبى لذلك ، وامتلأت له حناناً وودًّا . ولكن الله يأبى على نبيه وعلى عباده حتى هذا الإغراق فى الحزن ، وإذا النبى يصرف هؤلاء النساء رفيقاً بهن داعياً لهن ، فإذا أصبح صعد المنبر فنهى عن إعلان البكاء أشد ما يكون النهى . ولكن كلمته قد استقرت فى نفوس الأنصار ، وقد نفذت إلى قلوب الأنصاريات خاصة ، وقد توارثنها وتوارثن التأثر بها ، فما يموت من الأنصار أحد وما تبكى امرأة أنصارية على أحد إلا بدأت بحمزة فبكت عليه وذكرته بالخير ، ثم ثنت بصاحبها فسفحت عليه دموع الحب والحزن . وما أرى إلا أن هذا سيظل دأب الأنصاريات إلى آخر الدهر . أترون إلى العنف كيف يُعقب الرحمة ، وإلى الشدة كيف تُعقب اللين ! !

« رحم الله حمزة ! لقد كانت حياته كلها عنفاً ، ولقد أصبحت آثاره كلها رحمة وليناً . أتعرفون كيف أسلم حمزة ؟ لقد أسلم إسلام الفتيان أولى البأس والشدة وذوى الحزم والقوة أولئك الذين يأنفون الضيم ،

ويأبون الخسف ، ويغضبون للولي ويكرهون أن يؤخذوا بما لا يحبون . ولولا أن الله يكره مثل هذا التعبير لقلت إن إسلامه كان إسلام الحمية والحفيظة . غضب لابن أخيه غضبة عربية قرشية ، وانتقم لابن أخيه انتقاماً عربيًّا قرشيًّا ، وسلك الله به إلى الإسلام أقرب الطرق وأدناها إلى قلبه القوي العنيف . كان فتى من فتيان قريش ، فيه عنفها ، وفيه شدتها ، وفيه صلفها ، وفيه أنفتها ، وفيه حرصها ، وفيه إيثارها لهذه اللذات التي يؤثرها أصحاب المروءة والرجولة الكاملة . كان صاحب صيد وقنص ، يخرج للذته هذه من آخر الليل ويعود موفوراً مبتهجاً مع الضحى ، فلا يلم بأهله حتى يذهب إلى المسجد ، فيقف على أندية قريش مسلماً متحدثاً ، ثم يطوف بالكعبة ثم ينصرف إلى داره وقد رضي عن نفسه وأرضى الناس عنها . وقد أقبل ذات يوم فأنبأته امرأة بنبأ عظيم تغيرت له حياته كلها . كانت هذه المرأة مولاة لعبد الله بن جدعان ، وأكبر ظني أنها كانت صاحبة دعابة وغزل . وأكبر ظني أن أبا جهل حين وقف إليها إنما وقف مداعباً مغازلا طامعاً منها في شيء مريب .

« ويمر النبي صلى الله عليه وسلم فتمتلىء نفس أبي جهل غيظاً لمرآه على ما كان يضمر له من بغض وقلى . وإنه لفي موقفه هذا المريب الذي لا يحسن بالأشراف من قريش إذ أخذ يؤذي النبي في نفسه بأشنع القول وأبشعه . ولكن الله قد أدب رسوله فأحسن تأديبه ، أمره بأن يأخذ العفو ويأمر بالعرف ويعرض عن الجاهلين ، فيمر بأبي جهل ويسمع منه وينصرف عنه معرضاً كريماً لا يجيبه ولا يلتفت إليه .

ويقع هذا كله من نفس المرأة أشد المواقع وأبلغها . وأكبر ظنى أنها صدَفتْ بعد ذلك عن أبى جهل صدوفاً وصرفته عن نفسها صرفاً عنيفاً . ومضى أبو جهل خزيان خجلا ، حتّى بلغ نادياً من أندية قريش فجلس مهموماً مخذولا . . .

« ويُقبل حمزة من صيده متوشحاً قوسه مبتهجاً بما أصاب من لذة وما أنفق من نشاط ، فيمر بهذه المرأة فى طريقه إلى المسجد ، وإذا هى تقفه ، وإذا هى تُنبئه بما رأت وما سمعت ، فيسمع منها ويمضى دون أن يجيبها ودون أن يلوى على شىء ، قد أضرم الله فى قلبه نار الغضب هذه التّى تطهر النفوس من الإثم وتزيل عنها الحُوب وتردّها إلى الحياة مرة ثانية نقية ناصعة كما برأها الله وقبل أن تعلق بها حبائل الشيطان .

« ويمضى حمزة لا يلوى على شىء ، تتأجج فى قلبه هذه النار المقدسة حتّى يبلغ المسجد ، ويرى أبا جهل فى ناديه فيقصد قصده ، حتّى إذا انتهى إليه قام وراءه ثم ضرب رأسه بالقوس فشجه شجة بالغة ، ثم أعلن إسلامه وتحدّى قريشاً وطلب إليها أن تردّه إن استطاعت عن هذا الإسلام . ويتواثب بنو مخزوم وقد غضبوا لأبى جهل ، فهم يريدون أن يمنعوه وأن يبطشوا بحمزة . ولكن أبا جهل يخذلهم ويردهم إلى الدعة والهدوء ، ويقول لهم : " دعوا أبا عمارة ! فوالله لقد سببتُ ابن أخيه سبّاً موجعاً " . يكفهم عنه أبو جهل فرقاً وخزياً وإشفاقاً أن يتكشف الحق ويظهر ما خفى من موقفه المريب ، وإن زعمت بنو مخزوم أنه إنما كفهم عنه إيثاراً للعافية وإنصافاً من نفسه » .

قال الأمير وهو يبتسم : « امض فى حديثك أيها الشيخ فإنا نعرف بغضك لبنى مخزوم » .

قال الشيخ : « فى أى حديث تريد أن أمضى أيها الأمير ؟ لقد كان إسلام حمزة عزًّا للنبى وأصحابه ، كف عنه كثيراً من أذى قريش . ولقد كان حمزة من هؤلاء المسلمين الذين عاشوا فى مكة أعزّة أقوياء يجهرون بإسلامهم ولا يخافتون به والذين هاجروا من مكة فى غير تحفظ ولا استخفاء . والله لم يَعزّ به الإسلام فى مكة وحدها وإنما أعزّه به فى المدينة . فلحمزة عَقد النبى أول لواء فى الإسلام ، وأفعال حمزة فى بدر ما تعلم أيها الأمير ، ومَصرَعى حمزة يوم بدر من تعلم أيها الأمير . ولو قد استشارنا معاوية قبل أن يحوّل شهداءنا عن مقابرهم التى احتفرها لهم الله ورسوله لقلنا له إنا نؤثر الظمأ والجدب وسوء الحال على أن يُحوَّل هؤلاء الشهداء أو تُنبش قبورهم ، ولقلنا له : إن بين هؤلاء الشهداء سيدهم حمزة ابن عبد المطلب قاتل شيبة بن ربيعة وعُتبة بن ربيعة ، الذى صرعه وَحشىّ وبقرت بطنه ولاكت كبده هند ! » .

وكان الشيخ حين انتهى إلى هذا الموضع من حديثه قد استحال استحالة كاملة ، فانحسر عنه ضعف الشيخوخة وارتفع صوته وثبت ولم يضطرب ، وأصبح كأنه الخمر قد جرى فيه غضب وهياج وأخذت عيناه تقدحان شرراً ، وخيل إلى من حوله أنه قد عاد إلى شبابه حين كان من شجعان الأنصار وأبطالهم المقدمين يوم البأس .

قال الأمير وهو يبتسم ويملك نفسه : « حسبك أيها الشيخ ! لقد

بدأ أمر حمزة بالعنف ، وانتهى إلى الرحمة واللين ، وابتدأت حديثك ليناً رفيقاً ، وهأنت ذا تنتهى إلى العنف وتحيي ما حطّ الله عنا من حمية الجاهلية وعصبيتها !

« رحم الله حمزة ! فما ينبغى أن يثير ذكره شرًّا ، وما ينبغى أن يثير ذكره إلا المودة والرحمة والنصح للمسلمين ولأمير المؤمنين . وما يدريك ! لعل هؤلاء الشهداء أنفسهم لو استشيروا لأشاروا على أمير المؤمنين بأن يحملهم بعد موتهم هذه التضحية فى سبيل المسلمين ! فهل كانت حياتهم إلا تضحية فى سبيل الله ورسوله والمسلمين ! » .

ذوالجناحين

أقبلت تسعى رويداً رويداً مثل ما يسعى النسيم العليل ، لا يمسّ الأرض وقع خُطاها ، فهى كالروح سرى فى الفضاء . نشر الليل عليها جناحاً فهى سرّ فى ضمير الظلام . وَهبَتْ للروض بعض شذاها ، فجازاها بثناء جميل ، ومضى ينشر منه عبيراً مستثيراً كامنات الشجون . فإذا الجدول نشوان يُبدى من هواه ما طواه الزمان . ردّت الذكرى عليه أساه ، ودعا الشوق إليه الحنين ؛ فهو طوراً شاحب قد براه من قديم الوجد مثل الهزال . صحب الأيام يشكو إليها بثه لو أسعدته الشكاة . وهو طوراً صاخبٌ قد عراه من طريف الحب مثل الجنون . جاش حتى أضحك الأرض منه عن رياض بهجةٌ للعيون ، ونفوس العاشقين كُراتٌ يعبث اليأس بها والرجاء ، كحياة الدهر تأتى عليها ظلمة الليل وضوء النهار .

ولبث الشيخ مطرقاً تتغنى فى نفسه الكئيبة هذه الخواطر الحزينة التى تريد أن تبتسم فلا تجد إلى الابتسام سبيلا ، ويخفق قلبه بهذه المعانى الشاجية التى تريد أن تُشرق فلا تكاد تدنو من النور حتى يُلقَى بينها وبينه ستار رقيق من الظلمة يُدنيها منه ويُنئيها عنه ، ويغريها به ويزهّدها فيه . ولم يكن يدرى عمن كانت تتحدث هذه الخواطر فى نفسه المحزونة . ولم يكن يعلم إلى من كانت تشير هذه المعانى القاتمة

فى قلبه السقيم . وإنما أنفق يوماً بغيضاً مريضاً تتابعت عليه فيه الهموم ، وتواترت عليه فيه الأحزان ، وضاقت عليه به الحياة . يوماً من هذه الأيام التى تُظلم على النفوس أشدّ الإظلام وإن صحا فيها الجو واعتدل فيها الإقليم ، وترقرق فيها ضوء الشمس يحمل على نفوس الغافلين لذة وبهجة وجمالاً . يوماً من هذه الأيام التى يشرق فيها وجه الطبيعة ، ويبسم فيها ثغر الحياة ، وتكاد النفوس الحرة تُقبل فيها على الأمل والعمل ، لولا أن طائفاً من السر يصدُر عن بعض النفوس الماهرة الماكرة ، فيحوّل إشراق الطبيعة ظلمة واكتئاباً ، ويردّ ابتسام الحياة إلى عبوس وتقطيب . والله قد امتحن أخيار الناس بأشرارهم ، وابتلى علماء الناس بجهالهم ، وسلط على إخلاص المخلصين نفاق المنافقين ، وعلى جدّ أصحاب الجد والعمل كيد أصحاب الكيد والعجز . يطهر بهذه المحنة قلوبهم ، ويصفى بهذه الفتنة نفوسهم ، ويبلو بهذه التجربة قدرتهم على الصبر ، وثباتهم للخطب ، ونفاذهم من المكروه ، وحسن استعدادهم للتضحية فى سبيل ما يؤمنون به من رأى ، وما يسعون إليه من خير ، وما يدفعون إليه من إصلاح .

وكان الشيخ قد استقبل يومه نشيطاً ، يريد أن يعمل كما تعوّد أن يستقبل أيامه ، مندفعاً إلى ما يُسِّرَ له من ألوان النشاط . ولكنه لم يكد يستقبل الضحى حتى جاءته الأنباء عن يمين وعن شمال بأن سُحُباً تتجمع فى الجو غير بعيدة ، وقد أخذ بعضها يركب بعضاً ، وجعلت ريح هوجاء حمقاء تجمعها وتدفعها ، تريد أن تسوقها إليه وتصبّ شرها

عليه ، فلم يحفل بذلك ولم يأبه له ؛ وأراد أن يمضي فيما كان بسبيله ، ولكن الأنباء تأتى بأن سحباً أخرى تتجمع ويركب بعضها بعضاً ، وبأن كيداً يكاد ، وشرًّا يراد ، وألواناً من المكر يهيأ بعضها سرًّا ، ويهيأ بعضها إعلاناً . وما هي إلا أن أقبل عليه المقبلون ، منهم من يُنذر ، ومنهم من يَرثى ، ومنهم من يواسى ، حتى ضاق بهم جميعاً وبما يتحدثون عنه ويخوضون فيه . فانصرف إلى نفسه ، ولكنه لم يلبث أن ضاق بها . وانصرف إلى أهله ، ولكنه لم يلبث أن نبا عنهم . وانصرف إلى كتبه ، ولكنه لم يلبث أن زهد فيها . فهجر المدينة والتمس العزلة فى مكان بعيد فى طرف من أطراف الريف ، وقد قامت فيه شجرات خضرٌ ملتفة الأغصان ، على جدول من الماء هادئٍ صافى الأديم ، يداعب النسيم صفحته فى رفق ، فيثير عليها أمواجاً صغاراً توشك أن تكون حباباً .

هنالك جلس الشيخ مع الأصيل ، وهنالك انصرف الشيخ عن نفسه وعن الناس ، وعن المدينة وأهل المدينة ، وعن الأعداء وما كانوا يأتمرون ، وعن الأصدقاء وما كانوا يدبّرون ، وفرغ لشجراته الخضر وجدوله الصافى ، وهذا النسيم العليل الفاتر يداعب أوراق الشجر وصفحة الجدول ، وضوء الشمس الحزينة المتهالكة يتبعها حزيناً متهالكاً فى طريقها إلى الغروب ، وهذه الطير الكثيرة ، قد أقامت على غصونها مترجحة فى أناة وهدوء ، متغنية فى شيء يُشبه الحزن والأسى كأنما كانت تودّع النهار كارهة للوداع ، وتستقبل الليل ضيّقة باستقباله .

وإذا نفس الشيخ تمتزج بهذه الأشجار الخضر ، وهذا الجدول الصافى ، وهذا النسيم الفاتر ، وهذا الضوء الشاحب ، وهذه الطير البائسة اليائسة . وإذا هذه الخواطر الحزينة تُلم بنفسه ، وتخفق بقلبه ، وتبلغ لسانه فيوشك أن يتحرك بها لولا أنه يُبغض أصوات الناس ، ويبغض صوت نفسه أيضاً ، فيسمع لهذه الخواطر تتحدث إلى نفسه وتبلغها من غير طريق الأذن . ويمضى فى ذلك وقتاً لا يعرف أكان طويلا أم كان قصيراً ، وقد نسى كل شىء ، ونفذ من كل شىء ، وخلا إلى غير شىء ، إن جاز أن يخلو الناس إلى غير شىء .

وها هو ذا يُفيق من حاله تلك التى لم تكن نوماً ولا يقظة ، والتى لم تكن غيباً ولا شهادة ، لا يدرى كيف دفع إلى هذه الحال ، ولا يدرى كيف خرج من هذه الحال . وأكبر الظن أن الصمت المتصل من حوله قد دعاه إلى نفسه أو دعا نفسه إليه ، فثاب الشيخ إلى نفسه أو ثابت نفس الشيخ إليه . وأكبر الظن أن هذه الخواطر الحزينة التى أطالت التردد بين نفسه وقلبه ، وأطالت الغناء فى دخيلة ضميره ، قد دعت إليه هذه الصورة الغريبة الجميلة التى رآها ماثلة أمامه على الضفة المواجهة له من ضفتى الجدول ، يترقرق على وجهها الرائع البارع غشاء رقيق هادئ من ضوء القمر ، الذى قام فى مكانه من السماء يرسل أشعته المطمئنة فى أناة وريث إلى الأرض ، كأنما يريد أن يداعب الأرض وما عليها بأشعته تلك مداعبة الساحر الماكر الذى لا يحفل بأحد ، ولا يحفل بشىء .

والغريب أن الشيخ لم ينكر هذه الصورة التى كانت ماثلة أمامه ولم يعرفها ، ولم يَضقْ بمكانها منه ولم تنبسط نفسه لها ، وإنما نظر إليها فأطال النظر ، كأنما كان ينتظر زيارتها له وإلمامها به . ونظر إليها دون أن يوجِّه إليها حديثاً ، كأنما كان ينتظر منها أن تبدأه هي بالحديث . وقد فعلتْ ؛ فهذا صوت حلو فاتن رقيق يصل إلى الشيخ وقد مازجه همس الجدول الذى كانت أمواجه تصطفق كأنما تحمل النسيم سرًّا إلى الليل ، وإذا هذا الصوت الحلو الفاتن يقع فى نفس الشيخ موقع الماء من ذى الغلة الصادى ، فيردّ إليه حياته ونشاطه ، ويذكره بيومه المظلم وليلته المشرقة .

وإذا هو يسمع الصورة تسأله : « ما هذا الصمت الذى أنت مغرق فيه ؟ ! لقد دعوتنى إلى نفسك فأطلت الدعاء . وهأنا ذى أسعى إليك وأُلمّ بك وأقف منك غير بعيد ، فلا تحفل بى ولا تأبَهُ لى ، ولا توجّه إلىّ حديثاً ولا تسألنى عن شىء . ففيم دعوتنى إذاً ؟ وفيم تكلفتُ السعى إليك ؟ وفيم تجشمت فى ذلك ظلمة الليل ؟ ! » .

قال الشيخ فى هدوء ودعة : « أنا دعوتك يا ابنتى ؟ ! ومن تكونين ؟ »

قالت : « فمنْ هذه التى أقبلت تسعى رويداً رويداً ، مثل ما يسعى النسيم العليل ؟ »

قال الشيخ : « لا أدرى يا ابنتى ؛ لم أدعُ أحداً ولم أتحدّث إلى أحد وإنما هى خواطر كانت تضطرب بها نفسى ، ومعان كان يخفق بها قلبى » .

قالت الصورة : « فقلْ إنى دعوت نفسى إليك ، أو إنى دفعت نفسى

إليك ، أو إن مُقامك هذا بين هذه الشجرات الخضر ، وهذا الجدول النقى ، وهذه الطير النائمة ، وهذا الضوء الهادئ الذى يتحدر من القمر ، قد أعجبنى فأقبلت أشاركك فى هذه العزلة ، وأتحدث إليك فى بعض ما يكون فيه الحديث » . قال الشيخ : « ولكن من تكونين ؟ »

قالت الصورة : « أحريص أنت على أن تعرفنى ؟ فقل إنى أنا العزلة التى يفزع إليها المكروب إذا ضاق بالأحياء والأشياء . وقل إنى أنا الوحدة التى يفرّ إليها الإنسان من نفسه وأهله ، ومن الأعداء والأصدقاء ، ومن الخير والشر . وقل إنى أنا الحرية التى يجدها الإنسان الفرد حين يفر من الجماعة إلى حيث يستطيع أن يفكر آمنًا ناعم النفس رضىّ البال . وقل إنى أنا العزلة والوحدة والحرية جميعاً قد ائتلف منها شخصى ، وتكونت منها نفسى . وقل — إن شئت — إنى أنا الهجرة التى يفزع إليها الناس حين يخافون على عقائدهم ، وحين يَضيقون بنفاق المنافقين وكيد الكائدين ، وحين يحسون أن لا مقام لهم فى هذه الدار أو تلك فيفرّون منها إلى هذه الدار أو تلك . أنا الهجرة التى قد وُكلتْ بالأخيار إذا ضاقوا بالأشرار ، أواسيهم أثناء المحنة وأسليهم عن الفتنة ، وأصحبهم حين يخفون عن أوطانهم إلى أوطان أخرى ، فأونسهم فى الطريق ، وأردّ عنهم غوائل السفر ، وأتلقاهم فى مهاجرهم ، فأحبب إليهم أوطانهم الجديدة وأسليهم عن أوطانهم القديمة ، وأفتح لهم أبواب الأمل ، وأمهد لهم سبل العمل ، وأنتهى بهم إلى ما هم أهل له من الفوز . قل إنى أنا الهجرة التى تغناها شاعركم القديم حين قال :

وأصرف وجهى عن بلاد َغدَا بها　　لسانىَ معقولاً وقلبى مقفلا
وإن صريح الحزم والرأى لامرؤ　　إذا بلغته الشمس أن يتحوّلا

قال الشيخ : « لقد أذكرتنى بهذين البيتين من شعر أبى تمام يا ابنتى وما كنت لهما ناسياً ولا عنهما غافلا . ولكنى لا أريد الهجرة ولا أجد إليها سبيلاً لو أردتها » .

قالت : « فإنك لا تريد إلا الهجرة ، ولا تجد عن الهجرة ُمنصرَفاً . ألم تهاجر إلى هذا المكان منذ الليلة ؟ ألا تهاجر إلى نفسك بين حين وحين ، حين تضيق ببيئتك التى تحيا فيها وتشقى بها ؟ فإنى أونس وحشتك حين تهاجر إلى نفسك فى المدينة ، كما أونس وحشتك الآن حين هاجرت إلى هذه الشجرات الخضر ، وهذا الجدول الناصع ، وهذه الفضة المذابة التى تترقرق بين الأرض والسماء كأنما تحمل إلى نفسك الثائرة رسالة الأمن والطمأنينة والهدوء والصفح عن الآثمين والإعراض عن الجاهلين . استمعْ لى وافهم عنى ؛ فكم صحبتُ من أخيار ضاقوا بالحياة وضاقت الحياة بهم ، فآنست وحشتهم ، وفرّجت كربتهم ، ولزمتهم رفيقة بهم عطوفاً عليهم حتى أبلغتهم مأمنهم . وإنى لأعرف من أخبارهم وآثارهم ما هو خليق — إن قصصتُ بعضه عليك — أن يسلى عنك الهمّ ، ويُسرّى عنك الحزن ، ويعصمك من الشك ، ويثبتك على اليقين ، ويمضى بك إلى الوجه الذى يَسرّك الله له ، حتى تخرج من هذه الحياة وقد رضيت عن ضميرك ورضى ضميرك عنك مهما يكن رأى الناس فيك »

« لقد صحبت فتى من قريش فيما مضى من سالف الدهر ما أنسيت صحبته قط . أردت أن أونسه فكان هو مؤنساً لى . وأردت أن أسلى عنه الهمّ ، فلم أجد فى نفسه همّاً أسليه عنه . إنما أقبل علىّ محبّاً لى مشغوفاً بى مؤثراً أياى على كل شىء . ولقد أبعدت به السفر ، ولقد أطلت عليه الغربة ، فما أشفق من سفر غير قاصد ، وما ضاق بغربة غير منقضية ، وإنما هاجر كلفاً بالهجرة ، مؤثراً لها على اليسير والعسير من الفتنة .

« كانت نفسه حلوة هادئة ، فأبت أن تمزج حلاوة الإيمان بمرارة الفتنة ، وأن تخلط هدوء اليقين بعنف الجدال فيه . كان من السابقين إلى الإسلام . رأى ابن عمه يدعو فاستجاب له عن حب وصدق ويقين . ومضى على الوفاء لما أقبل عليه من هذا الدين الجديد ، يؤثر التقوى الخالصة والإيمان الهادئ المطمئن على كل شىء . فلما اضطرب الأمر من حوله ورأى اضطهاد قريش للمسلمين ، ورأى ثبات المسلمين للمحنة وإلحاح قريش عليهم فيها ، صبر كما صبروا ، واحتمل كما احتملوا ، ولقى فى ذات الله مثل ما لقوا ، حتى إذا أذن الله للمسلمين فى أن يفرّوا بإيمانهم إلى حيث الأمن والهدوء — إن أرادوا — هاجر من مكة تاركاً وطناً أحبه وعشيرة آثرها ، وحياة نعم بما لقى فيها من ضروب الشدة واللين . هاجر فيمن هاجر من أصحاب ابن عمه إلى أرض بعيدة نائية .

« صحبته فى سفره ذاك ، ورأيته يتجشم مع أصحابه أهوال البرّ والبحر فارّاً بدينه من الفتنة ، مؤثراً أن يعبد الله فى دعة ، وأن ينشر دينه فى هدء وسلم . ولقد أطال المقام ، وأحبّ الغربة حتى ألفها أو كاد يألفها .

ولكني كنت ألزمه وأهوّن عليه من مشقة الغربة ما قد يكون عليه عسيراً . حتى إذا أذن الله لنبيه فى الهجرة ، واستقرت أمور الإسلام فى المدينة ، وأظهر الله دينه على كثير من بيئات الشرك والكفر ، جعلتُ أغرى صديقى بالانتقال من غربة إلى غربة ، والالتجاء من وطن جديد إلى وطن جديد ؛ وما بلغت منه الرضا بذلك إلا حين استوثق من أنه لن يفارقنى ولن يُقصَى عنى ، ولكنه سيظل مهاجراً .

« سينتقل من هجرة الحبشة إلى هجرة المدينة حيث يستطيع أن يعبد الله آمناً راضياً مطمئناً فى ظل ابن عمه وبين أصحابه وذوى قرابته ، وحيث يستطيع أن يُبلى فى ذات الإسلام كما أبلى غيره من المسلمين ، وأن يحتمل من أعباء الجهاد مثل ما احتملوا .

« لقد صحبته مرتحلاً إلى الحبشة ، فصحبت مؤمناً يفرّ بإيمانه إلى الطمأنينة وفى نفسه حسرات . ولقد صحبته فى عودته إلى المدينة ، فصحبت مؤمناً يعود بإيمانه إلى مستقر الهدى ومشرق النور ، وإن فى قلبه لجذوة تضطرم شوقاً إلى ابن عمه ، وطموحاً إلى الأخذ بحظه من أثقال الجهاد » .

ثم سكت الصوت الهادئ الحلو قليلا ، ومضى الجدول يتغنى شكاته المتصلة ، ومضى النسيم يداعب الجدول مترفقاً به ، ويحرك الأغصان فى خفة ، فيسمعُ لها وله حفيف وهفيف يمتزجان بشكاة الغدير ، فيبعثان أنغاماً عذبة ، كأنما كانت صلاة حلوة على روح ذلك المهاجر الكريم .

ثم ارتفع الصوت الحلو فى أناة وهو يقول : « لقد رأيته حين بلغ المدينة

وكان ابن عمه عائداً إليها، وقد فتح الله عليه ما فتح من حصون خيبر وثبّت أمره، وأعلى كلمته، وإذا ابن عمه يلتزمه ويقبّل بين عينيه ويقول: "ما أدرى بأيهما أنا أشدّ فرحاً: بفتح خيبر، أم بعودة جعفر".

« ولكن صحبتى له لم تنته، وإنما لزمته فى مهاجره الجديد، ونعمت بلزومى أياه بما كنت أرى وبما كان الناس يرون من برّه بالضعفاء، ورفقه بالمساكين، ورحمته للبائسين، وإيثاره أصحاب العوز على نفسه وعلى أهله، بما كان الله يتيح له ولهم من الكثير والقليل، حتى كناه ابن عمه بهذه الكنية الحلوة " أبى المساكين".

« ثم صحبته إلى رحلته الكبرى، صحبته حين جهز النبى جيشه إلى مُؤتة، وكان فى نفسه شىء حين أمّر ابن عمه عليه زيدَ بن حارثة. وقد كلم النبى فى ذلك، فقال النبى له فى صوت يملؤه الحب والحنان والإشفاق: " امضه فإنك لا تدرى أىّ ذلك خير".

« لقد عرفتُ دخيلة نفسه، وسمعت نجوى ضميره بعد هذا الحديث إنما كان الشوق إلى حسن البلاء واحتمال أثقال الجهاد هو الذى دعاه إلى أن يُعاتب النبى فى تقديم زيد عليه. كان يؤثر زيداً والمسلمين، ويريد أن يقدّم عليهم نفسه إلى المكروه. فلما ردّه النبى عن ذلك كانت نفسه تتأذى مخافة أن تُظنّ به الأثرةُ، وما أراد إلا الإيثار. وكانت نفسه تتحرّق شوقاً إلى أن يلقى من الأذاة فى سبيل الله مثل ما لقى زيد وأصحاب زيد. ولقد رأيته حين تقدّم زيد فقاتل حتى قُتل وآن له أن يأخذ الراية، وكان على فرس له، فينزل عن فرسه ويعقره

ويكون أول عاقر فى الإسلام ، ويتقدّم بالراية فيقاتل حتى تُقطعَ يداه ، وحتى تأخذه السيوف والرماح والسهام ، وحتى يُصرَعَ كما كان يريد أن يصرع شهيداً . ولولا ما أنبأ النبي به مما صار إليه من نعمة الله عليه ، لما تعزّيت عن الحزن الذى ملأ نفسي لمصرعه . ولكن كيف السبيل إلى الحزن على الشهداء الذين لا يكادون يموتون حتى يُرَدّوا إلى الحياة وإذا هم أحياء عند ربهم يرزقون ! ! كيف السبيل إلى الحزن على شهيد لم يدركه الموت حتى رُفع إلى السماء ، وأنبأ النبي بأن الله قد عوّضه من يديه جناحين مخضوبين بالدماء يطير بهما فى الجنة فيتبوأ منها حيث يشاء .

« وكم من أحاديث لأولئك النفر من أصحاب محمد الذين هاجروا قبله والذين هاجروا معه ، والذين هاجروا بعده ، لو قصصتها عليك أيها الشيخ لمحوت من نفسك كل مَوْجدة ، ولنقيت قلبك من كل حفيظة ، ولأقررت فى نفسك أنى أحق بحبك ومودّتك ! ! » .

قال الشيخ : « حسبك ! فقد بلغت من ذلك ما تريدين » .

قالت : « فادْعُنى إذا أحسست ألماً أو كرباً ، فلن تجد مثلى صديقاً رفيقاً » .

وأخذ اصطفاق الجدول يرتفع شيئاً ، ويرتفع معه حفيف النسيم وحفيف الغصون ، وغناء متقطع ضئيل ينبعث من أجواف الطير النائمة ، وهذا سهمٌ وردى نحيل ينفذ فى جوف الليل قليلا ، ولا يكاد يتقدّم حتى يتسع شيئاً فشيئاً ، وحتى ينهزم الليل أمامه مضطرباً مروعاً ، وهذه الصورة تحيي الشيخ فى صوت ضئيل نحيل يبعد عنه شيئاً فشيئاً حتى

ينقطع . وهذه أصوات ترتفع متجاوبة حول الشيخ تأتيه من بعيد ، من هذه القرى الكثيرة المنبثة فى الريف . وهذا الشيخ ينظر من حوله فيرى آية النهار المبصرة جادّة فى محو آية الليل المظلمة ، فينهض متثاقلا وقد غسلت هذه الليلة نفسه من أوضار المدينة ، واستقبل الحياة كأنه ولد لساعته . وها هو ذا يمضى نحو المدينة هادئاً رزيناً ، وإنّ نفسه لتتغنى :

« أقبلت تسعى رويداً رويداً مثل ما يسعى النسيم العليل » !

حدیثِ عدّاس

قال عُتبةُ بن ربيعة لأخيه شيبةَ : « انظر إلى هذا الرجل المقبل على حائطنا[1] ومن ورائه السفهاء والعبيد قد أغروا به وسُلطوا عليه ، فهم يؤذونه بألسنتهم ، وهم يؤذونه بما يحصبونه من الحصى والأحجار ؛ ألا تُثبته[2] ؟ » . قال شيبة وقد نظر وأطال : « بلى ! والله إنى لأعرفه كما تعرفه ، وإن قلبي ليرقّ له كما يرق له قلبك ، وإن نفسي لتثور غضباً له كما تثور نفسك . ولقد هممت وما زلت أنازع نفسي أن أفزع إلى نصره وجواره وحمايته من حلماء ثقيف وسفهائها ، لولا ما بينه وبين قومنا ، ولولا أنى أعلم أننا إن فعلنا كان لنا مع قومنا أمر عظيم وخطب جليل » .

قال عتبة : « وارحمتاه لابن عمنا من قومنا ! ثم وارحمتاه لقومنا من أنفسهم ؛ ما كنت أحسب أن يبلغ الأمر بقريش أن يذلّ عزيزها ونحن شاهدان ، وأن يجترئ حيّ من أحياء العرب وإن كان ثقيفاً ، على أن يسوءوا رجلا من قريش وإن كان مُستضْعفاً مهيناً ، فكيف بابن عبد المطلب وابن أخى حمزة والعباس ! ! » .

وكان هذان الرجلان من أشراف قريش ، قد ذهبا إلى بستان لهما فى الطائف يصلحان من أمره وأمرهما ، ويهيئان لتجارتهما ، يجمعان

(١) الحائط : البستان .

(٢) تثبته : تعرفه حق المعرفة .

ما تُنفذه ثقيف من تجار قريش إلى اليمن فى رحلتها إلى اليمن ، وإلى الشام فى رحلتها إلى الشام . وكانا قد أقاما فى الطائف أياماً ، وأقبل فى أثناء ذلك النبى صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على ثقيف يلتمس عندهم النصر والعون والجوار ، بعد أن تنكرت له مكة بطاحها وظواهرها ، وبعد أن تنكر له الناس حتى أقربهم إليه وأدناهم منه ، وبعد أن فقد عمه الذى كان يمنعه ويقوم دونه ، وبعد أن فقد زوجه التى كانت ترعاه وتكلؤه وتحوطه بالرحمة والحب والحنان . وكان قد لزم داره بعد هاتين الكارثتين ، لا يكاد يبرحها خائفاً محزوناً ، حتى أقبل عليه عمه أبو لهب فأمّنه وأعلن إليه أنه يقوم من حمايته بما كان يقوم به أبو طالب ، فسرّى عن النبى الكريم شيئاً واستأنف الخروج من داره والذهاب إلى المسجد والاضطراب فى مكة . ولكن قوماً من قريش ألحّوا على أبى لهب حتى غيروه على ابن أخيه ، فاسترد جواره وحمايته ، وعاد إلى مثل ما كان عليه قبل أن يموت أبو طالب . فلما ضاقت مكة بخير أبنائها خرج إلى الطائف يلتمس جوار ثقيف ، فأقام فيهم ما شاء الله أن يقيم ، يسعى عند هذا ويلطف لذلك ، وكلهم يردّه وكلهم يمتنع عليه . وكان مُقامُه فيهم قد أخافهم وثقل عليهم وأثار فى نفوسهم إشفاقاً أن يصيب مدينتهم ما أصاب مكة من اضطراب الأمر وانتقاض الضعفاء على الأقوياء ، واستجابة قوم لهذا الرجل الذى أنكره قومه ولم تره مدينته إلا ما يكره فتقدموا إليه فى الرحيل عنهم . ولم يكد يفعل حتى أغروا به سفلة الناس وسفهاءهم ، فتبعوه يؤذونه بالقول والفعل حتى ألجئوه ضعيفاً مكدوداً

وكثيباً محزوناً إلى حائط هذين القرشيين . وأقبل النبي وقوراً هادئ الخطى مطمئن النفس ، تظهر على وجهه الكريم آيات الضعف وآيات القوة ، وآيات الحزن وآيات الرجاء .

ضعفٌ مصدره الجهد والعناء . وقوةٌ مصدرها الحزم والعزم . وحزنٌ مصدره الرحمة لهؤلاء الذين يدعوهم إلى الخير فيبغونه بالسوء ، ويُرشدهم إلى النجح فيريدونه بالمكروه . ورجاءٌ مصدره الثقة بأن الله لم يختره لرسالته ليخذله قبل أن يُتمّ أمره ويُعلي كلمته ويُظهر دينه على الدين كله ، وبأن الله لا يصيبه بما يصيبه به من المكروه إلا امتحاناً لقلبه ، وابتلاء لنفسه ، وتمحيصاً لطبعه .

أقبل هادئاً والناس من ورائه مضطربون ، مستأنياً والناس من ورائه مسرعون ، حتى انتهى إلى ظلّ من ظلال البستان ، فجلس متعباً مكدوداً ، والقرشيان ينظران إليه ويرقان له ويعطفان عليه وينازعان نفسيهما إلى نصره ومعونته ، وقد كادا يفعلان لولا أن ذكرا قريشاً ، ولولا أن ذكر عُتبةُ بن ربيعة صهره أبا سفيان ، وقدّر ما يلقاه وما يلقاه أخوه من قريش إن منح محمداً معونة أو نصراً . ولكنهما رأيا ابن عمهما يأوي إلى ظلالهما مكروباً محزوناً ، فلم يملكا أن يمتنعا من أن ينالاه بأيسر الخير وأهون البر ، فيدعوان عدّاساً (عبداً من عبيدهما) ويأمرانه أن يحمل إلى هذا الرجل الضعيف المكدود شيئاً من عنب البستان ليصيب منه . ويمضي العبد منفذاً أمرهما . ولكنهما لا يستطيعان أن ينصرفا عن مكانهما ولا أن يحوّلا بصرهما عن ابن عمهما ، وقد أهينت

فيه قريش كلها لولا أن قريشاً قد احتفظت بأحلامها . فهما ينظران ويرثيان ويعمل الأسى فى قلبيهما . والعبد يسعى بالطبق إلى هذا الرجل المحزون ، حتى إذا انتهى إليه أقبل الرجل على العنب يريد أن يصيب منه والعبد قائم منه غير بعيد . ولكن القرشيين ينظران فيريان عجباً : يريان كأن حديثاً قصيراً قد دار بين الرجل وبين هذا العبد ، ثم يريان العبد وقد أكبّ على هذا الرجل الحزين يقبل رأسه ويديه ورجليه باكياً مستعبراً مندفعاً فى حديث لا يكاد ينقضى ، مظهراً من التكرمة والإجلال لهذا الرجل ما لم يتعود أن يظهره لأحد من سيديه . فيقول أحد القرشيين : « ويحك ! لقد أفسد علينا ابن عمنا هذا العبد ! وما أرى إلا أن ثقيفاً معذورون إن خافوا منه على عبيدهم وضعفائهم وأقويائهم أيضاً ما خفنا نحن منه على العبيد والضعفاء والأقوياء ! » . وهذا الرجل قد نهض وقوراً هادئاً ، ومضى العبد معه شيئاً من الطريق ثم وقف يشيعه بطرْفه حتى غاب عن طرفه وعن طرف القرشيين .

هنالك عاد العبد إلى سيديه ، وفى وجهه آيات الكآبة والحزن ، وفى وجهه مع ذلك آيات الطمأنينة والرضا ، ودموع تجرى من عينيه لم يدريا أكانت دموع حزن وابتئاس ، أم كانت دموع غبطة وابتهاج .

يقول عُتبة بن ربيعة للعبد رفيقاً به عطوفاً عليه : « ويحك يا عدّاس ! إن لك مع هذا الرجل لشأناً ، فاقصُصْ علينا بدء حديثك فقد رأيناك حفياً به متلطفاً له مكباً عليه ، تقبله باكياً مواسياً ثم مرافقاً له تشيعه بشخصك ثم بطرفك » .

قال العبد : « نعم يا مولاى ! إن لى مع هذا الرجل لشأناً وحديثاً عجباً . وأحسِبُ إلىّ أن أقص عليكما حديثى . ولكن أىّ حديثى تريدان ؟ أتريدان حديثى منذ اليوم ، أم تريدان حديثى القديم الذى مضت عليه أعوام طوال ، والذى دفعنى إلى بلادكم هذه ، والذى اضطرنى إلى ما أنا فيه من رقّ وإلى أن أعمل لكما بيدى فى هذا البستان ، وما عملت لأحد قبلكما بيدى وما عملت لنفسى بيدى ، وإنْ كان الناس ليعملون لى كما أعمل لكما الآن ؟ » .

قال عُتبة وقد ثارت فى نفسه طبيعة العربىّ الذى أترف وفيه فضلٌ من بداوة ، فهو مشغوف بالقصص ، كلفٌ بغريب الحديث : « وإن لك لحديثاً قديماً بينه وبين حديثك هذا الجديد سببٌ ؟ » .

قال عدّاس « نعم » . قال عتبة : « فاقصص علينا حديثك » .

وأخذ القرشيان مجلسهما استعداداً لسماع الحديث ، وهمّ العبد أن يبدأ حديثه قائماً ، ولكنهما أذنا له فى الجلوس فجلس ، وأطرق وأغرق فى صمت غير طويل ولكنه كان عميقاً ، ثم قال : « لقد انتهيت إلى هذا الرجل منذ حين ، فسمعته يقول كلاماً ما أعرف أن الناس يقولونه أو يقولون مثله فى هذه الأرض . فلما سألته عن ذلك حدّثنى بحديث ما يعرفه إلا نبىّ . وكان حديثه هذا منى على ميعاد ، أو كنت أنا من حديثه هذا على ميعاد . لقد سألنى سؤالا لم يسألنيه أحد منذ وطئتُ هذه البلاد . سألنى عن موطنى الذى نزحت منه ، فأنبأته بما لا تعلمان وبما يحسن أن تعلماه الآن ، وهو أنى رجل من أهل نينوَى ، نشأت

فى بيت من بيوت الأحرار الذين إن لم يُتح لهم الملك والإمارة فقد أتيحت لهم الثروة والغنى . وكنت موفور الحظ من النعمة وحسن الحال فارغاً لما يفرغ له أمثالى فى تلك البلاد من تقسيم الوقت بين لذّة الجسم ولذة العقل ، ألهو ماوسعنى اللهو ، ثم أقرأ وأختلف إلى مجالس العلماء والفلاسفة من القسس والرهبان ، فأسمع منهم وأتحدّث إليهم وآخذ معهم فى ألوان من الجدل حول مايختلف الناس فيه عندنا من أصول الدين والعلم. وأنتما لا تعلمان من أمرنا فى تلك البلاد إلا قليلاً ، إنما تُعنيان ويُعنى قومكما بما تحملون إلينا من تجارة وما تصدّرون به عنا من مال ، وما تُصيبون فى بلادنا من هذه اللذات اليسيرة . فأما ما دون ذلك فليس لكم به علم وليس لكم عنه سؤال . ولو قد دخلتم فى حياتنا وعرفتم دقائق أمرنا ، لرأيتم أن فى نفوسنا اضطراباً شديداً وغلياناً متصلا وضيقاً بالسلطان ، وتمرداً على النظام ، وإنكاراً لما ورثنا من عادة وشكّاً فيما تلقينا من دين .

« ساءت فينا سيرة السلطان فنقمنا من نظام الحكم . وساءت فينا سيرة القسس فشككنا فى الدين . فأما العاجزون فقد أعطوا طاعة ظاهرة وأضمروا عصياناً خفيّاً وعكفوا على اللذات يستعينون بها على احتمال الحياة . وأما الأقوياء وأولو العزم فقد فكروا وقدّروا ، وجدّوا فى التفكير والتقدير يلتمسون فرجاً من حرج ومخرجاً من ضيق . وكنت فيما رأيت من هؤلاء . فلما ضقتُ بالحياة فى مدينتى ولم أجد عند علمائها وقسسها شيئاً ، خرجت مسافراً إلى الشام ألتمس فى السياحة تسلية وعلماً ، وأبتغى فيها ظفراً بالخير . ولست أقص عليكما رحلتى إلى

الشام ومنازلى فى طريقى إليها ، واضطرابى فى مدنها وقراها ، ويأسى من قسسها وعلمائها ، وضيقى بسادتها وحكامها ، ولكنى انتهيت بعد كثير من الاضطراب إلى دير من الأديار يقوم فى آخر العمران وأول الصحراء مما يلى بلادكم هذه . وأقمت فى هذا الدير دهراً ، راضياً عن حياته الهادئة المطمئنة ، راضياً عن حياة أهله الآمنين الوادعين الأخيار ، ناعم النفس بعشرتهم ، مستمتعاً بأحاديثهم . ولكننى سمعت من أحاديثهم عجباً : رأيت لهم فيما بينهم أمراً يتحدثون عنه بالرمز ، ويومئون إليه بالإشارة . ورأيت حديثهم هذا الرمزى يكثر ويشتد إمعانهم فيه كلما مرت بديرهم قافلة من قوافلكم هذه التى تتردد على بلاد الروم . رأيتهم يعرفون أنباء هذه القوافل قبل أن تصل إليهم ، فيتهيئون لها ويستقبلونها ويكثرون من سؤالها ويظهرون الحفاوة بها ، ثم يخلو بعضهم إلى بعض ، فيتبادلون بينهم أحاديث الرمز والإشارة والإيماء ، ويقول بعضهم لبعض : لم يأت النبأ بعدُ ، أو يقول بعضهم لبعض : لقد انقطع النبأ بعد أن جاءت بشائره . فلما كثر علىّ منهم ذلك أزمعت أن أعلم علمه ، فتلطفت لهم وتوسلت إليهم حتى عرفت أنهم ينتظرون إصلاحاً دينياً ذا بال ، وأنهم قرءوا فى كتبهم أن هذا الإصلاح يأتيهم من قبل هذه البلاد ، وأنهم حسبوا وقدّروا ورأوا أن زمان هذا الإصلاح قد أظلّ الناسَ ، وأن أنباءً قد انتهت إليهم وأحاديث قد نقلت لهم ، وكلها يدل على أن أوان هذا الإصلاح قد آن . قصّوا علىّ من هذه الأنباء والبشائر أطرافاً ، فلم أملك أن كلفت بالرحلة إلى بلادكم ،

وقلت : ما يمنعني أن أبعد فى السفر ؛ وما يمنعنى أن أتصل بقافلة من قوافلكم هذه فأبلغ معها هذه الأرض ، فأعلم من علمها ، وأصيب من تجارتها ! ولعلى أظفر بما يتحرق إليه هؤلاء الرهبان شوقًا . وأنتما تعلمان كيف كان الاتفاق بينى وبين تلك القافلة التى أمّنتنى على نفسى ومالى، وضمنت لى أن أبلغ بلادكم هذه موفوراً فأصيب من تجارتها وأعود معها من قابل إلى الشام ، حتى إذا بعدنا عن بلاد الروم وانقطعت أسبابى من أسباب قيصر، عدا أهل هذه القافلة على مالى فاحتجزوه، ثم عدَوا علىّ فاتخذونى وباعونى من صاحبكما ذاك الذى اشتريتمانى منه قريبًا من يثرب .

« فهذا بدء حديثى أيها السيدان . وقد عملت فى بستانكما أعوامًا، وكان الناس يتحدثون من حولى بهذه الأحداث التى تحدُث فى مكة ، ويتناقلون من حولى أنباء هذا الرجل الذى ينكر الأوثان ويدعو إلى التوحيد ، ويريد أن يُنصف المظلوم من الظالم ، والعبد من السيد ، ويسوّى بين الضعيف والقوى . وكان الناس يتحدثون من حولى بما يلقى هذا الرجل فى بلده من شر ، وما يُمتحنُ به أصحابه من ألوان الفتنة . وكنت كلما سمعت هذه الأحاديث هششت لها ، وطابت بها نفسى ، وأحسست أن النبأ الأعظم قريب . وكنت أقدّر أن صاحب هذا النبأ يجب أن يكون كإخوانه الذين سبقوه عالمًا بدين الله داعيًا إليه ، مخبرًا عن أنباء الأولين بما لا يخبر به الناس . وكم وددت لو أتيح لى أن أنحدر إلى مكتكما هذه فأسأل صاحبكما وأسمع منه . ولكن الرقّ فى بلادكما شديد ؛ فنحن أرأف منكم بالرقيق وأعطف منكم

عليه . وقد لبثت فى بستانكما هذا أسمع الأنباء وألتمسها وأتحرّق شوقاً إلى مصدرها ، حتى أقبل صاحبكما هذا منذ حين . ولقد رثيت له حين رأيته وأوشابُ الناس من حوله يؤذونه بألسنتهم وأيديهم . ولقد هممت أن أفزع لنصره والذود عنه ، وما كنت أعلم من أمره شيئاً ، ولكنها الرحمة عطفتنى عليه . ولقد هممت أن أستأذنكما فى إيوائه وإيثاره بشىء من القِرَى ، ولكنى رأيتكما تنظران وتتحدثان ولا تنشطان ، ثم أمرتمانى بالسعى إليه . فلما بلغته سمعت منه كلاماً ما سمعت مثله فى هذه الأرض . فلما سألته عن ذلك سألنى عن موطنى ، فلما أنبأته به قال : " هذا موطن يونس نبىّ الله " . فما شككت فى أنه صاحبى الذى أقبلت ألتمس أنباءه » .

قال عتبة : « ويحك يا عدّاس ! إن حديثك هذا لعجب ، ولكنا نخشى أن يفسد عليك صاحبنا دينك ، وإن دينك لخير مما يدعو إليه » . قال عدّاس : « مهلا يا سيدى ؛ إن الذى يقول ما سمعت لا يدعو إلى شر ولا يغرى بفساد ، ولا يأمر إلا بمعروف ، ولا يقول إلا حقّـا » . قال شيبة : « ويحك يا عدّاس ! لقد سحرك صاحبنا فيمن سحر . فماذا سمعت منه ؟ » قال عدّاس : « بل لقد هدانى فيمن هدى . ولقد سمعته يناجى ربه بحديث ما سمعت أعذب منه ، لقد حفظت حديثه ، وإنك لتعلم ما أنا بالعربى ، وما حفظُ أحاديثكم علىّ بيسير » . قال عتبة : « فهات أعِدْ علينا ما سمعت » .

قال : سمعته يقول : « اللهم إليك أشكو ضعف قوّتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين . أنت ربّ المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ! إلى بعيد يتجهمنى ، أو إلى عدوّ ملكته أمرى ! إن لم يكن بك

علىّ غضبٌ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تُنزل بى غضبك ، أو تحلّ علىّ سخطك ، لك العتبى حتّى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

ولم يفرغ العبد من هذا الحديث حتّى أغرق فى بكاء هادئ ، وأغرق سيداه فى وجوم عميق . ثم ثاب القوم جميعاً إلى أنفسهم ، ونظر القرشيان أحدهما إلى الآخر نظرة المستخذى الآسف . ثم قال عتبة لعدّاس : « أنت وما تشاء يا عدّاس من حب صاحبك وطاعته . ولكن لا تنس أن لنا عليك حقّاً وطاعة . وإنا حريصان على ألا تظهر من أمرك شيئاً فتضطرنا فيك إلى ما نكره ، وتضطر قومنا فينا إلى ما تكره » .

ومضت أعوام وحدثت أحداث ، ونظر العبد الشيخ ذات يوم فإذا محمد صلى الله عليه وسلم قد ضرب عسكره حول الطائف يحاصر فيها ثقيفاً ، وكان عدّاس قد انتقل من ملك ابنى ربيعة بعد موتهما إلى الثقفيين ، وإذا نفسه تنازعه إلى صاحبه ، وإذا هو يحرّض الرقيق ويبث فيهم الدعوة إلى الخروج على ساداتهم واللحاق بجيش المحاصرين ، وإذا نفر من الرقيق يجتمعون إليه ، وإذا هم يقتحمون الأسوار ويهبطون إلى العسكر مسرعين ، وترميهم مقاتلة ثقيف بالنبل فتصرع منهم جماعة فيهم عدّاس ، قد مات قبل أن يبلغ صاحبه العظيم ، ويخلص سائرهم إلى النبى فيهديهم إلى الإسلام ويردّهم إلى الحرية ، وينصرف عن حصار الطائف ، حتى إذا أسلمت ثقيف تكلمت فى رقيقها أولئك وأرادت ردهم إلى الطاعة ، فيقول النبى الكريم : « كلا ! هؤلاء عتقاء الله » .

مصعب بن عمیر

١

كان غضَّ الشباب ، معتدل الخَلق ، ناضر الوجه ، مشرق الجبين . وكان عَذْبَ الصوت ، حلو الحديث ، لا تكاد تقع عليه العين حتى تهواه النفس ، ولا يكاد صوته يقع فى الأذن حتى يصبو إليه القلب . وكان حسن الزىّ معنيًّا بثيابه وشكله عناية ظاهرة ، لا يكاد يراه الرائى حتى يعلم أن له حظًّا من نَعمة ، وفضلا من يسار . وكان طيب النشر ، لا يمرّ بمجلس من مجالس قومه إلا قالوا هذا مصعب بن عُمير مقبلا ! يستدلون عليه بما يتقدّم من بين يديه من عَرف يتأرّج به الهواء . كان أبواه يحبانه ويؤثرانه ، وكانت أمه خاصة تقف عليه حبها وحنانها ، وتختصه بعنايتها ، وتحكمه فى ثروتها الواسعة ومالها الكثير .

وكان لهذا كله أحدوثةَ قريش وموضوع أسمارها ، تُعجبُ بجماله البارع ، وشبابه الرائع ، وحسن بزّته ، وكثرة ماله ، حتى كان النبى صلى الله عليه وسلم يتحدث عنه إلى أصحابه ، ويُعجب منه بما يُعجب منه الناس ؛ وكان سَمْحَ الخُلق ، رضىَّ النفس ، صافىَ الطبع ، مهذّب المزاج ، فلم يكن يَكلَفُ بما يكلف به فتيان قريش من الصيد والقنص ، ولم يكن يألف ما كان يألفه كهول قريش وشيوخها من حديث المال والأعمال ، وإنما كانت قصاراه حياة هادئة وادعة ، قوامُها حسن العشرة وصفو الحديث .

أقبل ذات يوم على المسجد فى الضحى ، وكان فارغ البال ، راضياً عن نفسه وعن الناس وعن كل شىء . وكان يتردد فى جوّ مكة نسيم بارد يبعث فى الأجسام نشاطاً للحركة ، وفى النفوس ميلا إلى هذا التفكير الذى لا رزانة فيه ولا هدوء ، وإنما هو تفكير سريع ، أوضح مظاهره الحديث والحوار . وكان قد لقى طائفتين من الرّفاق الذين خرجوا يدفعهم هذا النشاط إلى أن يلتمسوا ما ينفقون فيه فضل ما يجدون من قوة فى الجسم والعقل . فأما إحداهما فكانت تتهيأ للصيد ، وأما الأخرى فكانت تسعى إلى حانة من حانات اللهو عند رومىّ كان يبيع فى مكة نبيذ الشأم . دعته إحدى الطائفتين إلى الصيد فنفر منه ، ودعته الأخرى إلى الشراب فامتنع عليها . كان لا يحس من نفسه حاجة إلى هذه اللذة الآثمة التى يجدها أصحاب الصيد فى سفك دماء الحيوان البرىء ، وكان لا يجد راحة إلى هذا اللهو الذى يلعب فيه عقل العاقل وحلم الحليم بين الكئوس والأقداح . وأعرض عن أولئك وهؤلاء ، ومضى أمامه إلى المسجد كأنه آثر الاستماع إلى أندية قريش وهم يتحدثون فيما يعرض لهم من الأعمال اليسيرة أو الخطيرة . على أنه لم يكد يبلغ المسجد ويتقدم فيه حتى سمع حواراً لا يخلو من عنف ، فاستبشر ومنى نفسه ساعة قيّمة خصبة . وما كان ألذ الحوار يشترك فيه شيوخ قريش إذا جدّوا ! وما كان ألذ الحوار يشترك فيه شيوخ قريش إذا هزلوا أيضاً !

أقبل الفتى حتى دنا من أحد هذه الأندية ، فجلس غير بعيد واستمع

للقوم ، فإذا هم يختصمون فى هذا الرجل الذى أحدث فى مدينتهم حدثاً ليس منهم إلا كاره له ساخط عليه ؛ لأنه يغيِّر ما ألفوا من دين ، وينكر ما ورثوا من سنة ، ويؤلِّب الفقراء على الأغنياء ، ويثير الضعفاء بالأقوياء ، ويجمع إليه أخلاطاً من الناس ، فيهم الحر البائس ، والرقيق اليائس ، فلا يكاد يتحدث إليهم حتى يزيل ما بينهم من فروق ، وإذا هم جميعاً إخوان قد زال ما فى صدورهم من غلّ ، وصفا ما بينهم من صلة ، وإذا هم يد واحدة لو أذن لها صاحبها وخلى بينها وبين الحركة لأحدثت فى المدينة شرًّا عظيماً . وهذا الرجل يجمع هؤلاء الناس إليه ، فيعظهم وعظاً غريباً لم يسمعوا مثله من كهانهم فى مكة ، ولم يسمعوا مثله من وعاظ العرب فى الأسواق . وهم يستمعون إليه فيسيغون ما يقول وكأنهم يشربونه شرباً ، وإذا هم يبتهجون له حيناً فتشرق وجوههم بشراً وتتوقد عيونهم أملا ، وإذا هم يبتئسون له حيناً آخر فتعبس الوجوه ، وتتقطب الجباه ، وتفيض الدموع حارة غزيرة حتى تبتل بها اللحى ، ويجهشون بالبكاء فإذا صدورهم تضطرب لشدة ما يأخذ القلوب فيها من الوجيب . ما أجمل ما يعدهم ويمنيهم ! وما أروع ما ينذرهم ويخوفهم ! وما أشد سلطانه على نفوسهم وأبلغ استثاره بعقولهم ! ! ولئن خُلى بين هذا الرجل وبين المستضعفين من قريش وأحلافها ومواليها ومن يُلمّ بمكة من شُذّاذ الناس ليثورُنّ بكل شيء ، وليغيِّرُنّ كل شيء . والقوم يختصمون فى ذلك خصومة تختلف عنفاً ورفقاً باختلاف أمزجتهم وطبائعهم ، فمنهم الثائر الحاد

الذى يود لو أطلقت قريش يده فينهض إلى دار ابن أبى الأرقم هذه التى يجمع فيها محمد أصحابه إليه فيهدمها عليهم هدماً ، ولن يشق ذلك عليه إذا نهض معه نفر من فتيان مخزوم . ومنهم الشيخ الوقور الذى يذكر أمس ويفكر فى غد ويكره لقريش أن يُغير بعضها على بعض ويبطش بعضها ببعض ، ويرى أن قريشاً إنما سادت العرب لأنها أقامت أمرها على الشورى ، وجعلت الفصل فيما يعرض لها من الشر لهذه الأندية التى تتألف من الملأ لا لبأس الأفراد والجماعات ، ولا لسطوة الرئيس الذى يتفرد بالسلطان . وهو ينصح باستصلاح هذا الرجل وتقريب الأمد بينه وبين قريش ، ولو تكلفت قريش فى ذلك بعض المشقة وشيئاً من المال .

والفتى جالس غير بعيد يسمع رفق الرفيق ، وعنف العنيف ، ويود لو علم من أمر هذا الرجل الذى يختصم القوم فيه أكثر مما يقولون . فينهض متثاقلا ، ويخرج من المسجد ويسلك طريقه إلى دار ابن أبى الأرقم على الصفا . ولو أن الفتى سأل نفسه وهو يقطع الطريق بين المسجد وبين هذه الدار التى استقرت فيها الدعوة الجديدة عن هذه القوة العنيفة التى دفعته مع الضحى إلى المسجد ، وصرفته عن رفاقه وهم يدعونه إلى الصيد ، وصدفت به عن أصحابه وهم يرغّبونه فى الشراب ، وانتهت به إلى ندىّ قريش فأسمعته ما كان بينهم من خصومة وحوار ، ثم دفعته فى هذه الطريق التى يسلكها الآن إلى حيث يتحدث محمد إلى أصحابه — لو أن الفتى سأل نفسه عن هذه القوة الغريبة التى تحكمت فيه ، واستأثرت به منذ أصبح ، لما وجد لسؤاله جواباً ، ولا عرف لهذه القوة

أصلا ولا كنهاً . ولكنه لم يفكر فى شىء ، ولم يسأل نفسه عن شىء ، وإنما يمضى فى طريقه حتى يبلغ الدار ، فيطرق الباب طرقاً رفيقاً ، فإذا فُتح له دخل فحيا ثم جلس . والقوم ينظرون إليه فيعجبون لمنظره الرائع وزيّه الحسن وشكله الجميل ، وتحيا فى نفس كل واحد منهم أمنية خفية ، ولكنها قوية صادقة ، يودون جميعاً لو هدى الله هذا الفتى الوسيم الغنى إلى الإسلام ، فأصبح واحداً منهم ، وشاركهم فيما يستمتعون به من هذه النعمة الغضة الشاملة ، نعمة الإيمان بالله و بمحمد عبده ورسوله . إذاً لازدانت جماعة المسلمين ، ولاغتاظت قريش . تحيا هذه الأمنية فى نفوس القوم جميعاً فى لحظة قصيرة كأنها خطف البرق ، وتثبت فى نفوسهم وتقوى ، وإذا هى شعلة تتوقد بها هذه العيون التى تنظر إلى الفتى فى حب ومودة ، وكأنها تدعو نفسه إلى أن تتصل بنفوسهم . ويحس الفتى وقع هذه الأبصار عليه ونفوذها إلى نفسه ، ولكنه صامت لا يقول شيئاً ولا يأتى شيئاً .

ثم يتصل حديث النبى مع أصحابه فينذر ويُبشر ، ويقرأ القرآن . وما كاد القوم يسمعون صوت النبى حتى تتحول إليه عن الفتى أبصارهم وقلوبهم ، وإذا مُصْعَبٌ كأنه لم يدخل عليهم منذ حين ، أعرضوا عنه ثم نسوه ، ولكنه هو لا يستطيع أن يُعرض عنهم ولا أن يتناساهم ، فهو يلحظ انصرافهم عنه ، وإقبالهم على صاحبهم . ثم لا يلبث أن ينصرف معهم عن نفسه ، ويُقبل معهم على هذا البشير النذير ، فيسمع ويعى ، ثم ينهض فيدنو من النبى ، ثم يبسط يده ويعلن دخوله فى الدين الجديد .

٢

وكتم الفتى إسلامه دهراً مخافة أن تفتنه قريش ، أو تُنكره أمه ، وكان لها محبًّا وعليها شفيقاً ، وكان حريصاً على ألاّ يؤذيها ، ولعله كان حريصاً أيضاً على ألا تنقطع معونتها له وبرّها به ؛ فقد كان يجد من هذا البر وتلك المعونة ما ينفع به نفراً من أصحابه وإخوانه فى الدين . ولكن عثمان بن طلحة رآه ذات يوم وهو يصلى ، فما أسرع ما سعى به ، ودل عليه ! وما أسرع ما تنكرت قريش للفتى ! وما أسرع ما تنكر له أبواه ! وما أسرع ما مسه الضرّ وثقل عليه احتمال الحياة ! هنالك أصبح هذا الفتى السعيد كغيره من أصحابه فقيراً بائساً ، ولكنه كان كغيره من أصحابه صبوراً جلداً ، يجد فى الإسلام عما يلقى عزاءً وتسلية . حتى إذا اشتد الأمر بالمسلمين وأذن النبى لهم فى الهجرة إلى بلاد الحبشة ، هاجر معهم فأقام ما أقام ، واحتمل ما احتمل ، ثم عاد فأقام مع النبى ولزمه . وضاقت الأرض بالمسلمين مرة أخرى ، فكانت الهجرة الثانية إلى بلاد الحبشة . فهاجر الفتى مرة أخرى ، وأقام فى تلك البلاد ما أقام ، واحتمل فى تلك البلاد ما احتمل . وكأن صبره عن لزوم النبى لم يكن ميسوراً ، فآثر احتمال الأذى فى نفسه بقرب النبى

على الأمن والسلامة بعيداً عنه . فعاد إلى مكة سيئ الحال قد مسه الضر واشتد به البؤس ، فرثّت ثيابه حتى ما كانت تستر جسمه إلا فى مشقة وبعد حيلة واسعة ، وغلظ جلده وتخدد وقد كان سبطاً رقيقاً . وأقبل ذات يوم على النبي وأصحابه . فلما رآه المسلمون نكسوا رءوسهم وغضّوا أبصارهم رحمةً له وحياء من العجز عن معونته . وسلم الفتى فرد النبي عليه السلام وأحسن عليه الثناء وهو يقول : « لقد رأيت هذا وما بمكة فتى من قريش أنعم عن أبويه نعيماً منه ، ثم أخرجه من ذلك الرغبة فى الخير فى حب الله ورسوله ! » .

ولزم الفتى مجلس النبي فأطال لزومه ، واستمع الفتى للنبى فأحسن الاستماع ، وحفظ الفتى عن النبي فأتقن الحفظ ، وإذا هو من فقهاء الصحابة وأشدهم بالدين علماً . ثم تكون العقبةُ الأولى ، ويكتب المسلمون من الأنصار للنبي فى رجل من أصحابه يعلمهم القرآن، ويفقههم فى الدين ، فيرسل إليهم النبي مصعباً فيكون أول مبشر بالإسلام كلف نَشرَ الدين خارج مكة .

ويوفّق مصعب فيما كلّف من الأمر ، فإذا الأنصار يُقبلون على الإسلام أفواجاً ، وإذا سماحة خُلقه وعذوبة صوته وما يجرى فيه من حلاوة الإيمان وشدة الاقتناع ، كل ذلك يحببه إلى الناس ويعطفهم عليه . ولا يكاد يدنو موسم الحج حتى يشخص مصعب فى سبعين من الأنصار هم أهل العقبة الثانية . وبلغ الفتى مكة ، فلم يفكر فى أمه ولا فى أهله ، وإنما مضى قُدُماً حتى انتهى إلى النبي ، فخلا إليه وأطال عنده

المقام يُعلمه علمَ المدينة وينبئه بأخبارها ، والنبى عن ذلك راض وبه مسرور . ويطيل المقام عند النبي ، وتعلم أمه بمقدَمه ، فتبعث إليه من يلومه فى هذا الذى تراه عقوقاً ، ولكنه مع ذلك لا يفكر فى لقائها حتّى يفرغ من أمره عند النبي . فإذا زارها بعد ذلك لامته فى إبطائه عنها ولامته فى دينه ، واستعانت عليه بدموعها . وما أقوى الدموع عوناً للأمهات ! ! ولكن مصعباً قد صبر للشرّ كله ، فليصبر لدموع أمه أيضاً . وإذا هو يعظها ويدعوها إلى الإسلام ، فتأبى عليه وتنذره أن تفتنه عن دينه ، فيلقى نذيراً بنذير وشرًّا بشر ، ويعلن لئن حاول أحد فتنته ليحرصَن على قتل من يعرض له ؛ فتدعه أمه ، وينقطع لنبيه بعد ذلك فيقيم معه ؛ حتى إذا تهيأ النبيّ للهجرة تقدّم مصعب إلى المدينة فانتظره فيها .

٣

ويحمل مصعبٌ لواء النبي فى وقعة بدر فيعود به ظافراً منصوراً. ويلقى مصعب فى المدينة من الجهد والفقر ما يلقاه غيره من فقراء المسلمين ، فيحتمل ذلك راضياً به باسماً له . حتّى إذا كانت وقعة أحُد تقدّم مصعب باللواء بين يدى النبي حتّى يجد موقفه من ميدان القتال فيثبت فيه . وتشتد صدمة قريش للمسلمين فينكشفون ويتفرقون عن لوائهم . ولكن مصعباً أثبت قدَمه فى الأرض ، فهو لا يزول ولا يميل . ويُقبل عليه ابن قميئة (فارس من فرسان قريش) فيضرب يده بالسيف فيقطعها ويسقط اللواء ، فيأخذه مصعب بيده الأخرى ويجنأ[1] عليه . ويَكرّ عليه ابن قميئة فيقطع يده الأخرى ، ولكن قدم مصعب ثابتة وهو لا يزول ولا يميل ، وما زال اللواء مرفوعاً قد ضم عليه مصعب عَضُديه . ويكرّ ابن قميئة مرة ثالثة فينفذ الرمح فى صدر مصعب ، ويسقط مصعب ويسقط معه اللواء فيتلقاه أخوه أبو الروم . وما يزال اللواء مرفوعاً حتّى يبلغ المدينة[2] .

(١) يجنأ عليه : يكب عليه ليقيه .

(٢) طبقات ابن سعد طبع ليدن جزء ٣ قسم أول صفحة ٨٣ .

٤

وقد انجلت قريش منتصرة عن ميدان القتال ، وثاب المسلمون إلى الشهداء يوارونهم فى قبورهم ، فإذا مصعب قد خرّ على وجهه . وَيَهمّ المسلمون بدفنه فلا يجدون له كفناً ، إنما هو ثوب رث قصير ، إن أخفى رأسه أظهر رجليه ، وإن أخفى رجليه أظهر رأسه ، والنبى صلى الله عليه وسلم يرى فيتلو قول الله عز وجل : « مِنَ المؤْمنينَ رجالٌ صَدَقُوا مَا عاهدُوا اللهَ عليه فَمِنهمْ مَنْ قَضَى نَحبهُ وَمِنْهمْ مَنْ يَنتظِرُ وَمَا بَدّلُوا تَبديلا » .

ثم يأمر أن يغطى أعلاه بالثوب وأن يُلفّ أسفله برطب الكلأ ، ثم يقول : « إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة » . ثم يُقبل على الناس فيقول : « أيها الناس زوروهم وأتوهم وسلموا عليهم ، فوالذى نفسى بيده لا يسلم عليهم مُسلم إلى يوم القيامة إلا رَدّوا عليه السلام »[1] .

---

(١) طبقات ابن سعد طبع ليدن جزء ٣ قسم ١ صفحة ٨٥ .

طرید الیاسؔ

لم يذكروا فى تلك الليلة ماضيهم الحلو وحاضرهم المرّ ، ولم يتحدثوا عن أوطانهم تلك النائية التى كانوا ينعمون فيها بلذّات الحياة ، ويستمتعون فيها بخفض العيش ، ويسيرون فيها سيرة الأحرار ، لا يعرفون لأحد غير قيصر وعماله عليهم سلطاناً ، وقد يعرف لهم غيرهم كثيراً من السلطان والبأس ، وقد يقدّم إليهم غيرهم كثيراً من آيات الطاعة والإذعان . ولم يسمُروا بهذه الأحاديث التى تعوّدوا أن يسمروا بها إذا فرغوا من أعمالهم وانصرفوا إلى راحتهم ولقى بعضهم بعضاً حين ينقضى النهار ويتقدّم الليل ، والتى كانوا يستعيدون بها حياتهم تلك الجميلة المشرقة ، ويستحضرون بها مواطن لذاتهم ونعيمهم ، هناك حيث لا يشتد القيظ حتى ينضج الجلود ويصهر الأجسام ، وحيث لا تقع العين على الجبال الجرد والوهاد المقفرة ، وحيث لا تضيق الأرض بالناس ولا يضيق الناس بالأرض ، وحيث يستقبل الناس أيامهم راضين باسمين ، ويستقبلون لياليهم لاهين عابثين . كلا ! ولم يسمروا فى تلك الليلة بما كانوا يسمرون به من ذكر الفاتنات المفتونات اللاتى كن يحوّلن حياتهم أحلاماً ، ويجعلن جدّهم لعباً ، ويسرّين عنهم كل همّ ، ويغرين بهم كل نعيم ، يخلبنهم باللفظ واللحظ ، ويعذّبنهم

بالذّل والتيه ، ويُسعدنهم بالقرب والوصل ... كلا ! ولم يسمروا في تلك الليلة بأحاديث قيصر وقصره ، ولا بأنباء الحاكم وحاشيته ، ولا بقصص الحرب بين الفرس والروم . وأين هم الآن من قيصر وقسطنطينيته ! ! وأين هم الآن من تلك الثغور الباسمة القوية التي كانت تبسم لأهلها كأنها الجنات ، وتعبس لأعدائها كأنها الجحيم ! وأين هم الآن من الفرس والروم ! وأين تكون مكة من ميادين الحرب بين الفرس والروم ! كلا ! ولم يسمرُوا في تلك الليلة بما كانوا يسمرون به أحياناً من أحاديث ساداتهم ومواليهم ، ومما كان يتصل بينهم من التنافس والجهاد ، ومما كان يُدبَّرُ بينهم من الكيد والمكر ، ومما كان يجتمع لهم من الغنى والثراء ، ومما كان يُلمّ بهم من الحوادث والخطوب . كلا ! ولم يسمروا في تلك الليلة بما كانوا يسمرون به أحياناً من أحاديث هذه القوافل التي تفصل من مكة إلى الشام ، فتمضي معها نفوسهم تسايرها في تلك الطرق البغيضة التي يذكرون طولها وثقلها حين قطعوها عُناةً أذلاء ، يساقون إلى مكة عبيداً أرقاء ، والتي كانت تعود إلى مكة قافلة من الشام تحمل من أرض قيصر أنباء مختلطة وأحاديث مشوّهة مضطربة ، ولكنهم كانوا يتلقفونها ثم يتناولونها بالتأليف والتصنيف ، وبالتحليل والترتيب ، حتى يكوّنوا منها شيئاً مستقيماً أو كالمستقيم ، ثم يتخذون منه علماً بأمور أوطانهم تلك التي لم يبق لهم إليها سبيل .

كلا ! لم يسمروا في تلك الليلة بشيء من هذا ؛ لأن أحاديث مكة شغلتهم عن كل هذا . وما لها لا تشغلهم وصاحبهم لِسياسُ قد اشترك

فيها وآثار كثيراً منها ! ! وها هو ذا قد اتخذ مكانه بينهم كئيباً كاسف البال ، محزوناً بادى الحزن ، قد اضطربت نفسه أشد اضطراب ، وهو يتحدث إليهم فى صوت متقطع مظلم كأنما أسبغ الحزن والندم واليأس عليه ظلمة كثيفة متراكمة لا تنكشف عن شىء . وما له لا يكتئب ولا يبتئس ! وما له لا يحزن ولا يندم ! وما له لا يفزع ولا يجزع ، وقد سفكت يده المسيحية دماً بريئاً ولما ينتصف النهار ! !

وكان هؤلاء النفر جماعة من نصارى الروم دفعوا إلى بعض أطراف الصحراء ، وعدت عليهم بعض القوافل فاتخذتهم تجارة ، وتقلبت بهم أحوال الرق حتى انتهوا إلى ملك جماعة من سادة قريش . وكان لسياس أنقاهم ضميراً ، وأصفاهم قلباً ، وأعظمهم حظًّا من الدين . وكان لهذا كله أصبرهم على ما ألمّ به من كرب ، وأحسنهم احتمالا لما سلّط عليه من محنة ، وأعظمهم رضاً بهذه النكبة التى كان ينظر إليها على أنها اختبار له ، وابتلاء لإيمانه ، وامتحان لثقته ، وتهيئة لنفسه لتحيا حياة السعداء إذا انقضت إقامتها فى هذا العالم الشقى البغيض . ولكنه أظهر فى تلك الليلة غير ما تعوّد أن يظهر لأصحابه من الجلد والصبر ، ومن الإباء والاحتمال . وهم يعزّونه ويرفقون به فى العزاء . وهم يلومونه ويعنفون عليه فى اللوم . وهم يأتون نفسه من جميع أنحائها يريدون أن يصرفوها عن هذا الحزن العميق ، وأن يصرفوا عنها بعض الهم الثقيل ، ولكنهم لا يبلغون منه شيئاً ولا يزيدونه إلا إغراقاً فى الحزن وغلوًّا فى اليأس . وربما بلغوا بأحاديثهم قرارة نفسه فأثاروها ودفعوه إلى

الحديث ، فإذا هو يتكلم بكلام تقطعه العبرات وتبلله الدموع .

وكان لسياس ملكاً لصفوان بن أمية ، وكان قد أنفذ فى ذلك اليوم أمره فى أسير من أسرى الأنصار يقال له زيد بن الدثنة ، دفعه إليه صفوان وأمره أن يخرج به من الحرم ، حتى إذا بلغ به التنعيم قتله ثم عاد . ولم يكن مثل هذا العمل يحبب إلى لسياس ، ولكنه لم يكن خليقاً أن يدفعه إلى مثل هذا اليأس المهلك ، لولا أنه عرف من أمر أسيره وصريعه ومن أمر أصحابه ما عرف ، ولولا أنه رأى من أمر زيد ما رأى ؛ وسمع من أمر خبيب ما سمع ، وانتهت إليه أحاديث أولئك الذين أدركهم الموت قبل أن يحملهم إلى مكة ويبيعهم لقريش غدر الغادرين من هذيل . ولكنه عرف ما عرف ، ورأى ما رأى ، وسمع ما سمع ، فذكر أموراً كان يقرؤها فى الكتب ، وأحداثاً كان يهلع لها حين يسمع أنباءها من الوعاظ .

ذكر أولئك الشهداء الذين قتلوا فى المسيحية تقتيلا ، والذين امتحنوا بما كتب الله عليهم من ضروب المحن وفنون الكيد ، فلم تضعف نفوسهم ، ولم تهن عزائمهم ، ولم يفرطوا فى دينهم ، ولم يجد الشك إلى نفوسهم سبيلا .

ذكر أولئك الشهداء الذين أقاموا مجد المسيحية على أشلائهم ، وغذوه بدمائهم ، وقووه بضعفهم ، وأعزوه بما احتملوا فى سبيله من الذل ، وأيدوه بما لقوه فى سبيله من الأذى والآلام . ذكر أولئك الشهداء الذين كان يكبرهم ويجلهم ، ويرى أنهم شفعاؤه وشفعاء أمثاله

عند الله ، وأنهم قدوته الصالحة وأسوته الحسنة ومثله الأعلى ، وأنه أسعد الناس لو استطاع أن يظفر ببعض ما ظفروا به من عذاب الدنيا ونعيم الآخرة ، ومن ذل الدنيا وعز الآخرة ، ومن هذا الموت الهين السريع الذى تتبعه حياة باقية سعيدة متصلة لا حدّ لما فيها من نعيم.

ذكر هؤلاء الشهداء ، وذكر أنه لم يزد حين أطاع أمر مولاه صفوان على أن قتل واحداً منهم ، واقترف ذلك الإثم الذى اقترفه الظالمون الذين اضطهدوا الشهداء وفتنوهم ، ثم قدّموهم قربانا إلى آلهتهم وأوثانهم فى الزمن القديم . هنالك اضطربت نفسه اضطراباً ، وزُلزل قلبه زلزالا ، ورأى حياته كلها وقد استحالت إلى شر منكر ، ورأى ما قدّم من الخير وقد استحال إلى فساد ، ورأى ما احتمل من الآلام وقد أصبح هباء . وهنالك ملك الندم عليه أمره ، وملأ اليأس عليه قلبه ، وعجز أصحابه عن أن يمسوا نفسه بما كانوا يقدّمون إليه من تسليه أو عزاء.

على أنه لم يكن يحس فى نفسه شيئاً من المَوْجدة على مولاه صفوان ، ولم يكن يضمر له شيئاً من البغض ، إنما كانت موجدته كلها وحقده كله قسمة بين نفسه وبين امرأة من قريش ، هى سُلاَفَةُ بنت سعيد بن سهم زوج طلحة بن عبد الله بن عبد العزّى.

كان واجداً على نفسه أشد الموجدة ، مبغضاً لها أشد البغض ؛ لأنها أثمتْ بقتل هذا الرجل الشهيد . وكان حانقاً على سُلافةَ حاقداً عليها ، لأنها هى أصل هذا الشر ، ومصدر هذا الإثم ، ومنشأ هذا البلاء.

وكان يقول لأصحابه : « لولا أن هذه المرأة الآثمة نَذَرَتْ ما نذرت ،

وأذاعت ما أذاعت فى أهل البادية، لـَما دُفع صفوان إلى ما دُفع إليه، ولما ظفر صفوان بما ظفر به ، ولَما اشترى أسيره ، ولما أنفذتُ أمره فيه ».

قال أصحابه : « وما تَنذرُ سُلافة ! وماذا أذاعت فى الأعراب ؟ » .

قال : « أتذكرون يوم حشدت قريش لحرب صاحبها فى يثرب كيف كان أشراف مكة موتورين يأكل قلوبهم الغيظ ، وتملأ نفوسهم الحفيظة، وتضطرب أمامهم أشباح الخزْى ! يذكرون هزيمتهم حين لَقوا صاحبهم لأول مرة ففعل بهم الأفاعيل ، وترك من أشرافهم صَرْعَى لم يثوبوا إلى أهلهم ولم يستمتعوا بتجارتهم تلك الرابحة التى أنقذها أبو سفيان. ويشفقون أن يتراءى لهم الموت فلا يثبتوا له ولا يقدروا على النظر إليه فيفروا منهزمين ، كما فروا من قبل ، ويتركوا صَرْعَى من أشرافهم كما تركوا مثلهم من قبل . هنالك أجمعوا أمرهم على أن يتقوّوا بالنساء ويتقوا بهن الهزيمة والعار ؛ فاختاروا منهن أعلاهن قدراً وأرفعهن شأناً وأنبههن ذكراً وأقدرَهن على دفع الرجال إلى غمرات الموت . وكانت سُلافة بين هؤلاء النساء ، خرجت مع زوجها وبنيها الثلاثة ، وعادت مع المنتصرين أيّماً ثكلى قد فقدت زوجها وفقدت بنيها » .

ثم سكت لسياس كأنما يستحضر هولاً يروع النفوس ويخلع القلوب . ثم عاد إلى حديثه فى صوت هادئ بعيد فقال : « إن كانت لَوْقعةٌ مروّعة حقًّا تلك التى كانت عند يثرب ! لقد عادت قريش تتحدث بالأعاجيب . لقد عادت تتحدث بالإخوان يسعى بعضهم إلى بعض بالموت . لقد عادت تتحدث بالأمهات يدفعن أبناءهن إلى أن

يقتل الرجل منهم أخاه . لقد عادت تتحدث بأم مُصعب بن عُمير وقد قُتل ابنها مصعب، فما كانت لتُظهر عليه حزناً أو جزعاً لأنه كان من خصم قريش وأصحاب محمد . لقد عادت قريش منتصرة تتحدث بأمر سُلافة هذه وقد فقدت زوجها وتلقت ابنيها أحدهما بعد صاحبه يبلغها وقد أصابه السهم ، فتضع رأسه على حجرها وتسأله : يا بُنيّ من أصابك؟ فيقول ما أدرى ، ولكنى سمعت قائلا يقول : خُذْها وأنا ابن الأقلح ، ثم أصابنى السهم . يقول ذلك ثم يجود بنفسه بين ذراعيها . هنالك نذرت سُلافة : لئن قدرتْ على قاتل ابنيها لتشربنّ فى قحف رأسه الخمر . وهنالك أذاعت فى أهل البادية وأعراب الحجاز أن من جاءها برأس ابن الأقلح هذا فله مائة من الإبل . هذا أصل الشر ، وهذا مصدر البلاء » .

قال قائل : « وأىّ شيء لا يفعله الأعراب فى سبيل جزور فضلا عن عشرة من الإبل ! فضلاً عن مائة من الإبل ! ؟ » . قال لسياس : « والغدر أيسر ما يفعله الأعراب ليبلغوا أيسر من هذا المال .

« أقبل جماعة من هُذَيل على صاحب يثرب ، فزعموا له أنهم قد آمنوا به وأسلموا له ، وأن دينه قد فشا فيهم ، وسألوه أن يرسل معهم من يفقههم فى الدين ويعلمهم شرائعه، يُظهرون الإخلاص ويضمرون الغدر، لا يبتغون إلا أن يظفروا بنفر من أهل يثرب يبيعونهم من قريش لتصيب بهم ثأراً وليصيبوا بهم مالاً . ويريد الله لأمر قضاه أن يختار نبىّ يثرب ستة من أصحابه ، وأن يؤمّر عليهم عاصم بن ثابت بن الأقلح

الذى كانت تبتغيه سُلافة ، وأن يرسل هؤلاء النفر من أصحابه مع أولئك الغادرين . فما هى إلا أن يقربُوا من مكة حتى يظهر الخفىّ ويصرّح الشرّ ويتبين الغدر ، وإذا الذين كانوا يعلنون إيمانهم يستصرخون فيأتيهم الصريخ من هذيل ، وإذا أصحاب محمد يرون الغدر فينحازون إلى الجبل . ويعاهدهم أعداؤهم على ألا يقتلوهم ولا يمسوهم بأذى إن هم ألقوْا بأيديهم . فأما عاصم واثنان من أصحابه فيقسمون لا ينزلون على عهد كافر أبداً ، ويقاتلون حتى يُقتلوا . وأما الآخرون فيحبون الحياة ويلينون لها فيستأسرون ؛ ولا يكادون يفعلون حتى يروا الغدر ، فيأبى أحدهم أن يتبع الغادرين وإذا هو مقتول . ويبقى الآخران أسيرين ، يُحملان إلى مكة ويباعان فيها . فيشترى أحدهما صَفوان ويأمرنى به فأتمّ له ما قُدّر له من نعيم ، ويتم لى ما قُدّر لى من شقاء » .

ثم يجهش لسياس بالبكاء ويغرق فيه حيناً ، ثم يعود إلى حديثه فى صوته ذلك الهادئ البعيد فيقول : « لقد عرفت ورأيت من أنباء هؤلاء الناس ما لم أكن أقدر أن أعرف أو أرى . ولولا أن الشقاء مقضىٌّ علىّ ومقدور لى ، لكان فيما عرفت قبل أن أقترف الإثم صارفٌ لى عن اقترافه . وماذا كنت أخاف لو عصيت صفوان ولم أسفك هذا الدم الحرام ! ! وأيهما أهون علىّ وأيّهما كان خليقاً أن أوثره : الموت بيد صفوان أم الشقاء الأبدىّ الذى دفعت إليه ؟

« لقد فرحت هذيل بمقتل عاصم بن ثابت ، وقالت : مائة من الإبل تدفعها إلينا القرشية حين نأتيها بهذا الرأس ! ثم أقبلوا إليه يريدون

أن يحتزّوا رأسه . ولكن ماذا سمعتُ وماذا تسمعون ؛ هذه ظُلةٌ من الدّبْر[١] تقوم دونه فتحميه وتمنعهم أن يصلوا إليه . فيقول بعضهم لبعض دعوه حتى يأتى الليل ، فستنصرف عنه هذه الدّبْرُ ، وسيخلص لنا رأسه. حتى إذا كان الليل همّوا أن يسعوا إليه ليحتزوا رأسه . ولكن ما سمعتُ وماذا تسمعون ! ! لم يبلغوه ولم يمسوه ، وإنما أقبل السيل فاحتمله ، ومضى به إلى حيث لا تبلغه يد . ولقد حُدّثت أن هذا الرجل كان قد نذر ألاّ يمس كافراً ولا يمسه كافر . ولقد حُدّثت أنه لما امتنع على القوم فقاتلهم وقاتلوه ، رفع صوته ضارعاً إلى ربه وهو يقول : « اللهم إنى قد حميت دينك أول النهار فاحم لحمى آخر النهار » . ولما بكى لسياس عند هذا الحديث لم يبك وحده ، وإنما بكى معه أصحابه جميعاً بكاءً طويلا . حتى إذا تكففت[٢] عَبْرته وهدأ عنهم البكاء مضى فى صمته . ولكنهم ألحوا عليه أن يتم ما بدأ من الحديث . فقال : « وبم تريدون أن أتحدث إليكم ؟ لقد كنت أقرأ أخبار شهدائنا وأسمع أحاديثهم ، فأرهبها وأكبرها وأخافها وأرغب فيها ، وأودّ لو أنى حييت فى تلك الأيام التى كانت ترخُص فيها الحياة ويغلو فيها الإيمان ، وأود لو أنى كنت واحداً من هؤلاء الناس الذين باعوا نفوسهم من الله ؛ فقد أتيح لى اليوم أن أعيش فى بيئة الشهداء وأن أراهم وأتحدث إليهم وأن أسمع منهم ، ولكنى لم أبع نفسى من الله ، وإنما بعتها من الشيطان ، ولم أسفك دمى فى سبيل الله ، وإنما سفكت دم شهيد كريم .

---

(١) الدبر هنا : جماعة النحل والزنابير

(٢) تكففت عبرته . ارتدت .

« ولقد سمعت أبا سفيان زعيم قريش يسأله : " أيحب أن يقوم محمد مقامه هذا وأن يكون هو آمناً بين أهله ؟! " فيجيبه : " والله ما أحب أن تصيب محمداً شوكة تؤذيه وأنا آمن بين أهلى " . فيقول أبو سفيان لمن حضر من أشراف قريش : " ما رأيت أحداً يحب أحداً كما يحب هؤلاء الناس صاحبهم " . ثم تمتد يدى الآثمة إلى هذه الحياة الطاهرة فتطفئ سراجها ، وإلى هذا الدم الزكى فتسفكه على الأرض مخافة من غضب صفوان . يا للهول ! لقد كنت أحسب أن صفوان لم يملك إلا جسمى وأن نفسى ما زالت حرة ؛ فقد علمت الآن أنى رقيق حقًّا . وقد علمت الآن أن سلطان السادة على الأرقاء قد يتجاوز الأجسام إلى النفوس . وقد علمت الآن أن الرجل الذى يرضى بالرقّ ولا يموت دون الحرية إنما يقتل نفسه قتلا . لقد قتلت نفسى يوم آثرت الحياة وقبلت أن أكون سلعةً فى يد أولئك التجار » .

قال رجل من أصحابه : « وإن كان صديقك هذا شهيداً كريماً — وما أراه إلا كذلك — فإن رفيقه الذى قتله بنو الحارث بن عامر لم يكن أقل منه كرامة . ولعل مصرعه أن يكون أشد من مصرع صاحبه ترويعاً للنفس وتمزيقاً للقلب . لم يبسطوا عليه بالشرّ يد مولًى من مواليهم أو عبد من عبيدهم ، وإنما كانوا ظماءً إلى دمه ، حراصاً على أن يخمدوا جذوته بأيديهم . خرج به جمعهم إلى التنعيم ، فلما أرادوا قتله استأذنهم فى أن يتقرب إلى ربه بالصلاة قبل أن يخطو آخر خطواته فى الحياة ؛ فأذنوا له ، فصلى ركعتين ثم قال لهم : لولا أنى أخاف أن تظنوا بى الجزع لزدت.

ثم ينهض إليه أحدهم فيقتله ويعودون عنه وإنهم ليتحدثون عن أخلاقه وخصاله بما كان خليقاً أن يصرفهم عن قتله ، لولا أن قلوبهم قست فهى كالحجارة أو أشد قسوة . لقد كانوا يقولون : إنهم جعلوا سجنه عند امرأة منهم ، وإن هذه المرأة كانت تتحدث إليهم عن أمره بالأعاجيب . كانت تراه مغلولا يأكل من الفاكهة والثمر ما ليس لأهل مكة عهد به فى مثل هذا الوقت ، لا تدرى كيف سيق إليه ؛ ولقد أنبأتهم أنه حين أظله اليوم الذى كان يراد قتله فيه طلب إليها موسى يتهيأ بها للموت ، فأرسلتها إليه مع طفل صغير يدرج ، ثم لم تلبث أن راعها ما فعلت وأن امتلأ قلبها رعباً وأن قالت لنفسها : ما يمنع هذا الأسير أن يقتل هذا الصبىّ فيثأر لنفسه قبل أن يدركه الموت ! ! وأقبلت عليه مسرعة ، فإذا هو قد أجلس الطفل على فخذه وهو يداعبه ويلاعبه ، وأكبر الظن أنه كان يودّع فيه طفلا له بعيداً . فلما رأى المرأة مقبلةً وقد أخذها الروع ابتسم لها ابتسامة الحزن ، ونظر إلى الطفل نظرة الحب ، وقال للمرأة : أشفقت على هذا الصبىّ من الغدر ؟ ليس الغدر من أخلاقنا .

« أفقتل هذا الرجل كان خليقاً أن تقدّمه قريش فتقتله لو أن قريشاً تعرف الحق ، أو تقدر الخير ، أو ترجو لله وقاراً ، أو تحس فى قلوبها أثراً من آثار الرحمة والبر ! ! » .

قال قائل منهم : « ما أرى إلا أن لهؤلاء الناس من أهل يثرب شأناً . فلو أنهم يُقيمون أمرهم على شىء من باطل هذه الحياة الدنيا لما استقبلوه بهذا الحزم ، ولما احتملوا فى سبيله هذه الأهوال ، ولما رخُصت عليهم

نفوسهم ودماؤهم وأموالهم وأهلوهم إلى هذا الحد . والله إنى لأسمع ما يقال وأرى ما يحدث ، فلا أشك فى أن أهل هذه الأرض يستقبلون عصراً كذلك العصر الذى استقبله أهل بلادنا حين انبعث فيهم رسل المسيح : هذا الإيمان الذى زُين فى بعض القلوب حتى زهّدها فى كل شىء ، هذا اليقين الذى سيطر على بعض النفوس حتى هوّن عليها كل شىء ، هذه المعجزات التى تساق إلى الناس فى يسر وسذاجة وما كانوا ينتظرونها ولا يرجونها فلا تغرّهم ولا تطغيهم ولا تدفعهم إلى أشر ولا بطر .

« كل هذا دليل واضح على أن السماء لم تقرُب من الأرض قربها فى هذه الأيام ، وعلى أن أخبار السماء لم تتصل بالأرض اتصالها فى هذه الأيام ، وعلى أن الله يريد بالناس شيئاً لم نكن نقدّر أنه كائن ولكنّ أوانه قد آن . أمّا إنى لاحقٌ بهؤلاء الناس إن استطعت إلى ذلك سبيلا » .

قال آخرون : « ما أيسر ذلك وما أعسره ! وأنى لمثلنا أن يُفلت من سادة قريش ، وإن من حول مكة من أهل البادية لأرصاداً على من أقبل من يثرب أو قصد إليها من الأحرار ، فكيف بالرقيق ! » .

قال لسياس وهو ينتحب : « فكروا فى ذلك ودبروا ، وتهيأوا لذلك واستعدوا ؛ فأنتم أهلٌ لهذه الكرامة إن كان الله قد قضاها لكم . أما أنا فقد كتب علىّ الشقاء ، وما أرى أن بحار الأرض لو سُلطتْ على التنعيم تستطيع أن تغسل هذا الدم الزكىّ الذى سفكته هذه اليد الآثمة . »

ثم قام عنهم يعدو مشتداً فى العدو ، فلم يروا له بعد ذلك أثراً ولم يسمعوا عنه بعد ذلك خبراً .

نزیل حمص

قال عمير بن عبد الله السلمىّ لمحمد بن نصر الكلابىّ : « إن لله فيما يأتى من الأمر لحكمة بالغة، يفهمها الناس حيناً ويقصرون عن فهمها فى كثير من الأحيان . وإن الرجل الرشيق خليق أن يتعظ بما فهم ، وألا يُلحّ فى تأويل ما لم يفهم ، وأن يطمئن قلبه إلى أن حكمة الله بالغة ، وإلى أن قضاءه مُنته إلى الخير دائماً » .

قال محمد بن نصر لصاحبه : « هو ذاك ، وما أظن أن أحداً منا ينكر ذلك أو يمارى فيه ، فما تحدّثك به ؟ وما هذا التفكير العميق الذى أرى آثاره بادية فى وجهك ؟ » .

وكان هذان الرجلان من فتيان قيس ، شديدى البأس ، قد ملأ قلبهما إيمان قوىٌّ بالله ، وحفاظ قوىّ للعرب ، واعتزاز قوى بالنفس ، وحب قوى للجهاد . وكانا قد مضيا مع الصائفة غازيين، حتى بلغا ثغراً من ثغور الروم ، فأمعنا فى الغزو ولقيا فيه من الجهد والشدة واحتملا فيه من المشقة والبلاء شيئاً عظيماً ، لم يزدهما إلا إيماناً على إيمان ، وحفاظاً إلى حفاظ ، وحبًّا للجهاد إلى حبهم القديم للجهاد . وكان الله عز وجل قد قضى لهما أن يعودا من هذه الغزوة موفورين، فلما بلغا مأمنهما مع الجيش من بلاد المسلمين نذرا لئن مدّ الله حياتهما حتى ينقضى الشتاء وتستأنف الصائفة من قابل غارتها على بلاد الروم ، ليكوننّ لهما فى هذه

الغارة بلاء ، وليضعن كل واحد منهما نفسه فى مقدمة الجيش المغير . وكانا قد أزمعا من أجل ذلك ألا يبعدا فى الرجوع إلى موطنهما ، وأن ينفقا فصل الشتاء فى مدينة من مدن المسلمين المنبثة فى الشام ، والتى ترابط فيها الجنود ، قد قسمت بينها تقسيماً ، ووزعت عليها توزيعاً . ولم يكونا من أصحاب الديوان فى جند من أجناد الشام ، وإنما كانا رجلين قد باعا أنفسهما من الله وتطوعا فى الجهاد ، وأقبلا يبتغيان المثوبة ، فلحقا بالصائفة فيمن يلحق بها من المتطوعين ، ولم يصرفهما عن حمص أنها لم تكن للمضرية داراً . وما يريدان إلى المضرية أو إلى اليمنية وهما إنما يمران بهذه المدينة مروراً وينتظران أن ينقضى فصل من فصول العام ويقبل فصل آخر ليستأنفا نشاطهما وليقبلا على ما يبتغيان من ثواب الله مجاهدين ! !

فلما استقر بهما المقام فى حمص أياماً وأسابيع ، أخذا يدوران فيها ويتعرفان بعض أمرها ، ويسمعان إلى ما كان يجرى على ألسنة أهلها من بعض الحديث . وقلما كان أحدهما يخرج منفرداً ، إنما كانا فى أكثر أوقاتهما متلازمين ، كأن ما دفعهما إلى الهجرة من أوطانهما قد جمع بين نفسيهما فى الجهد والبأس ، كما تجمع بين نفسيهما فى الرخاء واللين ! فقلما كانا يفترقان أثناء الغارة على اختلاف الأحوال وتباين الخطوب التى كانت تعرض للجيش وتلم بالمغيرين . وهما الآن لا يفترقان أو لا يكادان يفترقان ، وقد أظلهما الأمن وضمنتهما سلم لا يخافان معها شدة ولا بأساً ولا فراقاً .

ولكنهما فى هذا اليوم لم يكادا ينفتلان من صلاة الغداة حتى فرّقت بينهما حركة الناس وازدحامهم مسرعين ، كأن هناك أمراً ذا بال يروعهم ويدفعهم إلى أن يشهدوا مشهداً يجب أن يشهده الناس . وقد دُفع محمد بن نصر مع المزدحمين وأسرع مع المسرعين ، لم يكن له فى ذلك رأى أوّل الأمر ، ولكنه لم يلبث أن حمد ما أدركه من ذلك ، فمضى مع الماضين مختاراً لا كارهاً ، وحرّص على أن ينتهى إلى حيث كانوا يريدون أن ينتهوا . وقد سمع ما سمع ، ورأى ما رأى ، وامتلأ قلبه بالعظات والعبر ، وشُغل عقله بالتفكير المتصل العميق . حتى إذا تفرّق الناس وكلهم يملأ نفسه العجب عاد إلى صاحبه يحدّثه بما سمع ، ويحدثه بما رأى ، ويبدأ حديثه بهذا الكلام الذى أوجزته لك آنفاً .

فلما سأله صاحبه عما به قال : « لقد شهدت اليوم أمراً عظيماً : شهدت جنازة رجل ملأ قلوب الناس حبًّا وبغضاً ، ورضاً وسخطاً ، وأثار فى نفوسهم كثيراً من الحفيظة بل حفيظة لا تنتهى ، وأثار فى نفوس الناس كذلك إعجاباً وإكباراً ، وأطلق ألسنة الناس بالذم الشنيع ، وأطلق ألسنة الناس بالثناء الكثير ، ورسم على وجوه الناس آثار الموجدة المنكرة ، ورسم على وجوه الناس كذلك آثار الاعتراف بالجميل ، ورسم على وجوههم بين ذلك ابتسامات فيها سخرية وازدراء ، وفيها عطف وإشفاق . ثم رأيت الناس يعودون من تشييعه إلى قبره وإن الحيرة لتملأ قلوبهم ، وإن الشك ليضطرب فى نفوس كثير منهم ، وإنهم على هذا كله ليقولون فيما بينهم مثل ما كنت أقوله لك منذ

حين ، وإنهم على هذا كله ليظهرون الثقة بحكمة الله البالغة والاطمئنان إلى عفوه الذى ينال به من يشاء » .

قال عمير بن عبد الله : « ما رأيت كاليوم رجلاً يُؤْثر التلميح على التصريح ، ويقصد إلى الغموض دون الوضوح . فحدّثني بحديثك — لا أبا لك — ولا تُطلْ ، فما تعودت منك إطالةً ولا إملالاً » .

قال محمد بن نصر : « فالله يعلم ما آثرت تلميحاً ولا اجتنبت تصريحاً ولا قصدت إلى غموض ولا تنكبت وضوحاً ، وإنما أصوّر لك نفسى كما أجدها . وما أدرى كيف أتحدث إليك بهذا الحديث . وما أعرف من أين آخذه : آخذه من مبتدئه أم آخذه من منتهاه ، أم آخذه مما بين ذلك ؛ فإن كل موضع منه تملؤه العبرة والعظة ، وتظهر فيه هذه الروعة التى تتأثر لها القلوب وتفكر فيها العقول . إنه رجل لم يعرف الناسُ من أول أمره إلا أنه كان عبداً حبشيًّا لسيد من سادات قريش فى مكة وهو جُبير بن مُطعم . وكانوا يرونه فتى شديد البأس عظيم الأيد ، شجاعاً جريئاً ، يعمل لسيده فيما يعمل فيه الرقيق . ولو أن الرّق لم يعرض له لكان خليقاً أن يسود فى بلده وبين قومه هؤلاء السود . ولكن الرق عرض له كما عرض لكثير من أشراف الروم والفرس ، فألقاه إلى هذا الحىّ من قريش ، وفرض عليه ما يفرض على الأرقّاء من الخنوع والخضوع ومن الذلة والهوان ، ومن العمل فيما لا يعمل فيه أصحاب النجدة والمروءة من الناس . وكان هذا الفتى ضيّقاً بحياته أشد الضيق ، منكراً لها أعظم الإنكار ، جامحاً حين يتاح له الجموح ، شامساً حين يتهيأ

له الشموس ، لا يُخفى بغضَه للرِّق وطمعه فى الحرية مهما يكلفه ذلك من غضب سادته وزجرهم ، وإعناتهم له وإلحاحهم عليه بالإعنات. وكانت قريش قد لقيت من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه جهداً شديداً يوم بدر ، وفقدت جماعة من ساداتها وأشرافها ، وذاقت الهزيمة المنكرة ، وذاقت فَقدَ الأحباء ، وذاقت هذا الذلّ الذى يكره العرب أن يذوقوه ، ذُلّ الموتور الذى لم يُدرك وِتْرَه . وكانت قريش تتجهز لإدراك الوتر والأخذ بالثأر ، وشفاء حزازات النفوس ، وإرضاء قتلاها من أهل القَليب . وكان جبير بن مطعم قد فقد عمه طُعيْم بن علىّ يوم بدر ، وكان حريصاً على أن يثأر به وينتقم له من قاتله . ولم يكن قاتله إلا حمزة بن عبد المطلب عم النبى ، وأسد الله وشجاع قريش ، وحامل لواء المسلمين لأوّل ما عُقد اللواء ».

قال عمير بن عبد الله : « فإنك إنما تتحدث عن وحشىّ ، فما خَطبه ؟ وما الصلة بينه وبين هذا الرجل الذى شهدتَ جنازته منذ اليوم ؟ ».

قال محمد بن نصر : « فإن هذا الرجل الذى شهدت جنازته منذ اليوم هو وحشىّ نفسه » .

قال عمير : « ليتنى عرفت مكانه من هذه المدينة حين أقبلت إليها ، إذاً لسعيت إليه ، ولسمعت منه ، ولسألته عن بلائه ذلك المنكر » .

قال محمد بن نصر : « وكذلك قلت لنفسى أنا منذ حين ، ولكنى رأيت من رآه ، وسمعت ممن سمع منه . ولقد رأى من رآه رجلا كان خليقاً أن يُرى ، وإن الذين سمعوا منه ليتحدثون من أمره بالأعاجيب .

قال له سيده حين أجمعت قريش أمرها : إنى أرى شوقك إلى الحرية وكلَفك بها ، وإسرافك فى الجموح ، وامتناعك عما لا ينبغى لمثلك أن يمتنع عنه من الطاعة والإذعان لمواليه . وإنى أعرض عليك هذه الحرية التى تهواها . فإن شئت فأدِّ ثمنها ، وما أظنك تفعل . قال العبد : « فقد شئتُ أن أؤدّى إليك ثمن هذه الحرية لو أنى أستطيع أن أبلغه فى جو السماء أو فى أقصى الأرض » ، قال جبير : « فإنه أدنى إليك من ذلك ، إنه فى يثرب ، فاذهب مع قريش فى حربها هذه التى تتجهز لها ، ثم عدْ إلىّ بمقتل حمزة وأنت بعد ذلك طليق » .

قال العبد : « أمّا أنى ذاهب مع قريش فعائد إليك بمقتل صاحبك أو لاق من دون ذلك الموت ؛ فهو أهون علىّ وآثر عندى من حياة الرقيق » .

ولقد سمع الناس منه حديثه عن ذلك البلاء المنكر الذى أبلاه يوم أحد ، وما أرى إلا أنك تعرفه كما أعرفه ؛ فقد أخذ يرقب حمزة وهو يقوم من المسلمين مقام الأسد يذود عن أشباله ، يهدّ الجيش بسيفه هذًّا [١] ، والناس يرونه من بعيد كأنه الجمل الأورق [٢] ، فتمتلئ قلوبهم لمنظره رعباً وينصرفون عن موقفه انصرافاً ، وهو يتحدّاهم ويدعو فرسانهم ومغاويرهم . والعبد قائم قد استتر عنه بشجرة ينظر إليه ويرتقب غفلته ، وحمزة لا يراه ولا يحس بمكانه . فلما أمكنته

---

(١) الهذ : سرعة القطع .

(٢) الورقة (بالضم) سواد فى غبرة أو هى سواد فى بياض كلون الرماد .

الفرصة هزّ حربته حتى رضى عنها ، ولم يكن له بغير الحربة من السلاح علم . فلما تهيأت له الرمية رمى ، وإذا الحربة تصيب حمزة فى مقتل فيخرّ صريعًا ، والعبد قائم مكانه لا يريم ، يرقب أسد الله صريعًا بعد أن كان يرقبه جائلا فى الميدان . فلما استوثق من أن صريعه قد قضى ، أقبل يسعى إليه فانتزع حربته ، ثم عاد إلى المعسكر فأقام فيه . لم يصنع قبل مقتل حمزة شيئًا ، ولم يصنع بعد مقتل حمزة شيئًا . وما يعنيه من أمر هذه الحرب بين قريش والأنصار ! وإنما أقبل يشترى حريته بمقتل هذا الرجل العظيم ، وقد ظفر بما أراد . فانتظر قفول قريش إلى مكة ، ولم يشهد ما كان من تمثيل هند وصاحباتها بعم النبى ، ولم يشهد ما كان من حزن النبى حين رأى عمه فى منظر لم ير صلى الله عليه وسلم قط منظراً أوجع له وأثقل عليه منه .

ولم يسمع العبد نذير النبى حين أقسم لئن أظفره الله على قريش ليمثلن منهم بسبعين مُثلةً لم تعرفها العرب قط . ولم يعلم العبد أن النبى قد رُدّ عن ذلك ردًّا ، وأن الله قد أنزل فى ذلك قرآناً ، وأن النبى قد تلا قول الله عز وجل : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »

ولم يعلم العبد أن النبى قد اضطرّ إلى أن يكفر عن يمينه ، ثم لم يعلم العبد أن النبى قد عاد إلى المدينة محزوناً أسفاً ، فلما سمع نساء بنى

عبد الأشهل يبكين قتلاهن قال : « ولكنّ حمزةَ لا بواكيَ له ! » وسمع ذلك منه الأنصار ، فأرسلوا نساءهم يبكين حمزة عند بيت النبي ، وخرج نساء النبي فبكين معهن حتى ردّهن النبي داعياً لهن ، ثم أصبح فنهى عن البكاء .

لم يعلم العبد من هذا شيئاً . وماذا يَعنيه من هذا ! إنما كان يريد حريته وقد بلغها . وماذا صنع البائس بحريته ! ! لم يَعدْ إلى بلده ، وكيف سبيل العودة إليها ! ! ولم يَسدْ فى مكة ، وكيف السبيل إلى السيادة فيها ! إنما عاش بين قريش حرًّا كالعبد ، وطليقاً كالأسير . نعم ! لم يعلم بشيء من هذا .

ولكنه علم ذات يوم أن جيوش المسلمين مقبلة على مكة ، ورأى ذات صباح جيوش المسلمين تدخل مكة ، واستيقن العبد أنه مقتول إن ظفر به المسلمون ، ففرّ وانطلق فى الأرض يلتمس لنفسه مأمناً فلا يجده . هؤلاء المسلمون ينتصرون على العرب يوم حُنين ، وهذه أرض العرب كلها تذعن للنبي ، فأين الملجأ من الله إلا إلى الله ! ! لقد أوى العبد إلى الطائف ، وقاوم فيها المسلمين ما قاومهم أهلها . ولكن وفد الطائف يتهيأ للسفر إلى المدينة ، وما هى إلا أيام حتى تذعن الطائف لما أذعنت له مكة . والآن يفكر العبد فى مهاجرة البلاد العربية كلها . ولكن كيف السبيل إلى الهجرة ؟ لقد أخذتْ عليه سبيلُ الحبشة ، وأخذت عليه سبيل الروم ، وانبسط سلطان النبي على الشمال والجنوب . لقد كانت الهجرة ميسورة قبل الآن ، فأما الآن فقد تقطعت من دونها الأسباب .

هنالك يُلقى بعضُ الناس فى نفس العبد أن النبى لم يقتل قطّ رجلاً جاءه مسلماً . وإن النبى لجالس بين أصحابه ذات يوم ، وإذا رجل قائم على رأسه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وينظر النبى فيرى العبد فيعرفه . ولكن الله قد عصم دمه بالإسلام . وما قتل النبى قطّ رجلاً جاءه مسلماً وإن كان قد قتل عمه حمزة . فيأمر النبى ذلك العبد أن يجلس ويحدّثه كيف قتل عمه . وهذا العبد قد جلس ، وهو يعيد على النبى بلاءه المنكر ، وحديثه يملأ قلب النبى حزناً ولوعةً وأسى ، والعبد بين يديه ، لو أراد لأرضى حزنه ولوعته بمصرعه ، ولكن أنَّى له ذلك وقد اعتصم العبد بالإسلام ! !

وقد آثر النبى أن يعفو ، وآثر أن يصبر . أليس قد عفا عن هند وقد مثلت بعمه ولاكت كبده ، وجدعت أنفه وأذنيه ! فما له لا يعفو عن عبد مأمور ! ولكنه قال للعبد : « غيبْ وجهك عنى » . فجعل العبد لا يرى رسول الله إلا تنكب طريقه واجتنب لقاءه .

وعاش وحشىّ فى المدينة حرًّا كالعبد ، وطليقاً كالأسير ، وجعل الندم يحزّ فى قلبه حزًّا ، ويمزّق فؤاده تمزيقاً ، ويؤرقه إذا جنّ الليل ، ويعذّبه إذا أقبل النهار .

ولكن العرب يرتدّون ، ويذهب خالد بن الوليد لقتال مُسيلمةَ ، وهذا العبد يذهب معه ليقاتل فى سبيل الله بعد أن كان يصدّ عن سبيل الله .

وهذا العبد يهزّ حربته ذات يوم كما هزّها يوم أحد ، ويتهيأ لرميها كما تهيأ يوم أحد ، ثم يُطلقها كما أطلقها يوم أحد ، وإذا هى تصيب

رجلاً فتصرعه ، وإذا الحربة التى قتلت حمزة قد شاركت فى قتل مسيلمة ، وإذا وحشىٌّ قد قتل خير الناس ، وقتل شرّ الناس !

وقد عفا النبيّ عن قاتل عمه ، وعفا المسلمون عن قاتل أسد الإسلام . ولكن نفس وحشىّ لم تعفُ عن وحشىّ ، ولكن دم مسيلمة لم يغسل من نفسه دم حمزة !

وهذا العبد الحر يمضى مع جيوش المسلمين غازياً ، فيقاتل الروم وينتصر مع المنتصرين ، ويستقر مع المستقرين فى مدينة حمص هذه . ولكن بلاءه أيام الرّدة ، وبلاءه أيام الفتح ، وما احتمل فى هذا كله من جهد ، وما ناضل فى هذا كله عن الإسلام ، لم يغسل عن نفسه دم حمزة ، ولم يبرئْ نفسه من الندم لمقتل حمزة . ولم يبلغ الإسلام من قلب هذا الرجل ما بلغ من قلوب كثير من الناس فيمحو من قلبه ما قدّم فى جاهليته . وإذا هو يستعين على الندم بالخمر ، وإذا هو يشرب ويسرف فى الشرب ، وإذا هو يُضرَبُ فى الشراب فلا يمنعه الحدّ فى معاودة الشراب . وإذا هو معروف فى أهل حمص بما قدّم من خير وشر . وإذا هو معروف فى أهل حمص بسكره إذا سكر ، وبصحوه إذا صحا . وإذا هو يسكر حتى يُصبح مخوفاً على من يدنو منه ، ويصحو حتى يصبح عاقلا حلو الحديث . والندم يُلحّ عليه حتى يُبغّضه إلى نفسه تبغيضاً ، ويصرفه عن الصحو صرفاً . وكلما مضت عليه الأيام ازداد إمعاناً فى الشراب ، والسن تتقدم به ، وجسمه يضعف شيئاً فشيئاً ، وعقله يذهب قليلا قليلا ، والندم ماثل مع ذلك فى نفسه ،

مُلمّ بداره ، يأخذه من كل وجه ، وهو لا يجد سبيلا إلى الفرار منه إلا إلى الشراب . وهو يُضرَب فى الشراب وقد ضعف وفنى فلا يحتمل الضرب فيموت . ونشهد جنازته اليوم .

أرأيت أنى لم أكن مُلمحاً ولا مؤثراً للغموض حين كنت أحدّثك بما كنت أحدثك به من هذه العواطف المختلفة التى كانت تثيرها جنازته فى نفوس الناس ؟ » .

قال عمير : « أشهد أن حكمة الله بالغة ، وأن الرجل الرشيق خليق أن يتعظ بما فهم من قضاء الله ، وأن يطمئن إلى عدل الله وعفوه إذا أشكلت عليه الأمور » .

قال محمد بن نصر : « فإنى لا أعرف شيئاً يغسل عن النفس إثمها وينقيها من السيئات كهذا الذى نحن فيه من جهاد عدو الله ما وجدنا إلى هذا الجهاد سبيلا » .

الوفاء المر

١

أقبل الفتى على أمه وعمه جذلان مبتهجاً ، قد تألق وجهه بشراً ، ولكن الحزم والعزم ظهرا فى عينيه الحادتين وفى صوته الممتلئ الهادئ الرزين . ولم يكن كعب قد أتم السابعة عشرة من عمره ، ولكنه كان قوىّ الجسم ، مرتفع القامة فى السماء ، كثير الحركة ، عظيم النشاط ، فى نفسه حزن دفين . يظهر فى صوته إذا تحدث إلى الناس ، وفى خواطره التى كان يديرها فى رأسه كئيبة قاتمة ، ويخرجها إلى لداته وأترابه عابسة شاحبة لا حظّ فيها للرضا ولا للابتسام .

وكان لداته وأترابه يتحدثون عنه إذا لم يشهدهم ، فيذكرون التناقض بين حركته الدائمة ونشاطه ، وبين نفسه الحزينة وباله الكاسف ، ويقول بعضهم لبعض : ما نظن هذا النشاط المتصل والحركة العنيفة ، إلا وسيلة يتخذها كعب ليتسلى بها عن هذا الحزن الخبىء الذى لا يريد أن يُظهره ولا أن يبوح به ، والذى يحميه فى أعماق ضميره كأنه حرَمٌ لا ينبغى لغيره أن يبلغه أو يَظهرَ عليه .

وكانت أمه تجد مثل ما يجد أصحابه من الإشفاق عليه والرثاء له ، ومن إنكار هذا التناقض بين جسم مضطرب نشيط ونفس ساكنة هادئة حزينة . ولكنها كانت تعلم من أمر هذه النفس الهادئة الحزينة أكثر مما كان يعلم أصحاب الفتى .

وكانت تتحدّث عن حزن الفتى واكتئابه إلى عمه الشيخ إذا خلتْ إليه . وكان الشيخ يسمع لها ويُصغى إليها ، ثم ينظر إلى وجهها المشرق الذى يترقرق فيه حزن رقيق ، تُخفى أصوله فى نفسها نظراتٌ طويلة ، ثم يقول لها فى هدوء متكلف وأناة مُصطنعة وصوت يكاد يتفجّر فيه الغيظ المكظوم : « مَهلاً مهلاً يا أسماء ! فإن الأوان لم يَئِنْ بعد » . وكانت أسماء تسمع من الشيخ هذه الجملة التى يكررها كلما تحدّثت إليه فى أمر الفتى ، فلا تزيد على أن تلزم الصمت ، وتقطع الحديث ، وتُرسلَ دموعاً هادئة تنحدر على وجهها الجميل ، ثم تُسرع إلى هذه الدموع فتكفكفها ، ثم تنصرف عن الشيخ ساعة ، ثم تعود إليه مشرقة الوجه باسمة الثغر ، كأنها لم تقل له شيئاً ولم تسمع منه شيئاً ، وكأن دموعها الغزار لم تغسل وجهها الجميل .

وكانت أسماء قد وصلت بابنها الصبىّ إلى هذه المدينة من مدن الشام منذ أكثر من عشر سنين ، تحمله بين ذراعيها ، ولا تُخلى بينه وبين الحركة الحرّة إلاّ قليلا لكثرة ما خافت عليه ، ولكثرة ما تعرّضت وتعرّض معها له من الهول . فلما انتهت إلى المدينة تلقاها الشيخ فأحسن لقاءها ، وسمع منها حديثها فأحسّ له ألواناً مختلفة من العواطف : أحسّ الغيظ والحنقَ ، وأحسّ الثورة والغضب ، وأحسّ الرحمة والإشفاق ، وأحسّ البرّ والحنان ، وقال لامرأة أخيه آخر الأمر : « أقيمى يا أسماء وادعةً مطمئنة ، فقد بلغت مأمنك وانتهيت إلى دارك ، ولك علىّ ألاّ تجدى فى هذه الديار إلا ما ترضينَ ، وأن أقوم على هذا الصبىّ كما

كان أبوه يريد أن يقوم عليه ، لا أسألك فى ذلك إلا أمرين : أن تفرُغى للصبىّ حتى يتمّ رجلاً كامل الخلق موفورَ القوة ، ولك بعد ذلك أن تفرغى لنفسك ، فتلتمسى الزواج وتستأنفى الحياة ، وأن تكتمى على الصبىّ أمر أبيه فلا تُنبئيه منه بشىء حتى أوذنَك بأن الأوان قد آن » .

قالت أسماء وقد شاع فى صوتها من الأسى ما يُذيب القلوب : « واحسرتاه ! وهل أستطيع أن أفرغ لشىء غير هذا الصبى الناشئ ! وغير ذكرى ذلك الشيخ الذى مضى ولم يترك مع ابنه إلا لوعةً ما أراها تهدأ ، وحبًّا ما أراه ينجلى عن هذا القلب البائس ! ! لن أفكر إلا فى هذا الصبىّ أعدّه ليكون لى خلفاً من أبيه . فأما الزواج فقد قضيت أربى منه . وأما الحياة فقد أخذتُ منها كل ما أعطتنى ، فما أطمع منها فى شىء ، وما أرجو منها خيراً . ولقد ودّعت حياة الزواج يوم ودّعت أبا كعب ، فمضى إلى الموقعة ، ومضيت إلى هذا الوجه من أرض الشام . ولقد أردت أن أطيل وداعه ، وأن أسترسل معه فى بعض الحديث ، وأن أعاهده على الوفاء له ، وأن أقسم له على أنى سأظلّ له زوجة إن قضى كما كنت له زوجة قبل أن يتعرض للموت . ولكنه لم يُردْ أن يسمع لى ولا أن يُصغى إلىّ ، ولا أن يُطيل موقف الوداع ، وإنما نظر إلىّ نظرةً فيها الحب والغضب معاً ، ورفع ابنه فقبله بين عينيه ، ثم دفعه إلىّ فى شىء من العنف ثم تحوّل عنى . حتى إذا استقلت الإبل ودفعتْ فى طريقها إلى الشأم ، تلفتّ فإذا هو قد استدار وجعل يُتبعنا ببصره وهو قائم لا يتحرّك ولا يظهر على وجهه إلاّ هذا الغيظ المروّع

الذى رأيته فأنكرته حين عاد إلىّ من ناديه آخر النهار . فلما أبى أن يسمع لى ويتلقّى قسمى عاهدتُ نفسى وقد عجزتُ عن أن أعاهده ، وأقسمت لنفسى وقد عجزت عن أن أقسم له . ثم لاقيت فى الطريق ما تعلم من خطب ، وتعرّضت لما تعلم من هول ؛ فلم تُبق الحوادث منى لحياة الزوجات شيئاً ، وإنّما أبقت منى لحياة الأمهات كل شىء » .

قال الشيخ : « وتكتمين على الصبىّ أمرَ أبيه حتّى أوذنَك بأن الأوان قد آن » . قالت : « ذلك لك ، وإن كنت لا أعرف كيف أجد السبيل إلى الكتمان » .

وأنفقت أسماء أعواماً وأعواماً ، تُنشئ ابنها وتحدب عليه فى ذَرَا البرّ العنيف الماكر من شيوخ يهود فى الشام . حتّى إذا تقدّمت السنّ بالفتى وعرف نفسه ونظر ، فلم يجد حوله إلا أمه وعمه سأل عن أبيه ، فأنبأته أمّه باسمه ومكانته من قومه ، وبأنه قد لقى مَصرَعه فى بعض ما يلقى الناس فيه مصارعهم من الحوادث التى تعرض ، والخطوب التى تُلمّ هناك فى تلك الأرض البعيدة التى هاجر اليهود إليها بحريّتهم فيما مضى من سالف الدهر .

وجعل الفتى يسأل أمه ويلحّ فى السؤال يريد أن يعرف عن أبيه أكثر من ذلك فلم يجد منها إلا مداورة والتواء ، فلجأ إلى عمه فلم يجد عنده إلاّ مثلَ ما وجد عند أمّه من المداورة والمراوغة والالتواء . هنالك ارتاب الفتى وأثر الشك فى نفسه آثاراً عميقة . وهنالك تعقدت الأمور فى ضمير الفتى ، فأحسّ الخوف من هذا السر الذى تُخفيه عليه أمه

ويحجبه عنه عمه ، وأحسّ الكبرياء التى منعته من الإلحاح فى السؤال مخافة أن يعلم ما يغضّ من نفسه أمام نفسه ، وأحس الإشفاق على هذه الأمّ الجميلة البرّة الحزينة أن يكون فى إلحاحه عليها ما يؤذيها ، أو أن يكون فى جوابها له ما يؤلمه . فعكف الفتى على نفسه ، وأسرّ الحزن فى ضميره ، وجاهد الهمّ ما استطاع إلى جهاده سبيلا ، فلم يقهر الهمّ ولكن الهمّ لم يقهره . وكانت الحركة الدائمة والنشاط المتصل وسيلته إلى هذا الجهاد ، فكان لا يصبح إلا أسرع إلى الخروج من داره ، واضطرب فيما يضطرب فيه شباب العرب فى هذه المدينة القائمة فى طرَف من أطراف الشام . صراعٌ وجلادٌ وخروج إلى الصحراء القريبة للصيد مرة ولمجرد الإيغال فى الصحراء مرة أخرى ، وحديثٌ إذا شقّ على الفتى وأترابه ما ينفقون وقتهم فيه من الحركة والاضطراب . ولكنه لم يستطع قط أن يمنح الحياة ابتسامة نقية من الشوائب ، كما لم يستطع قط أن يتلقى من الحياة ابتسامة بريئة من العبوس .

فلما كان ذلك اليوم أقبل الفتى على أمه وعمه جذلانَ فرحاً يتألق وجهه بشراً ولا يفارقه مع ذلك حزنه العميق . ولم يكد يراهما حتى قال لهما فى صوت متقطع قد امتزج فيه الأمل باليأس : « تهيأا للرحلة ، فليست هذه المدينة لكما بدار منذ اليوم » .

فوجمت الأم ولم تحرْ جواباً ، وتماسك الشيخ ونظر إلى ابن أخيه نظرته الطويلة العابسة الماكرة ، وقال فى هدوء متكلف : « وما ذاك ؟ » .

قال الفتى : « ذاك أن جيوش هذه الصابئة من أصحاب محمد قد دنت

من أرضنا ، وأن نائب قيصر يستعدّ للقائها ، وقد هيأ جيوش الروم وأذّن فى أهل الشام من العرب بالنفير العام . وما أرى إلا أن هذه المدينة ستكون موضعاً للصراع بيننا وبين هذه الصابئة » .

قال الشيخ وهو محتفظ بهدوئه المتكلف : « وما نحن وهذا الصراع يا بنى ؟ نصارى ومسلمون يقتتلون ، سنرتحل وسنخلى بينهم وبين ما يملأ قلوبهم من الحقد والبغض » . قال الفتى : « سترتحلان ! أما أنا فمقيم » . قالت أسماء : « أما أنت فمقيم ! وما تريد أن تصنع فى دار الحرب ؟ وكيف تقدّر أنّا سنرتحل من دونك ؟ » .

قال الفتى : « سترتحلان لأنكما لاتقدران على الحرب ، وليس لكما فيها أَرَبٌ ، وسأبقى أنا لأنى أقدر على الحرب ، ولأن لى فيها أَرَباً » . قالت أسماء : « لك فى الحرب أربٌ ! وما هو ؟ » . قال الفتى : «هو أن أجد فيها من الجدّ ما يَشغلنى عن نفسى ويصرفنى عن همى . فإن لقيت فيها الموت فسأستريح من حياة لم أجدْ فيها إلا عناء وحزناً » .

وتحطم صوت الفتى وجرتْ دموعه على خدّيه ، فنهضت إليه أمه تضمه إليها وتمزج دمعها بدمعه ، وثبت الشيخ فى مكانه هادئاً ينظر إلى الفتى وأمه نظرته تلك الطويلة العابسة الماكرة ، ثم انفرجت شفتاه عن هذه الجملة التى قالها وهو ينهض متثاقلا : « لقد آن الأوان يا أسماء ! » .

٢

وانصرف الشيخ وترك الفتى واجماً ، وأمه تنازع شيئاً من حيرة طارئة . ولكن لم يمض إلا قليلٌ حتى ثاب الفتى إلى نفسه ، وخلصت الأم من حيرتها ، فنظرت إلى ابنها نظرةً فيها كثير من الحنان ، وفيها كثير من الوجد ، وفيها كثير من الغيظ الدفين . ثم أخذت بيد ابنها فأجلسته وجلست إلى جانبه ، ثم أحاطت عُنقه بذراعها وضمته إليها ، ثم قالت : « فأنت إذاً تريد أن تحارب يا بُنيّ ؟ » . قال الفتى : « نعم ! » قالت الأم : « مَن تريد أن تحارب ؟ » . قال الفتى : « أريد أن أحارب هذه الصابئة التي تُغير على أرض قيصر ، وتريد أن تُجلينا عنها أو أن تتخذنا لها عبيداً وخدماً » .

قالت الأم : « فإنك لن تفعل من هذا شيئاً يا بُنيّ إلا أن تكون ابناً عاقّاً يُنكر أباه » . قال الفتى وقد وَجم : « ماذا تقولين ؟ وماذا أعرف من أمر أبي ؟ وكيف يكون قتالي لهذه الصابئة التي اضطهدت يهود فقتلتهم وعذّبتهم وأجلتهم عن ديارهم إنكاراً لأبي وجحداً لحقه عليّ ؟ »

قالت الأم : « إن الأمر يا بنيّ لأعسر مما تظنّ ! لقد هيأك عمك لتثأر لأبيك وليهود من هؤلاء الذين تسميهم الصابئة . ولقد صابرتُه وطاولته ومالأته على ما فعل وشاركتهُ فيما أراد ، وكنت أستجيب في

ذلك لعواطف نفسي وأهوائها ، وكنت أستجيب لهذه العصبية التي يجدها أبناء يهود جميعاً على هؤلاء الذين قتلوهم وعذّبوهم وأجلوهم عن ديارهم كما تقول . وكنت أستجيب لشيء آخر يا بُنيّ هو حبي لك وحرصي على تنشيئك وحمايتك من غوائل الدهر ، ووفائي لعمك هذا الشيخ الذي منحنا من العطف والبر والحنان ما مكنني من أن أبلغ بك هذه السن وأصير بك إلى هذه الحال . ولقد انصرف عنا الآن يا بنيّ وهو يقدّر أني سأهيئك لما هيأك له ، وسأعدّك لما أعدّك للمضيّ فيه ، وسأنبئك بحديث أبيك على نحو يدفعك إلى الثأر له . ولكني يا بني أنظر إليك إلى جانبي ، وأنظر إلى أبيك في قرارة ضميري ، أرى وجهك ماثلاً في عيني ، وأرى وجهه ماثلا في قلبي ، أسمع لصوتك العذب يمس أذني مساً حلواً ، وأسمع لصوت أبيك العنيف يهز ضميري هزاً قوياً وأسأل نفسي : أأفي للأحياء أم أفي للموتى ؟ » .

ثم أطرقت أسماء ساعة والفتى ينظر إليها ولا يكاد يفهم عنها . ولكن أسماء رفعت رأسها وكفكفت من دمعها ، وقالت في صوت هادئ مطمئن ولكنه مظلم حزين : « أنت بين اثنتين يا بنيّ : فإما أن تحارب مع هؤلاء الذين تسميهم الصابئة ، وإما أن تعتزل الحرب وترحل مع المرتحلين . فأما أن تحارب في جيش قيصر فذلك شيء لا سبيل إليه » .

قال الفتى : « ماذا تقولين فإني لم أفهم عنك منذ اليوم ؟ » . قالت أسماء : « أقول ما كرهت يهود أن تقوله ، وما كره عمك أن يقوله .

أقول شيئاً لو قالته يهود لما قتلت ولا عُذِّبت ولا أجليت عن ديارها . إن أباك يا بُنى لم يكن لنبىّ العرب عدوًّا وإنما كان له صديقاً وبه حفيًّا وله وفيًّا . لقد عاهدت يهود نبىّ العرب على أن تنصره إن اعتدى عليه المشركون من قومه . فلما آن أوان الوفاء بالعهد وأقبلت جيوش قريش تريد الغارة على المدينة ، نفر نبى العرب للحرب ونفر معه مَن نفر من أصحابه ، ودعا أبوك قومه إلى الوفاء بالعهد فتلكئوا وتباطئوا وتثاقلوا ، وحاورهم أبوك فتشدد فى الحوار وذكرهم وألح فى تذكيرهم ، ولكنهم تعللوا يا بُنىّ ، وقالوا : يحارب محمد فى يوم السبت ، وما ينبغى أن نحارب فى يوم السبت .

« قال مُخيريق — ولم تكد تنطق باسمه حتى احتبس صوتها وانهمرت عَبرتها فكفت عن الحديث حيناً ثم استأنفته قائلة — قال مخيريق : فإن محمداً لم يختر الحرب ولم يختر يومها ولم يختر موضعها ، وإنما اختار ذلك عدوه . لاسبتَ لكم ! وانفروا إلى الوفاء بالعهد ، فلم يجد منهم إلا إعراضاً وإصراراً على الإعراض . وما أنس يا بُنى فلن أنسى عودة أبيك من نادى قومه وقد اربد وجهه وتطاير شرر الغيظ من عينيه . وكنا إذا أقبل إلينا تلقيناه مبتهجين بلقائه وتلقانا هو مبتهجاً بعودته إلينا . فلما أقبل ذلك اليوم لم تكد أبصارنا ترتفع إليه مفتونة مُعجبة حتى ارتدت عنه محزونة مشفقة . أنكرناه يا بنى بل خفناه . ولم ينظر إلينا هو وكأنه لم يحس أننا كنا نتلقاه ، فمضى أمامه لا يلوى على شىء ، حتى إذا انتهى إلى حجرته أقبل على التوراة فنظر فيها غير طويل ثم طواها ، ثم

أمر أحد غلمانه أن يدعوَ إليه بعض أصحابه من يهود . فلما أقبلوا أقرأهم شيئاً فى التوراة ثم قال : « أسبتوا إن شئتم من الغد ، فأما أنا فلا سبتَ لى » . ثم قال لهم : « اشهدوا أنى نافرٌ إذا كان الغد فوافٍ بعهدى لهذا الرجل ؛ فإن أصبتُ فى هذا اليوم فمالى كله لهذا الرجل يقضى فيه بما أراد الله » . ثم دعا كبير غلمانه فأمره أن يهيئ الإبل لرحلة طويلة . فلما تهيأ له ذلك دعا هذا الغلام فأوصى إليه أن يرتحل بى وبك حتى يبلغ هذه المدينة من أرض الشام فيسلمنا إلى عمك ، فإن فعل ذلك فهو حرّ .

« ولم يستقر له قرار حتى استقلت بنا الإبل واستبد بنا السفر ، وحدا بنا الحداة ، وقد أنبئت يا بنى أنه قاتلَ حتى قُتل . وقد أنبئت يا بنى أن نبى العرب كان يقول إذا تحدث عنه أو سمع الحديث عنه « مُخيريق خير يهود » . وقد صارت إليه يا بنى أموال أبيك ، فلم يأخذ لنفسه منها شيئاً ، وإنما أجراها صدقة على الفقراء من أصحابه . ولم يستقر لنا الطريق يا بنى إلى هذه المدينة من أرض الشام ، وإنما التوت بنا أشد الالتواء ، فلم يقنع العبد بحريته ولم يفِ لأبيك بوعده ، وإنما أطمعته الدنيا ، وزين له حب الثراء أمراً عظيماً ، فهم أن يبيعنا يا بنى بيع الرقيق لولا أن أخطأه الحظ ، فعرَضنا على من لم يشق علىّ أن أعرفه بنفسى وزوجى . فلما عرَفنا أكرم مثوانا ، واحتفظ بالعبد رقيقاً ، وأمننا وصاحبنا حتى أبلغنا هذه الدار . وكنت يا بنى صبياً لا تعقل ولا تكاد تستقل . فلما أنبأت عمك بهذه الأنباء لم ألقَ منه إلا خيراً ، ولم يطلب إلىّ إلا أن أكتمك الحديث ، حتى يأنىَ لك أن تنهض للثأر . ولم يُرد

عمك أن يُقر أباك على ما فعل ، بل لم يرد عمك أن يصدق من هذه الأنباء إلا ما أراد هو وما أرادت يهود ، فزعم أن أصحاب محمد قتلوا أباك . وما قتلوه يا بنى وما عرضوه للقتل ، وما طلبوا منه حرباً ولا قتالا ، ولكن أباك وَفى بالعهد يا بنى ، وقد يكون الوفاء مراً فى بعض الأحيان . فانظر ماذا تصنع : أتنصر قوماً نصرهم أبوك ؟ أم تكف عن حرب قوم نصرهم أبوك ؟ فأما أن تخذل من كان لهم أبوك ناصراً ، فما أرى أن ذلك شيء تستطيع أن تقدم عليه » .

قال الفتى : « حسبك يا أماه فقد سمعت ! وسأنظر فى أمرى . ولكن ارتحلى ؛ فليست هذه المدينة لك بدار » . قالت أسماء : « سأرتحل يا بنىّ عنك كما ارتحلت عن أبيك » . قال الفتى : « سيكون وداعك لى قصيراً ، كما كان وداعك لأبى قصيراً » .

ومضى عام وبعض عام وإذا أعرابىّ من جند المسلمين يسأل فى دمشق عن امرأة يهودية تعرف بأمّ كعب أسماء زوج مُخيريق ، ويكفلها يهودى شيخ هاجر معها من أطراف الشام حين أغار المسلمون على هذه الأرض . وقد جدّ حارث بن الحُباب السلمى فى البحث عن هذه المرأة واستقصاء أمرها ؛ حتى إذا اهتدى إلى دارها وأدخل إليها ذات ضحى ، قال لها فى لهجته الحجازية البدوية : « أبشرى يا أمة الله فقد كتب الله لابنك الشهادة كما كتبها لأبيه مخيريق ! » .

سمعت أسماء لهذا الأعرابى فلم تعبس ولم تبسم ، ولم تنهمر من عينها عبرة ، ولم يظهر على وجهها حزن ، وإنما قالت : « إنا لله وإنا إليه راجعون! » .

طبيب النفوس

« أين الناضرة ؟ علىّ بالناضرة . رُدّوا علىّ الناضرة ! » . وكان صفوان بن أمية يقول هذا فى صوت تظهر فيه الحدّة والغضب ، ويظهر فيه السخر والضحك معاً . وكان يقول هذا وهو يرمى إلى قيِّم داره بنظرات كأنهن قطع النار ، حتى أخاف القيم وملأ قلبه روعاً وهولا ، فقام مبهوتاً لا يدرى ماذا يصنع ولا يعرف كيف يجيب . وكان يقول هذا وقد أخذ بيد صديقه الحارث بن هشام يجذبه إليه جذباً عنيفاً لا رفق فيه ، ويضطره إلى المجلس الذى أراده على أن يجلس فيه ، لا يلتفت إليه ولا يسمع له ، كأنما يجذب شيئاً لا رأى له ولا إرادة . فلما طال عليه وجوم القيم أقبل عليه منذراً لا يكاد يُخفى حنقه وهو يقول : « ألم أسألك عن الناضرة ! ألم أطلب إليك الناضرة ؟ ! أفى أذنيك وَقرٌ ! أتحولت صخراً لا يسمع ولا يجيب ؟ » . قال القيِّم فى صوت مضطرب وبلسان متلجلج : « فإن الناضرة فى حيث أمر مولاى أن تكون من الحبس ، وعليها ما أمر مولاى أن يكون عليها من الأغلال منذ غنت ذلك الصوت » . قال صفوان متضاحكاً لا يكاد يهدأ غضبه : « وقد ضربتَها الأسواط التى أمرك مولاك أن تضربها فى كل يوم إذا أصبحت ، وكنت تتهيأ لتغذيها بالأسواط التى أمرك مولاك أن تغذيها

بها فى كل يوم إذا مالت الشمس إلى الزوال ؛ فإنى أريد الآن أن أضعك مكانها وأجعل عليك أغلالها ، وأرد إليك السياط التى قدمتها إليها منذ أمرتك ذلك الأمر المُحنق . اذهب فأخرج الناضرة من حبسها ، وضع عنها أغلالها ، وأقبل علىّ بها مكرمة موفورة ، وأسرع فى ذلك ولا تبطئْ ، فإنى أخشى أن يجرّ عليك الإبطاء شرًّا عظيما » .
قال ذلك ثم تحوّل عن مولاه إلى صديقه الحارث بن هشام وهو يقول : « ما رأيت أحداً بلغ به الحمق ما بلغ بهذا الغلام » .

قال الحارث وهو يتكلف الابتسام : « بل ما رأيت أحداً بلغ به الغيظ ما بلغ بك أيها الصديق . إنك لتكلف هذا الفتى من أمره شططاً ، تأمره أن يحبس هذه الجارية وأن يعذبها ، ثم لا تُظهر له أنك غيرت رأيك فيما أردت من حبسها وتعذيبها ، ثم تلومه الآن لأنه أمضى ما أردت ولم يخالف عن أمرك ! » .

قال صفوان : « فإنه يزعم أنه ذكى لبق ، وأنه يعرف مالا يُعرف ، ويسبق إلى فهم الأشياء ، وهو قد رأى ما نرى وسمع ما نسمع وأحس ما نحس ، وعلم أن كل شىء من حولنا يتغير ، وأن كل سلطان من حولنا يزول : فقد كان من الحق عليه أن يعلم أن لم يبق لنا على الناضرة حبس ولا تعذيب » .

قال الحارث وقد انجلى عنه ما كان يغمر وجهه من الحزن ، وابتسم ثغره عن ابتهاج صريح : « نعم ! وقد كان ينبغى أن يعلم أن ليس لك عليه أمر ولا نهى ، وأنك لا تملك أن تلومه ولا أن تعنف عليه . وقد كان

ينبغى أن يدع دارك هذه وما فيها ومن فيها ، وأن يمضى إلى حيث يلقى حرّيته وأمنه ورجولته كاملة ثم يعود إليك متسلطاً ظافراً ، فيصدر إليك من الأمر ما يُصدر الغالب إلى المغلوب » .

قال صفوان وقد ثابت إليه نفسه واطمأن قلبه بين جنبيه : « نعم ! هو ما تقول . لقد رأيت اليوم ما أخرجنى عن طورى . وإن أعجب لشيء فإنما أعجب لهدوئك واستقرار نفسك ، واطمئنانك إلى ما يقع حولك من الأحداث » .

قال الحارث : « وماذا تريد أن أصنع ؟ لقد جاهدت محمداً ما وسعنى جهاده ، وحاربته ما وجدت إلى حربه سبيلا . ولقد ذقت فى هذه الحرب مرارة الهزيمة وحلاوة النصر . ولقد طاولته كما طاولته قريش ، وعاجلته كما عاجلته قريش ؛ فقد أبت الأحداث إلا أن يظهر محمد على قومه ، وأبت الأحداث إلا أن يدخلها علينا محمد عنوة ، وقد حُلنا بينه وبين ذلك منذ أعوام ، فلم ينفعنا ما قدمنا إليه من عنف ، ولم يُغن عنا ما أظهرنا له من بأس . وها هو ذا يدخلها علينا لا عنيفاً بنا ولا مشتطاً علينا ، لا يجزينا من بأسنا بالبأس ، ولا يلقانا بمثل ما لقيناه به من الصلف والخال[1] . ولكنى لم أعرف الناضرة هذه التى تطلبها ، ولا أعلم فيم حبستها وأثقلتها بالأغلال ، ولا أفهم فيم سؤالك عنها وإلحاحك فى هذا السؤال ، وفيم تكريمك لها بعد أن أرهقتها بالعذاب ! » .

قال صفوان : « فإنك ستعلم من هذا كله ما جهلت » .

---

(١) الخال : اسم بمعنى الخيلاء .

وأقبل القيِّم يدفع أمامه فى رفق فتاة قصيرة الخطو ، تتقدم فى كثير من التردد والامتناع ، فى وجهها جمال لا تبلغه العين حتى يصل إلى القلب فيحدث فيه أثراً عميقاً . ولكنها تتقدم مترددة ممتنعة ، قد ملكها الخوف والإشفاق ، وكأن ما لقيت من السجن والعذاب قد آذىَ منها قلباً كريماً ، وأهان منها نفساً عزيزة ، وإن لم يؤمن ساجنوها ومعذبوها لها بكرم القلب وعزة النفس . ومتى آمن السادة الأحرار بالكرم والعزة للرقيق المستذل ! وكان وجه الفتاة يُبين عما يملأ قلبها من خوف كما كان يبين عما يؤذى نفسها من هذا الشعور بالإهانة ، ولكنه كان يبين فى الوقت نفسه عن شىء يشبه الرضا والإذعان وعن شىء يشبه العفو والمغفرة . كان هذا كله يُقرَأ فى ذلك الوجه الجميل المشرق ، وفى تلك اللحظات الوادعة الهادئة .

فلما رآها الحارث مال إلى صاحبه وهو يقول : « ما رأيت أنضر من هذا الوجه ! » . قال صفوان : « وما عرفت أكرم من هذه النفس » .

ثم نظر إلى الفتاة فى رفق عظيم وهو يقول : « أقبلى يابنتى فليس عليك بأس ! أقبلى لا تُراعى فأنت آمنة منذ اليوم . لقد آذيناك وشققنا عليك ، ولكنا سنصلح ماقدمنا إليك من مساءة . أقبلى وخذى مجلسك منى كما تعودت أن تجلسى ، وغنّينى ذلك الصوت الذى كان مصدر ما لقيت من الأذى ، والذى سيكون مصدر ما تلقين من النعيم » .

ولكن الفتاة لبثت قائمة واجمة كأنها لا تسمع ، أو كأنها لا تفهم ، أو كأنها لا تصدق ما كان يساق إليها من الحديث .

قال صفوان : « أقبلي يابنتي واسمعي لما يقال لك ، وأنزليه من نفسك منزل الحق ؛ فأنت حرة بعد أن تغنيني ذلك الصوت ، وأنت مطلقة تذهبين حيث تشائين ، وتستقبلين من أمرك ما تريدين ، ولك عليّ ألا تتعرضي لحاجة ، وأن تُكفَى غوائل الدهر . اجلسي يابنتي كما تعوّدت أن تجلسي ، وغنّي يابنتي كما تعودت أن تغنّي » .

ثم التفت إلى قيم الدار وقال في صوت حازم : « الخمرَ والأقداح يا غلام ! » .

وما هي إلا ساعة حتى كان الصديقان مُقبلين على شرابهما ، والفتاة تغنّيهما في صوت عذب نفاذ إلى القلوب ، يغمر وجهها إشراق أخاذ للنفوس هذه الأبيات :

جزى الله رب الناس خيرَ جزائه رَفيقين حلا خيمتيْ أم مَعبد
هما نَزلا بالبر ثم تَروّحـــا فأفلحَ مَنْ أمسى رفيقَ محمد
ليهن بني كعب مكان فتاتهمْ ومقعدُها للمؤمنين بمَرْصَد

قال الحارث بن هشام ، بعد أن أخذ من الغناء والشراب بحظ موفور : « ألم يأن لك أن تنبئني عن قصتك ، وأن تبين لي عن خطتك ، فإني أراك شديد الغموض منذ اليوم ، وما عرفتك قط غامضاً ولا ملتوياً فيما تأتي وما تدع من الأمر ! ! »

قال صفوان : « أتذكر هذا الشعر ؟ » . قال الحارث : « كيف لا أذكره وقد عرفنا به وجه محمد في هجرته ، واستيأسنا به من القدرة على ردّه إلينا ، وتعلمنا به أن ستكون لنا معه خطوب ! ! إني لأسمع هذا

الشعر الآن كما كنت أسمعه فى تلك الليلة حين انطلق به ذلك الصوت الرائع الرهيب يمشى به صاحبه من أسفل مكة إلى أعلاها ، والناس يسمعونه ويتبعونه ، ويلتمسون مصدره فلا يرون له شخصاً ، فيستقر فى نفوسهم أنه هاتف من الجن . وما أدرى الآن أكان هاتفاً من الجن أم كان هاتفاً من الملائكة ، ولكنه كان روحاً من هذه الأرواح التى ملأت علينا جوّنا فى هذه الأعوام » .

قال صفوان : « فإنى قد كرهت هذا الشعر كرهاً شديداً ، وازداد كرهى له منذ قُتل أبى وأخى بأيدى أصحاب محمد ، ومنذ ورد الملأ من قريش موارد الموت فيما كان بيننا وبين محمد من حرب . ولقد حاولت الثأر فى أحُد ، ولقد حاولت الثأر بعد أحد . ولقد كنت أظن أنى سأجد فيمن قتلنا من أصحاب محمد وبنى أبيه شفاء ، ولكنى لم أجد إلا غِلاً يزداد تحرقاً وتأججاً كلما تقدمت الأيام . ولقد التمست السلوّ عن هذا الغلّ فى الرحلة ، والتمسته فى الصيد ، والتمسته فى اللهو ، فما ظفرت به وما وجدت إلى شىء منه سبيلا . وأدعو ذات يوم بهذه الفتاة وأطلب إليها الغناء ، فتغنينى ما شاءت ، وأطرب لصوتها العذب وغنائها الحلو ، فأستزيدها فإذا هى تغنينى هذا الشعر ، فتذكرنى بما كنت أريد أن أنسى ، ويكون ذلك حين تبلغنا الأنباء بأن محمداً قد عبأ لحربنا ، وفصَل من يثرب ليدخلها علينا عنوة بعد أن رددناه عنها كراماً ، فيملكنى الغضب وتستأثر بى الثورة ، وآمر بالفتاة كما رأيت أن تحبس فى بيت من بيوت هذه الدار ، وأن توضع عليها الأغلال ،

وأن تُصبحَ وتُمسى بالسياط تُلهب جسمها هذا الرخص الجميل » .

قال الحارث : « ففيم إطلاقك لها ، وفيم اسماعك لهذا الصوت وشربك عليه ؟ » . قال صفوان : « فإن الرجل الكريم هو الذى يلقى جليل الأمر معترفاً به غير منكر له ولا جاحد لأخطاره . وقد حاربنا هذا الرجل ما وسعتنا حربه ، وقد ظننا به الظنون ، وأرسلنا فيه ألسنتنا وعقولنا ، وقلنا فيه ما نعتقد وما لا نعتقد ، وكانت الأيام تكذبنا ، وكانت الحوادث تكشف لنا عما كنا فيه من الإثم والضلال ، فكنا لا نسمع للأيام ولا نؤمن للحوادث ، وإنما نمضى فيما كنا نُضمر من البغض ، وفيما كنا نُظهر من العدوان . ولم تكن الحرب بينا وبين هذا الرجل ، وإنما كانت بيننا وبين قوة أعظم من هذا الرجل بأساً وأشد منه نفاذاً وأبعد منه أثراً فى حياة الناس . كنا نغالب القضاء ، فقد غلبنا القضاء . وكنا نحارب السماء ، فقد قهرتنا السماء . فما الخير فى أن نمضى فيما كنا نمضى فيه من صلف قريش وكبريائها ، ومن جاهلية قريش وغرورها ! ! » .

قال الحارث : « إنك لتحدثنى بما ناجتنى به نفسى مذ أعوام ، وبما كانت تناجينى به نفسى حين لقيتك عائداً إلى دارك بعد أن سمعنا منادى محمد يؤذن فى الناس أن من لزم داره فهو آمن ، وأن من لزم دار أبى سفيان فهو آمن . وكنت أريد أن أبلغ دارى فألزمها حتى أرى لى مخرجاً من هذا الحرج ، فلما لقيتك دعوتنى إلى دارك فأقبلت معك وإن كنت لغائباً عنك أسمع لما كانت نفسى تحدثنى به من النجوى » .

قال صفوان : « أما أنا فقد عدتُ إلى داري مغيظاً مُحنَقاً لا أملك نفسي من الغيظ ، ولكني عدت إلى نفسي معترفاً بأن أمر محمد قد ظهر على أمرنا ، وبأنى قد ظلمت هذه الفتاة كما ظلمت غيرها من الناس » .

قال الحارث : « فما تريد أن تصنع ؟ » . قال صفوان : « ما أدرى ! ولكنى لن أذعن لهذا السلطان الجديد إلا أن أكره على ذلك إكراهاً » .

قال الحارث : « أما أنا فمخرج نفسى من هذا اليأس وذاهبٌ إلى محمد فقابلٌ منه دعوته ومعلنٌ إليه إيمانى بما يريدنا عليه » .

وهما فى ذلك وإذا باب صفوان يُطرق ، وإذا مولاه يدخل مضطرباً فينبئُ سيده بأن رسول محمد بالباب . قال صفوان وقد ظهرت على وجهه ابتسامة حازمة : « فأدخِلْ رسول محمد »، ثم التفت إلى صاحبه وهو يقول : « هذا أول الشر ! ما تظنه يريد منا ؟ » .

ولكن الرسول أدخل فحيا وتلطف فى التحية ، وتلقاه صفوان لقاء حسناً ، ثم يقول الرسول لصفوان : « إن رسول الله (ص) يستعد لحرب هوازن ، وقد جمعتْ له جمعاً عظيماً ، وقد علم أن عندك سلاحاً ودروعاً وكثيراً من أداة الحرب ؛ فهو يسألك أن تُعينه بما عندك » .

قال صفوان فى لهجة لم تخلُ من سخرية : « فهو الغصْبُ إذاً ! » .

قال الرسول فى لهجة غلبت عليها الأناة والحلم : « كلا يا صفوان ! ليس الغصب من أخلاق رسول الله ، وهو لم يعلمنا غصباً ولا غدراً ولا تجبراً ، وإنك لتعلم قدرته عليك وعلى غيرك من الطلقاء ، أفتراه قد مسكم بشر ، أو نالكم بأذى ! ! إنه يستعير منك سلاحك ودروعك وما عندك من

أداة الحرب ، على أن يردها عليك موفورة بعد الظفر إن شاء الله » .

قال صفوان : « فأبلغ محمداً أن له عندنا ما يرضى ، وأنا سنعينه بما نقدر عليه من أداة للحرب . ومَن يدرى ! لعلنا نعينه بأنفسنا ، فهو بعدُ مَلكُ قريش » . قال الرسول : « بل قل نبيّ الله » . وأطرق صفوان ونهض الرسول فانصرف راضياً .

قال الحارث : « أباق أنت على ترددك ؟ أما أنا فسلمٌ منذ الآن » .
قال صفوان : « ما أدرى والله ما أصنع ! إن قلبى ليحب هذا الرجل ويؤمن له ، وإن نفسى مع ذلك لا تستطيع أن تسلو عن عز قريش » .
قال الحارث : « فإنى أرى أن عز قريش لم يتبدل ، إلا أن يكون ظهور محمد قد زاده قوة وبأساً ، ألم ينبئنا منذ أظهر دعوته بأننا إن نؤمن له ضمن لنا ملك الدنيا ونعيم الآخرة ؟ لقد كذبناه وأعرضنا عنه وسخرنا منه ، فلم يرُعه ذلك ، ولم يَفُل من عزمه ، وإنما مضى أمامه لا يلوى على شىء ولا يحفل بشىء ولا يُشفق من شىء ، حتى إذا لم يجد عند قومه خيراً ولا فى وطنه أملا ، هاجر بدعوته إلى حيث يستطيع أن يجهرَ بها وأن يذيعها آمناً ويذود عنها بالقوة إن تعرضت للخوف . ولست أخفى عليك أنى لم أعجب بشىء قط كما أعجبت بهذه الهجرة يفرّ فيها صاحبها برأيه ليذود عنه ويدعو إليه حرًّا طليقاً لا يخاف شرًّا ولا يلقى أذى !

« هذا الفرار بالحرية ، أو هذا الفرار فى سبيل الحرية ، شىء لم نعرفه من قبل . لقد كنا نفرّ بأموالنا لنحصنها ، وكنا نفر بأمتعتنا لنؤمنها .

وكنا نفرّ بدمائنا لنحقنها ، فإذا هذا الرجل وأصحابه يفرون بدينهم لينشروه ، ويتركون لنا أموالهم وأمتعتهم ومنافعهم ، ثم لا يلبثون أن يبذلوا دماءهم في سبيل ما يدعون إليه . ألا يروعك هذا » .

قال صفوان . « فما بال هذا كله لم يرعك قبل اليوم ؟ » .

قال الحارث : « والله لقد راعني وما زال يروعني ؛ وإنما هي الكبرياء . وقد آن أن تنجلي عني غمرتها » .

قال صفوان : « أما أنا فلم تنجل عني غمرة الكبرياء بعدُ ! وانظر ؛ إنّ أمري لعجبٌ حقًّا ! إني لا أستطيع أن أذعن لمحمد ، ولا أومن لما جاء به ، ولكني مع ذلك لا أستطيع أن أبقى بمكة آمناً وادعاً وهو يلقى عدوه من قيس . لأشهدنّ حربه هذه كما يشهدها أصحابه ، ولأنظرنّ في أمري بعد ذلك » .

ويتيح الله لنبيه الظفر يوم حُنين على جموع قيس بعد أن امتُحن المسلمون في أنفسهم وقد أعجبتهم كثرتهم فلم تُغن عنهم من الله شيئاً ، وإذا رسل النبي تصل إلى صفوان في خيمته ومعه الحارث بن هشام قد أسلم وشهد الوقعة مسلماً . فإذا دخل الرسل على صفوان قال قائلهم بعد أن حيا وتلطف في التحية : « إن رسولَ الله (ص) يردّ عليك سلاحك ودروعك وأداتك موفورة ، ثم هو يُهدي إليك حظًّا من الغنيمة يمنحك مائة من الإبل ، ولا يكره أن يزيدك إن استزدت » .

قال صفوان : « وَصَلته رَحمٌ ! فما عرفته إلا رجل خير ، وما أرى إلا أن الله قد منحه القدرة على تطهير القلوب من الحقد والبغض ، ومن

الضغينة والإثم . هلم سيروا معى إليه ، فقد آن لغمرة الجهالة أن تنجلى ، وآن لصفوان بن أمية أن يؤمن بمحمد وما أنزل عليه من الحق » .

ويمضى صفوان بن أمية إلى النبى فيسلم . ثم يعود فيخلو إلى نفسه ويفرغ لأمره ، ولايكاد يشارك الناس فيما يضطربون فيه من الأمر .

قال بعض أصحاب صفوان له ذات يوم : « أى أبا وهب ! إنك أسلمت ، ولكن الإسلام لا يستقيم لك إلا أن تهاجر كما هاجر الناس » .

قال صفوان : « فلنهاجر كما هاجر الناس » . وخرج من مكة غير محب للخروج . فلما بلغ المدينة لم يقم فيها إلا قليلا حتى قال له رسول الله (ص) : « عزمتُ عليك يا أبا وَهب لما رجعتَ إلى أباطح مكة » . فرجع إلى أباطح مكة أحب ما يكون فى الرجوع إليها ، وأقام فيها ما شاء الله أن يقيم . وكان يتحدث إلى الناس فيقول : « لقد أعطانى رسول الله (ص) يوم حُنين ، وإنه لمن أبغض الناس إلىّ ، فما زال يعطينى حتى إنه لمن أحب الناس إلىّ » .

قال قائل : « قد أحببته إذاً لعطائه » ! . قال صفوان : « ويحك ! لا والله إن كنت لغنيًّا ، وإنما أحببته لأن الله علمه كيف يداوى القلوب المرضى » .

شوق الحبیب الی الحبیب

وقف حارثة بن شراحيل ذات يوم على بعض غلمانه ، وقد انحدرت الشمس إلى مغربها مسرعة كأنما كانت تنهزم أمام هذا الليل الذى أقبل فى هدوء وجلال كأنه سيل من الظلمة الحالكة يغمر الصحراء والآكام قليلا قليلا ، فقال فى أناة لا تخلو من حدّة : « شبوا ناركم يا هؤلاء ، وأطعموها من جَزْل الحطب ويابسه ، فإنى أراها منذ ليال خامدة هامدة ، لا يكاد يسطع لها لهب ، أو يرتفع لها سناً ، وأنتم ترون ظلمة الليل تغمر الأرض ، وظلمة السحاب تحجب السماء . وما أرى إلا أنا نستقبل ليلة قاسية عاتية على من ركب الطريق . وقد قلّ الطارقون لنا منذ حين . وقد كنت أرجو أن يكون منزلنا هذا أمناً للخائف ، وهُدًى للحائر ، وخصباً للمجدبين » . ثم تحول عنهم ومضى إلى نادى قومه .

فقال بعض الغلمان : « ويلٌ للإبل الرائحة ! إنا لنرى فى وجه مولانا شرًّا ، وما نظنها تجوزه موفورة . إن نفسه لتنازعه إلى قرَى الضيف ، ولئن لم يطرقه ضيف ليضيفنّ من حضره من أهل الحىّ » . قال قائل : « فإنى أعرف فى وجهه الملل والضيق منذ أيام . وما أرى إلا أن غيبة زوجه وابنه قد طالت عليه ، ولولا أنه يصطنع الأناة ويحرص على الوقار لخف إليهما وتعجل عودتهما ، ولكنه يكره أن يقال غابت عنه سُعدى شهراً فلم يستطع عنها صبراً . ومن يدرى !

لعله حين أمرنا بأن نشبّ النار ليسطع لهبها ويُبعد سناها إنما فكر فى سعدى وزيد ، وقدر أنهما يتجشمان إليه وعورة الطريق وظلمة الليل وريح الشمال هذه التى تلفح الوجوه ببردها الذى لا يطاق . فلنشب له النار ، ولنرفع من لهبها وسناها ما يفرق الظلمة ، ويهدى الحائر ، ويدعو إلى الأمن والدعة والقرى ، ولنا من هذا كله حظ مقسوم ونصيب موفور ، ولنا من رضا سيدنا غبطة ، ومن راحته بهجة وسرور » .

ولم يخطئ غلمان حارثة فيما أداروا بينهم من حديث ؛ فقد كان سيدهم منغص النهار ، مؤرق الليل ، موله الفؤاد ، مفرق النفس حين اتصلت غيبة زوجه عنه ، وكانت قد فارقته منذ شهر أو أكثر أو أقل لتزور قومها فى هذا الحى من طيئ ، حيث يقيمون غير بعيد ، وإنما هى ثلاثة أيام تقطع فيها الإبل أمداً من آماد الصحراء . فتبلغ منازل طيئ فى ظل الجبلين أجأ وسلمى .

وكانت سُعدى قد احتملت معها أصغر أبنائها زيداً ، وكان غلاماً يافعاً ، لم يكد يبلغ الثانية عشرة من عمره ، تريد أن تُزيره أخواله ، وتصل بينه وبين صبية قومها وغلمانهم . وقد شقت هذه الرحلة على زوجها حارثة ، ولو أطاع نفسه وأرسل طبعه على سجيته ، لأجل هذه الرحلة أشهراً حتى تتاح له المشاركة فيها ، ويأمن فراق آثر الناس عنده وأحبهم إليه . ولكنه لم يستطع ، ولم يرد أن يُظهر نفسه ضعيفاً رقيقاً ، فخلى بين امرأته وبين ما أرادت ، وتقدم إليها فى ألا تُطيل المقام عند قومها ، وأن تعود قبل أن يتقدم الشتاء ويكثر هبوب الشمال .

وقد أخذ يرتقب عودتها منذ أيام ، لا تكاد تمضى ساعة من نهار أو من ليل حتى يمضى معها شطر من صبره وقسط من احتماله ، وحتى يشتد شوقه إلى زوجه ونزاع نفسه إلى ابنه ، وضيقه بالانتظار بين قومه من كلب . وكثيراً ما كان يخرج من خبائه حين يرتفع الضحى فيمضى أمامه حتى يُبعد ، ثم يرقى فيقوم فيها مقام الربيئة ، إلا أنه لم يكن يرقب العدوّ أو يتجسس المغير ، وإنما كان يرسل نظره فى الصحراء يرجو أن ترفع له العير التى تحمل إليه سعدى وابنها زيداً . وكان إذا طال وقوفه على ربوته تلك ، وتقليبه نظره فى وجوه الصحراء ، ظن بنفسه الظنون ، وأشفق أن يظن قومه به الظنون ، فعاد أدراجه كاظماً ما يجد من شوق ، كاتماً ما يحس من وجد ، شاغلا نفسه أو متكلفاً شغلها بما يمكن أن يُشغل به الأغنياء الموسرون من أهل البادية الوادعين الآمنين .

وكان كلما تقدم النهار يقدر أن العير ستقبل عليه مع الليل ، فإذا أقبل الليل أشفق منه على هذه العير التى لم يكن يشك فى أنها قد ركبت الطريق . وقد كتم على نفسه أحاديثها تلك ما استطاع ، ولكنه فى تلك الليلة أحس الخوف يساوره والإشفاق ينازعه نزاعاً شديداً ، واحتفظ مع ذلك بشىء من أناة وفضل من وقار ، فتقدم إلى غلمانه فى أن يشبوا نارهم ويذكوها ، وقدر فى نفسه أنه سيستعين على ليله الطويل بإطعام الحى وإذاعة الكرم والجود فيه . حتى إذا كان الغد تقدم إلى ابنيه الشابين فى أن يذهبا فى الطريق إلى منازل طيئ . فإن

أدركا العير عادا معها ، وإن لم يدركاها مضيا حتى يردا هذه الغائبة التي أسرفت فى الغيبة وقصرت فى ذات الزوج والأبناء والبنات .

وما كاد الرعيان يروحون بالإبل مع العتمة حتى نهض حارثة كأنه الجنى ، وأومأ إلى ابنيه الشابين فتبعاه ، ومضوا حتى تخيروا من هذه الإبل ناقة كوماء وجزوراً سميناً ، فعقروا ونحروا وأذنوا فى الحى أن هلم إلى الطعام واللهو . وقضى الحى ليلة خصب ولهو ودعة ، شبع فيها الجائع وطعم فيها البائس ، ولها فيها المترف الميسور . ولكن الليل لم يكد ينقضى حتى سمع دعاء الطارق من بعيد ، ويسرع حارثة وابناه إلى الاستجابة لهذا الدعاء . وما هى إلا ساعة حتى يقبل الضيف ، وإذا هم جماعة من شباب البدو وشياطين الصحراء ، قد شق عليهم الليل ، واشتد عليهم البرد وعصفت بهم الريح ، فاضطروا إلى الهدوء والراحة ، وقد كانوا يودون لو استطاعوا أن يمضوا فى طريقهم حتى يبلغوا غايتهم من الغد أثناء النهار أو حين يشرف الليل . ويتلقاهم حارثة وابناه لقاء حسناً ويبلغونهم من الأمن والقرى السريع ما يشتهون . حتى إذا أشرقت الشمس من غد وهمت الإبل أن تمضى لمراعيها نهض حارثة وابناه فاستبقوا منها ما عقروا ونحروا ، ثم أذنوا فى الحى أن هلم إلى الطعام والقرى ، وإذا هم ينفقون نهاراً خصباً كما أنفقوا ليلة خصبة . وقد وجد حارثة فى كرمه وجوده عزاء عن شوقه وسلوة عن وجده ، ورجوعاً إلى ما كان ينبغى لمثله من الصبر والجلد والوقار . وارتحل عنه ضيفه موفورين راضين ، واستأنف هو حياة هادئة بعض الهدوء راضية بعض الرضا .

ولكنها أيام تمضى وتتبعها أيام ، ولا يبلغه من أخبار الغائبة شيء ، حتى يشق الأمر عليه ويبلغ الجهد به ، وحتى يهم بالرحلة إلى منازل طيئ لا يكتم ذلك ولا يخفيه . وإنه ليستعد لهذه الرحلة وإذا بنبأ يبلغه فيملأ قلبه جزعاً ويأساً . فقد أغار نفر من صعاليك العرب وشياطين الصحراء على أطراف طيئ فاستاقوا إبلا واختطفوا صبيه ، ومضوا قبل أن يبلغ الصريخ معظم الحى ، فانطلقوا إلى حيث لم تبلغهم الخيل ، على أنها وُجِّهتْ فى طلبهم كل وجه من وجوه الصحراء جميعاً .

وصَوِّرْ أنت لنفسك جزع ذلك الأب البائس ، ويأس تلك الأم النازح ، وما ألم بهذين الحيين فى طيئ وكلب من هذا الحزن المغيظ الذى لا شفاء له ولا سبيل إلى إطفاء ناره بثأر أو انتقام . وعند من يكون الثأر وممن يكون الانتقام وقد أغار المغيرون فانتهبوا واختطفوا ولم يدّعوا لحى من أحياء العرب ولم ينتسبوا لقبيلة من قبائل قحطان أو عدنان ؟ ! ومتى ادعى الصعاليك والخلعاء لحىّ أو قبيلة ! ! ومتى نهضت الأحياء والقبائل بجرائر الخلعاء والصعاليك ! !

ولكن أعواماً تمضى وحارثة يلقى من اللوعة والحسرة ما يلقى ، وسعدى تجاهد من اليأس والقنوط ما تجاهد . ويُقبل نفرٌ من كلب يزورون مكة فى الموسم ، فيلقون عند المسجد شاباً قصيراً آدم أفطس الأنف يتوسمون فيه ملامح كلب ، ثم يسمعون له ويتحدثون إليه ، فما يشكون فى أنه كلبى وفى أنه من رهطهم الأدنين . عرفوا لغته ، ثم نسبوه فعرفوا نسبه ، ثم سألوه عن قصته فأنبأهم بأن نفراً من الصعاليك

اختطفوه مع جماعة من أترابه بنين وبنات ، ثم تفرّقوا بهم ، وأقبل به خاطفه إلى سوق عُكاظ فباعه من حكيم بن حزام بن خُويلد الأسدىّ ، وأدّاه حكيم هذا إلى عمته خديجة بنت خويلد الأسدية ، وأحسنت هذه العناية به والرعاية له ، حتى إذا تزوجت من الأمين محمد بن عبدالله ابن عبد المطلب وهبته له ، فهو قائم على خدمته منذ أعوام .

ويهمّ هؤلاء النفر من كلب أن يسعوا فى فدائه عند الأمين ، وأن يعودوا به على أمه البائسة وأبيه الملتاع . ولكن الفتى يردّهم عن ذلك أجمل الرد وأرفقه ، ويلح عليهم فى ألا يفعلوا ، ويحملهم إلى أبويه وعشيرته تحية فيها الحب والبرّ ، ولكن فيها الرضا بهذه الحال التى صار إليها ، والحرصُ على هذا المنزل الذى استقر فيه . ومن غريب ما قص الفتى على هذا النفر من كلب أنه لا يشك فى أن الذين اختطفوه قد كانوا حديثى عهد بأبيه . طرقوه ذات ليل فتلقاهم لقاء حسناً ، وتقدّم فى قراهم وتزويدهم بخير ما أحبوا . سمعهم الفتى يتحدثون بذلك ، ويُثنون به على حارثة بن شراحيل ، وظن أنه إن انتسب لهم وعرفوا مكانه من حارثة ردّوه إليه ، فلما فعل لم يلقَ منهم إلا ظلماً وهضماً وإنكاراً ، كذبوه وآذوه وظنوا به الخديعة والكيد .

ويعود هذا النفر من كلب إلى حيث ينزل قومهم فى طرف من أطراف الشام ، فيردّون الأمن والهدوء والغبطة والأمل إلى الأبوين البائسين اليائسين . فإذا كان الموسم من قابل أقبل حارثة وأخوه كعب حاجّين وزارا مكة ، والتمسا الأمين فدلا عليه ، فيقولان : « يابن

عبدالله ! يابن عبد المطلب يابن هاشم يابن سيد قومه ! أنتم أهل الحرم وجيرانه وعند بيته ، تفكّون العانى وتطعمون الأسير ، جئناك فى ابننا عندك ، فامْنُنْ علينا وأحسن إلينا فى فدائه ، فإنا سنرفع لك فى الفداء » . قال : ما هو ؟ قالوا : زيد بن حارثة . فقال رسول الله (ص) : فهل لغير ذلك ؟ قالوا : ما هو ؟ قال : ادعوه فخيروه ، فإن اختاركما فهو لكما بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحداً . قالا : قد زدتنا على النصَف[1] وأحسنتَ . قال : فدعاه فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم . قال : مَنْ هما ؟ قال : هذا أبى وهذا عمى . قال : فأنا مَنْ قد علمتَ ورأيت صحبتى لك فاخترْنى أو اخترهما . فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت منى بمكان الأب والأمّ . فقالا : ويحك يا زيد ! أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ قال : نعم ! إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً . فلما رأى رسول الله (ص) ذلك أخرجه إلى الحجر فقال : « يا من حضر اشهدوا أنّ زيداً ابنى أرثه ويرثنى » . فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما وانصرفا ، فدُعِىَ زيد بن محمد ، حتى جاء الله بالإسلام[2] .

وقع حب هذا الفتى فى قلب الأمين ، وملأ حب الأمين قلب الفتى ، وإذا الأمين يعلم ذلك من نفسه ومن غلامه ، فيأبى الفداء ،

---

(١) النصف (بالتحريك) والنصف (بالكسر) : الانتصاف وإعطاء الحق .

(٢) طبقات ابن سعد طبع ليدن ، جزء ٣ صفحة ٢٨ .

ويخالف عما ألف الناس . وإذا الفتى يخرج من هذه المحنة منتصراً على نفسه وعلى أواصر القربى ، وعلى ما ألف الناس من إيثار الحرية على الرق ، ومن إيثار الوطن على الغربة ، ومن إيثار الأهل على الأجانب فى الدار والنسب . ولكن الله قد أعد لزيد ألواناً أخرى من المحن ، وقرنها بألوان أخرى من الخير والكرامة . فهذا الأمين قد اتخذه له ابناً ، وزوجه ابنة عمته زينب بنت جحش ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب . وقد اختص الله أمين قريش بنبوته وائتمنه على وحيه ورسالته ، وإذا ابنه زيد أسرع الرجال استجابة له وانحيازاً إليه . وقد أخلص زيد فى صحبة مولاه وأبيه ونبيه ما أقاما فى مكة ، يحتملان من ألوان الأذى وصنوف المكروه ما يحتمله المسلمون ، ويصبران من الفتنة على ما صبر عليه الذين منحهم الله قلوباً جلدة ونفوساً حرّة وإيماناً عميقاً . حتى إذا أذن الله لنبيه وللمؤمنين فى الهجرة ، هاجر زيد مع المهاجرين ، فآخى رسول الله بينه وبين عمه حمزة بن عبد المطلب .

يجعله بهذا كله فرداً من أفراد الأسرة وواحداً من أهل البيت ، ويتحدث إليه بأنه مولاه وبأنه منه ومن قومه . ويشهد زيد معه بدراً ، ويشهد زيد معه أحُداً ، ويغزو النبى فيخلف زيداً على أمر المدينة من ورائه ، ويقيم النبى فيخرج زيداً أميراً على سراياه وغزواته ، حتى تقول عائشة رحمها الله : « ما بعث رسول الله (ص) زيد بن حارثة فى جيش قط إلا أمّره عليهم ، ولو بقى بعده استخلفه[1] » .

---

(١) طبقات ابن سعد طبع ليدن ، جزء ٤ صفحة ٢١ .

ولكن لله فى عباده أمراً هو بالغه ، وإرادة هو ممضيها ، وحكمة هو حاملهم عليها . لقد كان المسلمون لا يدعون هذا الرجل إلا زيد بن محمد ، ولا ينظرون إليه إلا على أنه ابن نبيهم ، ومن أقرب الناس إليه وألصقهم به وآثرهم عنده ، وكان النبي نفسه يقول ذلك ويجهر به . ولكن الله يريد أن يُلغى نظام التبنى هذا ، وأن يردّ الناس إلى أنسابهم وأن يَدْعوا الأبناء لآبائهم ، وإذا هو يمتحن فى ذلك نبيه ، ويمتحن فى ذلك زيداً ، ويمتحن فى ذلك المؤمنين الصادقين جميعاً . يُلقى فى قلب النبي حب زينب زوج زيد ، ويلقى فى قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها .

وهذه نفس محمد مضطربة أشدّ الاضطراب ، ممتنعة أشد الامتناع ، واجمة أشد الوجوم ، ترفض هذا الحب رفضاً وتزْوَرّ عنه ازوراراً ، وإذا هي تُنكره حتى على نفسها . ولكن الله يبدى ما تخفى ، ويُعرّف الناس ما تُنكره ، وإذا زيدٌ يريد أن يطلق امرأته والنبي ينهاه ويزجره ويحذره . ولكن الله بالغ أمره وممض إرادته ومتم حكمته ، وإذا زيد يطلق امرأته ، وإذا النبي يتزوّج زينب ، ويقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض فى ذلك ما يقولون . ولكن الحب الخالص بين زيد ومحمد يخرج من هذه المحنة ظافراً منتصراً كأنقى وأصفى ما يكون ، وإذا الله يُنزل فى هذه المحنة قرآناً ويسمى فيه زيداً فيقول : « وإذْ تقولُ للذى أنعمَ اللهُ عليه وأنْعمتَ عليه أمْسكْ عليكَ زَوْجَكَ واتّقِ اللهَ وتُخفى فى نفسكَ ما اللهُ مُبديه وتخشى

النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى المُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً » . ثم يقول : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً » .

وقد تلقى المؤمنون الصادقون هذه المحنة كما كانوا يتلقون أمر الله كله راضين به مخلصين فى الرضا ، قد اطمأنت إليه قلوبهم ، وصفت له نفوسهم ، وصحت على إمضائه عزائمهم . وثقوا بأنّ الله قد اختار لهم فاختاروا لأنفسهم ما اختار لهم الله . وقد مضى زيد مع نبيه وصاحبه كما كان يمضى مع أبيه ، وفياً أميناً مخلصاً ، مجاهداً فى سبيل الحق مضحياً فى ذات الله . وإذا رسول الله يزوجه حاضنته أم أيمن الحبشية ، ويعده الجنة ، فتنجب له أسامة بن زيد .

ثم تُقبل المحنة الأخيرة . فهذا النبي يجهّز لغزوة مُؤتة . فإذا أتم جهازه اختار الأمراء ؛ فقدّم زيداً وقال : « فإن أصيب فجعفر ابن أبى طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رَوَاحَةَ » . قال المحدثون : فوثب جعفر بن أبى طالب فقال : « يا رسول الله ، ما كنتُ أرغب أن تستعمل علىّ زيداً » .

فقال رسول الله : « امضهْ فإنك لا تدرى أىّ ذلك خير »[١] .

ومضى المسلمون إلى مُؤتة يقودهم زيد . حتى إذا كانت الموقعة ،

---

(١) طبقات ابن سعد طبع ليدن ، جزء ٣ ، صفحة ٣٤ .

قاتل المسلمون على صفوفهم وقاتل الأمراء مترجلين ، فقتل زيد رحمه الله طعنًا بالرماح . وقال النبي حين بلغه ذلك : « إنه دخل الجنة يسعى » . وصعد النبي المنبر فأنبأ المسلمين بمصرع الأمراء الثلاثة ، وقال : « اللهمَّ اغفر لزيد ، اللهم اغفر لزيد ، اللهم اغفر لزيد، اللهم اغفر لجعفر ولعبد الله بن رواحة » يستغفر لزيد ثلاث مرات ، ويجمع بين ابن عمه جعفر وعبد الله بن رواحة فى استغفار واحد .

تحدَّث ابن سعد عن الواقدى فى إسناده ، قال : لما أصيب زيد ابن حارثة ، أتاهم النبي (ص) قال فَجهشتْ بنت زيد فى وجه رسول الله (ص) فبكى رسول الله (ص) حتّى انتحب . فقال له سعد بن عُبادة : يا رسول الله ما هذا ؟ قال : « هذا شوق الحبيب إلى حبيبه » .

القلب الرحيم

لم يبسم الأمير لحنظلة بن عُمير الخزاعىّ حين أدخل عليه ، ولم يبسط له ذلك الوجه الذى تعوّد زوّاره أن يروه مشرقاً سمْحاً ، بل لم ينظر إليه ، ولم يرفع رأسه عن ذلك الكتاب الذى كان ينظر فيه ، وإنما تلقّى من الشيخ تحيته وردها عليه بمثلها ، وكأنه نسى مكانه منه فلم يأذن له بالجلوس . وظل الشيخ قائماً حائراً ، مطرقاً حيناً ثم ناظراً عن يمين وشمال حيناً آخر ، والناس من حول الأمير ومن حوله ساهمون واجمون ، ينكرون فى أنفسهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً تهيباً للأمير .

وكانت للشيخ فى نفوس الناس بالفسطاط مكانةٌ حسنة ومنزلة رفيعة . عرفوا ورَعه ، وكرم نفسه ، وتنزهه عن الصغائر ، وحسنَ بلائه فى المشاهد ، وحسنَ رعايته لحرمات الدين ، وأكبروا منزلته من قومه ، ونباهة شأنه فيهم ، وحسنَ صنيعه إليهم . وكثيرٌ منهم كانوا يكبرون عظم ثروته ، وسعة ذات يده . وكلهم كان يرى على كل حال أن الأمير لم يَلقه بما تعوّد أن يلقاه به من البشر والإيناس . وكلهم كان يودّ لو استطاع أن ينبّه الأمير إلى مكان الشيخ ، ولكنه كان يشفق أن يجاوز حقه ويعدو حده ويدخل على الأمير بما لا يحب .

وقد طال إطراق الأمير وصمته ، وطال وقوف الشيخ وحيرته . ثم تحوّل الشيخ عن موقفه فجأة ، وسلم على الأمير سلام المنصرف .

فرفع الأمير إليه وجهاً عابساً وهو يقول : « إلى أين يا حنظلة ؟ » . قال الشيخ : « إلى حيث يلقاني الناس بغير ما لقيتني به أيها الأمير » . قال الأمير : « لا بأس عليك ؛ اجلس فإن لي معك شأناً » . قال الشيخ : « لقد علمت أن لك معي شأناً ، ولكني علمت أيضاً أن مثلي لا يُلقى بمثل ما لقيتني به . فإن كنت قد دعوتني لخصومة أو ملامة ، فقد كنتَ حريًّا أن تُقدمَ بين يدي خصومتك أو ملامتك خيراً مما قدمت ، أو تكلف قاضيك أن يدعوني كما يُدْعَى المتهم المليم » .

قال الأمير : « اجلس فليس عليك من بأس ! إني لم أدعك لخصومة ولا لملامة ، وإنما دعوتك لبعض الأمر . ولعل ما نجم بينك وبيني لا يعدو العتب عليك والنصح لك » . قال الشيخ : « وما ذاك ؟ » . قال الأمير : « فخذ مكانك ! فإنا سنتحدث عما قليل » .

وسعى الشيخ هادئاً مطمئنًّا حتى جلس وهو لا يكاد يُخفي ما يظهر على وجهه وفي عينيه من آيات الغيظ . وأحسَّ جلساء الأمير أن الأمير يريد الخلوة إلى حنظلة فجعلوا ينصرفون متتابعين ، حتى لم يبقَ في مجلس الأمير أحدٌ إلا هذا الشيخ . هنالك نظر الأمير إلى حنظلة نظرة طويلة فيها حب ورفق ، وفيها حزم وعزم أيضاً ، ثم قال وهو يبتسم متكلفاً : « إن لبيت مال المسلمين عندك لثأراً ما أظنه يستطيع أن يُدركه منك مهما تَضخَّمْ ثروتك ومهما تُغلّ هذه الأرض التي تملكها ، ومهما يَكسبْ لك هذا العدد العظيم من الرقيق الذين تصرّفهم في هذه الصناعات المختلفة المربحة » .

قال حنظلة : «أبِنْ عما تريد أيها الأمير ؛ فإنى لا أفهم عنكِ منذ اليوم» . قال الأمير : «فإنك قد رَزأت بيت المال رُزْءاً ما أظن ثروتك تستطيع أن تنهض به» . قال حنظلة : «فإنك لم تُولّنى عملا من أعمالك ، ولم تأتمنى على ما تحتوى خزائنك من مال ، وما أعرف أن بينى وبين السلطان سبباً من أسباب التجارة أو الالتزام ، فكيف رزأت بيت المال وبم رزأته ؟» .

قال الأمير : «ما هذا الحديث الذى بلغنى عنك ؟ ألم ترتفع إلىّ الأنباء بأنك قد زُرْتَ قرية عامرة من قرى الريف تريد أن تتعهد فيها بعض أرضك ، فلم تنصرف عنها حتى أسلم أهلها جميعاً ، ولم يبق منهم مُعاهد يؤدى إلى بيت المال درهماً أو ديناراً ! أفتظن أنك لم ترزأ بذلك بيت مال المسلمين ! ! فإذا مضيت على سيرتك هذه ، وإذا تأثرك جماعة أمثالك ، فجعلوا كلما زاروا قرية من قرى الريف حملوا أهلها على الإسلام وصرفوا عن بيت المال مورداً من موارده ، فإلامَ نحن صائرون ؟ ومن أين نُنفق على هذه المرافق ؟ ! ومن أين نرزق أهل الديوان ، ونوفر على الجند أعطياتهم ؟ وكيف نحمل إلى دمشق ما تريد أن يُحمل إليها من المال ؟» . فلم يستطع الشيخ أن يملك نفسه ولا أن يحتفظ بما ينبغى من الوقار لنفسه أولا ولمجلس الأمير بعد ذلك ، ولكنه اندفع فى ضحك حرّ مطلق لا تحفظ فيه ولا اتزان . وجعل الأمير ينظر إليه دَهشاً لا يدرى أيغضب أم يرضى . فلما سكت الضحك عن الشيخ قال فى صوت مضطرب بعض الشىء : «أصلحك الله

أيها الأمير وغفر لك ! ما كنت أظن أن الله قد بعثنا جباة للمال نملأ به خزائنك ونحمله إلى دمشق ، وإنما علمت أن الله قد بعثنا دعاة إليه ، وهداة إلى الحق ، ومبشرين برحمة الله ، ومخوفين من نقمته ، ما يعنينا بعد ذلك أن تمتلئ خزائنكم بالمال أو تصفر منه » .

قال الأمير وهو يبتسم ويكظم غيظاً يريد أن ينفجر : « حسبك يا حنظلة ! هذا كلام كان يقال منذ أذاعه عمر بن عبد العزيز رحمه الله في الناس وكتبه إلى الولاة والعمال ، وقد قبلته أنت ونفر من أمثالك ، ومضيتم في إنفاذه جادين . ولكن عمر رحمه الله قضى ولم يطل به العهد ، وعادت أمور الناس إلى من تعلم من الخلفاء والأمراء ، وعادت سياسة الناس سيرتها الأولى . فلا بد من أن ننفق على المرافق ، ولا بد من أن نرزق الجند ، ولا بد من أن نحمل إلى بني مروان في كل عام ما ينهض بأعبائهم ، وإنها لأعباء ثقال ! » .

قال حنظلة : « فإن أمر هذا كله لا يعنيني ، وإنما يعني أمير المؤمنين وولاته وعماله والمديرين لأمواله ، فأما أنا فرجل من المسلمين أتيح له أن يدعو الناس إلى الحق ، فاستجابوا له وهداهم الله به إلى دينه ؛ فلا علي أن يصرف عن بيت المال موارده . وإن كان لك أيها الأمير أو لأمير المؤمنين أرب فيما أملك من ثروة فما أستطيع أن أدفعكما عنه ، وما أريد أن أفعل ؛ فخذا منه ما تشاءان ، وخذاه كله إن أحببتما ؛ فإن المال يغدو ويروح . وما أكره أن أشتري هدى هؤلاء الناس بمال مهما يكثر ، وما أكره أن أعين بيت المال على بعض

أعبائه بثروة مهما تضخم ، فإنى أرى ذلك صدقة ، وأعلم أن الله لا يُضيع أجر المتصدقين » .

قال الأمير وقد عاد إليه هدوؤه واطمأن فى مجلسه وأشرقت فى وجهه ابتسامة حلوة عرفها حنظلة ، فنظر إلى الأمير نظرة الصديق قد لقى صديقه بعد طول الغيبة — قال الأمير : « ليس عليك ولا على مالك بأس ! ولكنى أريد أن تقتصد فى هذا الجهد وترفق فى هذه الدعوة » .

قال حنظلة : « فإنى لم أبذل جهداً ولم أشتدّ فى دعوة . ولوَددتُ لو أستطيع أن أبذل فى ذلك الجهد وأن أبلغ من هداية الناس إلى الحق ما أريد ! فما أعرف أن شيئاً يؤذى نفسى كما يؤذيها منظر هؤلاء المعاهدين وهم يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون . وإنى لأرى فى دعوتهم إلى الإسلام وهدايتهم إليه إنقاذاً لنفوسهم وإنقاذاً لمروءتهم وإمتاعاً لهم بهذه الحرية التى نتمتع بها وهم مُبعدُون عنها مصروفون عما تكفل لأصحابها من الشرف والكرامة وكمال الرجولة . ألم تضع نفسك قط أيها الأمير موضع واحد من هؤلاء الناس الذين يشترون أمنهم على أنفسهم ودينهم بالمال يؤدّونه إلينا صاغرين ؟ » .

قال الأمير : « وفيم تريد أن أضع نفسى موضع هؤلاء الناس ، وقد من الله علينا بالعروبة والإسلام فجنبنا هذا الصغار ؟ »

قال حنظلة : « فإن الله قد أمرنا أن نسوى بين الناس وبين أنفسنا ، وأن ندعوهم إلى الإسلام لنرفع عنهم هذا الإصر ، ولنردهم إلى مشاركتنا فى هذه النعمة التى أنعم الله بها علينا » .

قال الأمير : « ألم تُنبئني أنك لم تبذل فيما صنعت جهداً ، ولم تحتمل فيه مشقة ولا عنفاً ؟ » .

قال حنظلة : « بلى ! ولو قد علمت كيف كان اهتداء هؤلاء الناس إلى الحقّ واستجابتهم لدعوة الله لراعك من ذلك ما راعني ، ولأعجبك من ذلك ما أعجبني ؛ فإني لا أقضي العجب من هذه القصة التي أجرى الله بها الخير على يدي . وما رأيت أعجب من أمر محمد صلى الله عليه وسلم فيما رأيت وما علمت من أمور الأنبياء . رجلٌ كان يطالبه خصومه وأعداؤه بالمعجزات ، فيبرأ منها ويعلن إليهم أنه بشر مثلهم ، وأنه لم يُرسَل ليبهر العقول بالأحداث العظام ، وإنما أرسل ليتلو على الناس قرآناً يتحدث إلى عقولهم فيملؤها هدى ، ويتحدث إلى قلوبهم فيشعرها رحمة وبرًّا ، ثم لا يخلو أمره من هذه في المعجزات التي تبهر العقول وتسحر الألباب ، دون أن تحدث في طبيعة الأشياء حدثاً أو تتجاوز بعادات الناس الجارية طريقها المألوف ! إنما هي معجزات ممتازات يراها الناس مألوفة يسيرة ، ويراها المفكرون نادرة باهرة ومقنعة مفحمة للمكابرين . لقد كان محمد رجلا لا كالرجال . ولقد كان بشراً ، ولكنه امتاز بين الناس بخصال أحسها وأحققها في قلبي وفي عقلي ، ولكني لا أجد إلى تصويرها سبيلا » .

قال الأمير : « فأفصحْ عما تريد واقصصْ عليّ قصتك ؛ فإنك قد أثرْتَ في نفسي عَجَباً من العجب » .

قال الشيخ : « فإن قصتي يسيرة كبيرة ككل ما يتصل بهذا الرجل الكريم الرحيم . إنك لتعلم أني ذهبت إلى تلك القرية أتعهد بعض أعمالي ، فما أبلغها وما أستقر فيها حتى أعرف أن عظيماً من عظمائها النصارى قد رُزئ في صبي له ، فأرى من الخير والبر أن أسعى إليه مواسياً ومعزياً فأفعلُ . ويلقاني الرجل حفياً بي وقد ملك الجزع كل أمره وأخرجه عن طوره ، ولقد كنت أعرفه جلداً صبوراً وقوراً ، ولكن هذا الصبي قد كان وحيده ، وقد كان قرة عين له حين تولى عنه الشباب وأدركته الشيخوخة . فلما نزل به الخطب لم يثبت له ولم يستطع عليه صبراً ، وقد عجز من كان يحيط به من القسيسين والرهبان عن تعزيته وتسليته . ويأخذني الرفق به والإشفاق عليه ، فأتحدث إليه في لغته القبطية مواسياً مسلياً ، وأقول له فيما أقول : « لو عرفتَ أن أحاديث نبينا تعزيك أو تسليك لقصصت عليك منها طرفاً . فقد رُزئ نبينا في صبي وحيد له ، كما رُزئت في صبيك هذا الوحيد . فتلقى الرزء كريماً يملأ قلوبنا نحن المسلمين إكباراً له وإعجاباً به ورحمة للصبية من أبنائنا ، في احتفاظ بالرجولة ، وثبات على المروءة ، واصطناع للوقار ، واعتراف بحق الله فيما يمنّ به علينا من المال والولد ، وإنما يأخذه كما أعطاه دون أن يكون لنا أن نضيق بذلك أو نثور عليه ، هي نعمةٌ أهديت إلينا ثم أخذت منا ، وقد ابتلينا بإهدائها إلينا كما ابتلينا بأخذها منا ، ونحن بعد ذلك مثابون إن ثبتنا للمحنة وصبرنا على الابتلاء .

قال الرجل : « فحدثني بحديثك ، فإن ما تقوله يبعث في نفسي شيئاً من راحة وأمن ودعة » . قلت : « فإن نبينا قد رُزق في آخر أيامه صبياً ابتهج لمولده ابتهاجاً عظيما وسُر به سروراً لا يقدّر . ولكن نبينا كان يُحسن لقاء النعمة كما كان يُحسن لقاء المحنة ، كان لا يُخرجه الابتهاج عن طوره ، وكان البطرُ والأشرُ أبعد الأشياء عنه . وكان إذا رضى لم يستأثر بلذة الرضا ، وإنما يُشرك فيها الناس . فلم يكد يُرزَقُ هذا الصبي حتى أعلن ذلك إلى الناس مغتبطاً ، ثم تصدق على الفقراء ، ووسّع على من ضيقت عليهم الحياة . وكان رفيقاً بابنه هذا ، يسعى إليه عند مرْضعه إذا قال الناس ، فيأخذه فيقبله ويقول له ما شاء الله أن يقول من هذه الألفاظ الحلوة التي تصور أجمل تصوير حنان الآباء ورحمتهم لأبنائهم . وقد كانت نعمة الله على نبينا لا تُحصى ، وكان منها امتحان الله له في أحبّ الأشياء إليه وآثر الناس عنده فما يبلغ ابنه ستة عشر أو ثمانية عشر شهراً حتى تسعى إليه العلة . ويمضي النبي مع صفيّ من أصفيائه يقال له عبد الرحمن بن عوف ليعوده فيبلغه وهو يجود بنفسه ، وينظر الأب إلى صبيه الوحيد الذي جاءه حين تولى عنه الشباب ، وحين أقبلت عليه الشيوخية ، وحين استيأس من الولد ، ينظر الأب إلى ابنه هذا أسفاً محزوناً ، ولكنه ينظر إليه مع ذلك راضياً مطمئناً مذعناً لقضاء الله . وهذه عينه تدمع ، وهذا صفيه ينكر منه ذلك ويقول له : « أتبكي وقد نهيت الناس عن البكاء ؟ » . فيجيبه : « إنما هذا رُحْمٌ ، وإن من لا يَرْحمُ لا يُرحمُ ،

إنما نهى الناس عن النياحة وأن يُندب الرجل بما ليس فيه » . ثم قال : « لولا أنه وعدٌ جامع ، وسبيلٌ متئاء ، وأن آخرنا لاحقٌ بأولنا ، لوجدنا عليه وجداً غير هذا ! وإنا عليه لمحزونون ! تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول ما يُسخط الرب ، وفضلُ رَضاعه فى الجنة »[1].

وهنا تنحدر من عينى الرجل دموع غزار ، وتأخذه عَبرة شديدة يهتز لها جسمه كله اهتزازاً عنيفاً . فإذا انجلت عنه قال : « أعدْ علىّ حديثك هذا ؛ فإنى أجد له عذوبة ما وجدتها لحديث قط » . فأعيد عليه الحديث ، فيسمعه مصغياً إليه أشد الإصغاء ولا تنهمر عبرته ولا تأخذه الرعدة هذه المرة ، وإنما يقول فى صوت هادئ : « امض فى حديثك » . فأقول : « لقد بلغت آخره أو كدت أبلغه . فهذا الأب يحمل ابنه إلى القبر ، ويجلس لينظر والناس يوارونه فى التراب ، ويرى فرجة قد تُركت فى اللحد ، فيأخذ حجراً ويناوله مَنْ قام على تسوية القبر ويقول : « إنها لا تضرّ ولا تنفع ولكنها تُقرّ عين الحىّ »[2].

وهنا يعود الرجل إلى استعباره ، ولكنه فى هذه المرة لا يبكى وحده وإنما يبكى معه مَنْ حوله من الناس . ويقول راهب من رُهبانهم : « ما هذا بكلام رجل كالرجال » . ثم يسأل الشيخ أن أمضى فى حديثى ، فأقول : « لقد انتهيت منه أو كدت أنتهى . فقد عاد نبينا إلى بيته

---

(١) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٨٦ .

(٢) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٩١ .

محزوناً تجلداً ، وانكسفت الشمس فى ذلك اليوم ، فيتحدث الناس بالمعجزة ، ويقول بعضهم لبعض : « إنما انكسفت الشمس حزناً لموت إبراهيم ابن النبى » . وينتهى حديث الناس إلى نبينا ، فيخرج ساعياً حتى يأتى المنبر ، فيرقاه ويحمد الله ويُثنى عليه فيقول : « أما بعد أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى المساجد »(١).

وأقف بحديثى عند هذه الغاية وأنظر ، فإذا مَنْ حولى فى صمت عميق تنحدر على وجوههم دموع هادئة لا تمثل حزناً ولا جزعاً ، وإنما تصوّر قلوباً لينة رحيمة ، ونفوساً قد كشف عنها الغطاء ، وإذا الشيخ ينهض من مجلسه رزيناً ويسعى إلىّ هادئاً وهو يقول : « ابسط يدك ، فما أرى إلا أن نبيك قد جاء بالهدى » . وما أكاد أتلقى منه إسلامه حتى يكون الرهبان والقسيسون الذين حضروا المجلس أسرع الناس إلىّ ، كلهم يُعلن إسلامه ، ويتبعهم مَنْ حضرنا من عامة الناس . وما أبرح القرية من الغد حتى يكون أهلها جميعاً قد ساروا سيرة عظيمهم وقسيسيهم ومَنْ وفد عليهم من القرى المجاورة ، وحتى يكون بيت مالك أيها الأمير قد رُزئ فيما رزئ فيه من الجزية » .

قال الأمير بعد صمت طويل : « فهل تعلم أن لهذا الحديث وجهاً آخر من الإعجاز ؟ » . قال حنظلة : « وما ذاك ؟ » . قال الأمير : « قد سمعت من كان يتحدث فى الشام عن موت إبراهيم ابن رسول الله

(١) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٩١ .

ويقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو عاش إبراهيم لوضعت الجزية عن كل قبطى[1] " .

« فإنك يا حنظلة قد أحييت ذكرى إبراهيم فى هذه القرية فوضعت الجزية عن أهلها » .

(١) طبقات ابن سعد الجزء الأول صفحة ٩٣ .

فهرس

رقم الإيداع		١٩٩٣ / ١١٢٥٥
الترقيم الدولى	977 – 02 – 4320 – 5	ISBN

١ / ٩٣ / ١٢٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

كتب أخرى للمؤلف

- **في المباحث الإسلامية :**

مرآة الإسلام

- **في الأدب والنقد :**

في الأدب الجاهلي — فصول في الأدب والنقد

حديث الأربعاء (٣ أجزاء) — تجديد ذكرى أبي العلاء

مع المتنبي — مع أبي العلاء في سجنه

من حديث الشعر والنثر — ألوان — جنة الشوك

- **في أدب التمثيل :**

من الأدب التمثيلي اليوناني

- **في القصة والرواية :**

الحب الضائع — دعاء الكروان

شجرة البؤس — صوت باريس

المعذبون في الأرض — ما وراء النهر (قصة لم تتم)

- **في التراجم والسير :**

على هامش السيرة (٣ أجزاء) — الوعد الحق – الشيخان

عثمان — على وبنوه

الأيام (٣ أجزاء) — أديب – قادة الفكر

- **في الاجتماع :**

نظام الأثينيين

- **في التربية :**

مستقبل الثقافة في مصر

- **في سلسلة اقرأ :**

أحلام شهر زاد — الحب الضائع

الوعد الحق — رحلة الربيع

صوت أبي العلاء — المعذبون في الأرض